الفن الإسلامي

تاريخه وخصائصه



الفن الإسلامي

تاريخه وخصائصه

تأليف

الدكتور
محمد عبد العزيز مرزوق
استاذ الفنون الاسلامية في جامعة بغداد

مطبعة اسعد ـ بغداد
١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذه دارسة موجزة للفن الاسلامي ، قصدت بها اولئك الذين يعدون انفسهم للتخصص في دراسة هذا الفن من جوانبه المختلفة ، فهم واجدون في هذه الصفحات القليلة عرضا موجزا لشتى نواحي هذا الفن فيلمون بها هنا اجمالا قبل ان يقبلوا على دراستها تفصيلا •

وقد قصدت بها ايضا اولئك الراغبين في الثقافة العامة ، فاعطيتهم هنا صورة من الفن الاسلامي ، ان اعوزها التفصيل في كثير من اجزائها فلا يعوزها الوضوح • ولعل في هذه الصورة الصغيرة ما يحفزهم الى دراسة هذا الموضوع في مراجعه المطولة ، ويستهويهم الى متابعة النظر في كل ما يتعلق به فيزداد عدد الذين يعنون بهذا الفرع الهام من فروع المعرفة •

ولا ينتظر القاريء ان يجد في الصفحات المقبلة دراسة عميقة لكل ما خلفه اجدادنا من المسلمين من عمائر وتحف ، فهذا مكانه في كتب اخرى قصرت نفسها على بحث ناحية واحدة او نواح قليلة من الفن الاسلامي ، اما الذي حرصت على ان اثبته هنا فلا يخرج عن كونه تعريفا بالاثار الاسلامية في شتى البقاع ، وتصحيحا لبعض ما شاع من اخطاء عن الفن الاسلامي • وايضاحا لما يكمن وراء الزخرفة الاسلامية من روح وفلسفة •

والله ارجو ان اكون في محاولتي هذه قد حققت ما اهدف اليه ••

بغداد في نيسان سنة ١٩٦٥ **محمد عبدالعزيز مرزوق**

فهرس

مولد الفن الإسلامي

سؤال هام يواجهنا اول ما يواجهنا في موضوعنا هذا نحب ان نجيب عليه ، قبل ان نمضي في البحث هو : هل حقيقة ان مايسمى بالفن الاسلامي ليس الا صورة متأخرة ، متدهورة من الفن البيزنطي ، والفن الساساني كما كان يزعم بعض المستشرقين ؟

الواقع ان هذا ادعاء لم يوجد بعد من يؤمن به اليوم من المستشرقين او غيرهم ، هو ادعاء ينكره الواقع الملموس ، فشخصية الفن الاسلامي لا ريب فيها ولا جدال ، فهذا الفن الذي ولد في تلك البقعة من الارض التي شهدت الحضارات العظيمة قبل الاسلام ، قد استمد روحه من الدين الاسلامي ، واستمد جسمه من تراث هذه الحضارات ، فانتقي من هذا التراث ما يلائمه لابراز روحه ، ثم أخذ يتمثل هذه العناصر التي اختارها ، وكلما انتظمت الاعوام قرونا تزايد ابتعاد هذا الفن عن تلك المصادر التي استمد منها كيانه المادي ، ثم اخذ بدوره يخرج لنا ذلك التراث القديم الذي ورثه ، واستفاد به ، في صورة جديدة قد يصعب علينا في كثير من الاحيان ان نتعرف منها على المنابع التي استمدت منها اجزاءها .

واغلب الظن ان اولئك الذين انكروا على الفن الاسلامي شخصيته قد تخيلوا ان العرب جميعا من القبائل الرحل ، ونسوا او تناسوا ان من العرب منهم المقيم ، ومنهم الظاعن ، وانه اذا كان فيهم من يحيا حياة الترحال فان من بينهم ايضا من كان يعيش في المدن ، وانه كانت لهم مدن عامرة في شتى انحاء الجزيرة العربية .

ولقد حاول اولئك المنكرون على الفن الاسلامي شخصيته ، ان يؤيدوا وجهة نظرهم بأن اتجاهات الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، لا يستقيم معها تكوين فن اسلامي ، فقد قال – على ما رواه ابن خلدون في مقدمته – لا ترفعوا بنيانا فوق القدر (اي بما لا يقرب من الاسراف ولا يخرج عن القصد) ، ولكنهم هنا ايضا نسوا او تناسوا ان الفن الاسلامي انما ولد بعد عمر بن الخطاب – كما سنرى فيما بعد – ولم يولد قبله او في عهده الذي كان عهد تأسيس للدولة الاسلامية العظيمة ، ولا يستقيم مع تأسيس الدول توجيه العناية الى الفن .

وفي اعتقادي ان اولئك المنكرين قد خدعتهم المظاهر الفنية ، التي شاهدوها في المنشآت الاسلامية الاولى ، التي يتجلى فيها الكثير من العناصر الزخرفية البيزنطية والساسانية ، فأصدروا حكمهم هذا دون تعمق في الدراسة وتجاهلوا ان الفن الاسلامي – كغيره من الفنون الاخرى – انما اعتمد في عناصره المادية على الفنون السابقة عليه ، واهمها الفن البيزنطي ، والفن الساساني ، وان العرب عندما انصرفوا الى تجميل حياتهم تلبية لتوجيه دينهم – كما سنوضح بعد قليل – استعانوا في التشييد ، والتعمير ، والتجميل برجال الصناعة والفن من البيزنطيين والساسان ، واسبغوا على هؤلاء رعايتهم وحمايتهم ، فكان طبيعيا ان تظهر في منشآتهم الاولى عناصر الفن البيزنطي الذي كان سائدا قبل الاسلام في الشام ومصر وبلاد المغرب ، وعناصر الفن الساساني الذي كان سائدا قبل الاسلام في العراق وايران .

فالفن الاسلامي ليس كما يقولون صورة متأخرة من صور الفنون السابقة على الاسلام ، بل هو فن له هدف يختلف عن هدف الفنون التي تقدمته ، وله شخصية مستقلة ان بدت ضعيفة في أول الأمر فقد اصبحت قوية بارزة بعد ذلك .

وفي الصفحات التالية محاولة لتأييد ذلك ، ولعل خير وسيلة نسلكها لابراز هذه الحقيقة ، واضحة جلية ، ان نخرج في رحلة سريعة ، نستعرض في خلالها اهم العمائر التي خلفها اجدادنا المسلمون وراءهم ثم ننظر الى التحف المختلفة التي صنعوها في العصور الوسطى والتي تزدان بها المتاحف اليوم ، ثم نجلس بعد ذلك لنستعرض في اذهاننا صور ذلك الفن الذي رأيناه ماثلا في تلك العمائر

والتحف ، ونتأمل في مظاهره التي تجلت لنا فيها ، ثم نحاول بعد ذلك ان نتفهم اهدافه •

وطبيعي ان نبدأ رحلتنا من البلد الذي بزغت فيه اول ما بزغت تلك الروح الكامنة وراء هذا الفن ، بزغ فيه الاسلام فانار ارجاء العالم ، فنطوف بالحجاز اولا ثم نطير فوق الفيافي والمحيطات ، ونشهد اهم ما بقي لنا من تراث اجدادنا في البلاد الممتدة من المحيط الاطلسي الى ما وراء الخليج العربي : الى الهند ، والى الصين •

وفي الحجاز ، وفي مكة بالذات ، ولد النبي الكريم محمد بن عبدالله الذي اتى بالاسلام ، وفيها نما وترعرع ، ومنها سافر في صباه الى بلاد الشام ، والسفر يوقظ المواهب ويوسع المدارك ، ومنها ايضا خرج في شبابه متجرا ، وتجارة القوافل تساعد على تكوين الشخصية ، اذ هي تحتاج الى الحزم والى المهارة ، وتفتقر الى الصدق والى الامانة واللباقة في معاملة الناس • وفي مكة تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره بالسيدة خديجة ، وكان زواجا موفقا ، وللزواج الموفق اثر بعيد في حياة الانسان • وفي الاربعين اوحى اليه ان يبشر بالدين الجديد ، بالاسلام • وقد كانت هذه المرحلة التي امتدت ثلاثة عشر عاما مرحلة كفاح مرير في سبيل نشر هذا الدين الجديد ، فقد كانت المعارضة قوية غاية القوة ، تستمد عنفها اكثر ما تستمده من الناحية الاقتصادية ، ولا عجب فقد كانت قريش ترى مصلحتها في التمسك بالدين القديم لما وراء ذلك من النفع المادي ، لذلك اضطهدته رغم ما كانت تعرفه عنه من صدق وامانة ، وانزلت به وبمن اتبعه الذل والعذاب والهوان ، وتحت ضغط هذا الاضطهاد نراه يدفع ببعض اتباعه الى الهجرة الى الحبشة ، ثم نراه هو بعد ذلك يهاجر الى يثرب لأنه أيقن ان قريشا لن تدخل في دينه الا مكرهة • والمرحلة الأخيرة من حياته ــ صلوات الله عليه ــ قد امتدت من هجرته هذه حتى انتقاله الى الرفيق الاعلى ، وهي اهم المراحل في تاريخ الاسلام خاصة ، وتاريخ العالم عامة • ذلك ان الظروف في يثرب ــ او في المدينة كما اصبحت تسمى بعد الهجرة ــ قد استلزمت ان يكون الرسول الكريم داعيا دينيا ، وداعيا سياسيا ، وداعيا اجتماعيا • فقد صار في المدينة احزاب مختلفة ، اشبه ما تكون باحزابنا السياسية في عصرنا

الحاضر : حزب المهاجرين الذين هاجروا من مكة ، وحزب الانصار الذين نصروا النبي من اهل يثرب ، وحزب اليهود الذين اتخذوا من يثرب موطنا لهم بعد ان هاجروا اليها من اليمن ومن فلسطين ، وحزب المنافقين ـ ان صح ان يكون للمنافقين حزب ـ وهم الذين اظهروا الاسلام وابطنوا الكيد له .

وقد كان على النبي ان يحقق التجانس بين هذه الاحزاب المختلفة ، وان يخلق منها قوة يستعين بها على نشر دعوته ، وتثبيت اركان دينه ، فوضع لهذه الدولة الناشئة دستورا يجمع فيه بين المسلمين وبين من يساكنهم في المدينة حتى يتعاونوا معا . وهذا الدستور او هذه الصحيفة ـ كما تسميها المراجع التاريخية ـ هو دستور مدون ، مكتوب ، وتدوينه في ذلك الزمن الذي كانت تسوده الامية ان دلّ على شيء فانما يدل على حرص شديد على التنظيم الدقيق ، الامر الذي لم يكن مألوفا في ذلك العهد . ولعل اهم ما جاء في هذا الدستور هو اعتباره العرب امة واحدة لا قبائل شتى ، فالقبائل المتعددة قد فقدت به مقوماتها القديمة ، واصبحت تؤلف امة واحدة ، تقف صفا واحدا في وجه غيرها من الامم .

واتخذ النبي في المدينة مكانا عاما يجتمع فيه باصحابه لاقامة شعائر الدين الجديد ، وللتشاور في شئون الدنيا هو المسجد .

وينبغي ان نشير هنا الى ان المسجد قد اختلف في هدفه عن المعابد القديمة التي سبقته ، فقد كانت هذه المعابد والكنائس اماكن للعبادة فحسب ، فيها بقاع مقدسة لا يقربها الا احد رجال الدين ، اما المسجد فليس فيه شيء من ذلك ، ليس فيه قدس الاقداس حيث تمثال المعبود الذي لايدخله الا الكاهن الاعظم ، وليس فيه الهيكل الذي لايدخله الاكبار القساوسة ، بل كل بقعة في المسجد تستوي في الاهمية مع اي بقعة اخرى ، والمحراب الذي حظى بشيء من عناية الفنانين فيما بعد ليس الا نقطة تحدد اتجاه المسلمين عند الصلاة .

وهذا المسجد الذي عمل النبي بيده في بنائه ، وعاونه في ذلك المهاجرون والانصار ، كان بناء ساذجا ، يترجم في بساطته عن بساط الدين الاسلامي ، وقد اقيم على قطعة ارض مربعة الشكل ، احيطت بجدران أسسها من الحجر ، وقوامها من اللبن ، وكانت قبلة المصلين فيه الى الشمال تجاه بيت المقدس ، وقد اقيمت سقيفة في هذه الجهة ، قوامها جريد النخل المغطى بالطين ، وتعتمد على

عمد من جذوع النخل . وعندما تحولت القبلة الى الجنوب تجاه مكة بعد ان فتحها النبي ، وقضى فيها على الوثنية ، وطهر الكعبة[١] من الاصنام ، واصبحت قبلة للمسلمين في صلاتهم ، اقيمت في مسجد المدينة سقيفة اخرى في الجنوب مثل السقيفة السابقة ، وبقيت السقيفة القديمة يستظل بها فقراء المدينة من المسلمين ، وبذلك اصبح للمسجد جزء مكشوف في الوسط ، وسقيفتان احداهما الى الشمال ، والاخرى الى الجنوب . وقد دفعت سنة التطور الى وصل ما بين هاتين السقيفتين بسقيفتين جانبيتين احداهما الى اليمين والاخرى الى اليسار حتى تزيد مساحة الجزء المسقوف من المسجد[٢] .

في هذا المسجد سمع المسلمون الاوائل اول درس في الفن الجميل ، او بعبارة اخرى اول درس في وجوب العناية بهذا الفن . ذلك ان الحق سبحانه وتعالى على لسان نبيه الكريم لفت الانظار الى ناحيتي الجمال والزينة في المخلوقات الى جانب ما لها من النفع ، حتى يدرك الانسان ان الحياة الانسانية الصحيحة لا تقوم على الضروريات وحدها بل هناك جوانب اخرى لاتتصل بالضروريات او المنفعة في شيء ولكنها تهدف الى ما هو اسمى من ذلك ، تهدف الى ما يحقق

---

(١) الكعبة بناء قائم وسط المسجد الحرام في مكة ، وهي مربعة الشكل ، عبارة عن غرفة واحدة يرتفع سقفها عن سطح الارض نحو خمسة عشر مترا ، وفي ضلعها الشرقي باب يوصل الى جوفها ويرتفع عن سطح الارض بنحو مترين ، وفي الركن الجنوبي الشرقي منها من الخارج يوجد الحجر الاسود ، وارتفاعه عن سطح الارض نحو متر ونصف . وقد كانت اصنام العرب في داخل الكعبة ، وبعدفتح مكة دخل النبي الى الكعبة وطهرها من الاصنام واصبحت منذ ذلك الوقت خالية من كل شيء ، ويصلي الناس في جوفها او حولها متجهين الى اي جهة من جهاتها الاربع .

(٢) اثار مسجد المدينة بين علماء الاثار الاسلامية جدلا مداره هل انشيء هذا المسجد ليكون جزءا من منزل النبي الذي بناه في المدينة ، ام انه انشيء ليكون مسجدا مستقلا ، وعلى من يريد أن يتوسع في هذه النقطة ان يرجع الى مقالة « مسجد » في دائرة المعارف الاسلامية ، ومقالة « عمارة » في هذه الدائرة . وكتاب : Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 1.

وبحث الاستاذ محمود عكوش في مجلة الهندسة بعنوان المسجد الاعظم بالمدينة ثم كتاب الاستاذ الدكتور احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ــ المدخل ص ١٦٣ وما بعدها .

للحياة الانسانية انسانيتها وسموها عن الحيوانية ، تلك هي جوانب الزينة والجمال وهما لباب الفن الجميل • يقول الله تعالى في سورة النحل : « **والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون ، وحين تسرحون ، وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرءوف رحيم • والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون** » •

وهذه اللفتة الطيبة من الاسلام نحو الفن لها مغزاها العظيم ، فالعناية بالفن الجميل هي خير وسيلة لتهذيب الذوق ، واذا كنا نعني بتثقيف العقل حتى نصل الى حب الحق ، ونعني بتهذيب الخلق حتى نصل الى حب الخير ، فينبغي ان نعني كذلك بتهذيب الذوق حتى نصل الى حب الجمال • ونحن في الحقيقة في اشد الحاجة الى تهذيب اذواقنا ، وادراك قيمة الجمال في حياتنا ، والايمان بان تربية حاسة الجمال فينا أمر لامفر لنا منه ان شئنا ان نسمو فوق مستوى الحيوانية •

وقد كان الدرس الثاني الذي وعاه المسلمون من قرآنهم الكريم يدور حول بيان الوسيلة التي توصلنا الى تحقيق هذه الغاية حتى لا نتخبط في سبيل تحقيقها ، فوجه انظارنا الى مظاهر الجمال فيما ابدعه الله من مخلوقات ، واقسم ببعض هذه المظاهر حتى يشدنا اليها[١] لكي نتأمل فيها ، وندرك ما فيها من اسرار الجمال الفني من تكوين محكم ، وتنسيق بديع ، والوان رائعة ، وتناسب ، وتقابل ، وتكرار وظلال واضواء • والواقع ان التأمل في مظاهر الجمال يشحذ في الانسان قوة الملاحظة ، وقوة التفكير ، وقوة التدبر وهذه من العمد الاساسية التي يقوم عليها الفن ، وهذا التأمل ايضا من شأنه ان يرهف الحسّ ، ويصفي الذوق ، ويذكي في النفس حب الجمال • واذا ما تكوّن الذوق السليم وارتقى مستواه ، ومرن الناس على تقدير مظاهر الجمال ، ارتقوا في حياتهم الخاصة وفي حياتهم

---

(١) نذكر على سبيل المثال لا الحصر قول الله تعالى في كتابه الكريم : « **والضحى ، والليل اذا سجى** » • وقوله : « **والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها** » • وقوله : « **أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت** » • وقوله : « **قل سيروا في الارض وانظروا كيف خلق الخلق** » •

العامة ، فلا يقبلون الا على استعمال ما هو جميل ، ولا ترتاح نفوسهم الا الى رؤية الجمال ممثلا في كل ما يحيط بهم ، تؤذيهم الفوضى في الحياة المادية ، وفي الحياة المعنوية ، ويؤلمهم عدم التوازن والانسجام في محيطهم الخاص ، وفي محيطهم العام ، فالاسلام قد عمل في الحقيقة على ان يخلق من اتباعه فنانين او محبين للفن حتى يكونوا رسل الجمال في هذه الدنيا •

وقد كان الدرس الثالث في هذا الموضوع ان الاسلام الصحيح لم يعرف الزهد في متع الحياة المشروعة ، فهو لم يحرمها ، ولم يزهد فيها ، لأنه رأى ان في تحريمها او التزهيد فيها اضعافا للجسم ، ومن ضعف جسمه صعب عليه ان يكون عضوا نافعا في المجتمع ، ومن هنا حرص الاسلام على ان يهذب ما في النفوس من غرائز ، ونزعات ، وميول ، وان يسمو بها ، فمهد بذلك سبيل الوصول الى المثل الاعلى للانسان ، يقول الله تعالى في سورة الاعراف : « **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا ، واشربوا ، ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** » • ومن هنا يخطيء اولئك الذين يظنون ان المسلم الحق هو ذلك الذي يقبل على الآخرة ويصدف عن الدنيا ، ويترك لغيره تدبير شؤنها ، واستغلال خيراتها •

بهذه الدروس الثلاثة فتح الاسلام الاذهان الى أهمية الفن في الحياة • وقد حفظها المسلمون مع ما حفظوا من كتاب الله ، واستفادوا بها عندما مست الحاجة اليها بعد ان استقروا في حياتهم الجديدة •

* * *

واصبح النبي على رأس دولة قد اكتسبت من الاجتماع على دين واحد ، وحزب واحد ، ونظم واحدة ، وسلطان واحد ، قوة هائلة فاتجهت الى الكفاح الخارجي ، واصطدمت اول ما اصطدمت مع مكة معقل الوثنية ، وخرجت من هذا الصدام ظافرة منتصرة ، ودخل الاسلام مكة ، وقضى فيها على الوثنية ، وطهر الكعبة من الاصنام • وانتقل النبي الى الرفيق الاعلى بعد ان نقل العرب في مدى عشر سنوات نقلة بعيدة المدى في شتى النواحي •

وانتخب بعده ابو بكر ، واشتد في عهده شعور العرب بقوميتهم ، فاتجهوا صوب اولئك الذين كانوا ينظرون اليهم في الماضي نظرة القوي الى الضعيف ، والسيد الى المسود : أتجهوا صوب الفرس وصوب الروم ، وكان خروجهم اليهما في أنسب الاوقات ، لأن الحروب والفتن الداخلية كانت قد انهكت قواهما ، وسرعان ما سقطت الدولة الساسانية ـ دولة الفرس ـ وسرعان ما فقدت الدولة البيزنطية ـ دولة الروم ـ معظم املاكها ، وهكذا ارتفعت اعلام الاسلام فوق فارس والعراق والشام ومصر ، وفي الحق لقد كانت حركة الفتح هذه امرا خارقا للعادة ، معجزا بالنسبة للعرب انفسهم (١) •

ولقد كانت هذه الدولة التي وجدت بين عشية وضحاها في حاجة الى التنظيم في ادارتها ، لأن التنظيم مانع من الفوضى ، وباعث على الاستقرار واستمرار التقدم • ولقد رزقت ، لحسن حظها ، في هذه الفترة الدقيقة من حياتها ، بعبقرية عمر بن الخطاب الادارية ، فكانت لها ضمانا من الاختلال •

ولقد رأى عمر بثاقب نظره ، وحسن تقديره للأمور أنه أجدى على هذه الدولة الناشئة أن تثبت اركان النظم الادارية التي وجدها العرب في البلاد التي

---

(١) في اعتقادي ان الشعور القومي الذي اذكاه القرآن في نفوس العرب عندما قال لهم : « **كنتم خير امة اخرجت للناس** » ، كان من اقوى الاسباب في الفتوحات العربية ان لم يكن اقواها جميعا ، أما نشر الاسلام فقد جاء تبعا لذلك » ، ولم يقم قط بحد السيف كما يدعى المغرضون ، « **لا اكراه في الدين** » • وقد علمنا التاريخ ان الامة اذا أحست بقوميتها ، واستكملت شخصيتها نهضت لكي تتبوأ مركزها بين الامم القوية ، ففي العصر الفرعوني مثلا في ايام الدولة الحديثة نهضت مصر نهضة قوية أسست فيها امبراطورية عظيمة ، ذلك لأن الشعور القومي فيها قد ازداد والتهب بعد ان كتب للمصريين النصر على الهكسوس • والاغريق ـ بعد هزيمتهم في الحروب الفارسية ـ قام فيهم الاسكندر وايقظ فيهم روح القومية فهبوا معه يؤدبون عدوهم ، وينشئون امبراطوريتهم العظيمة • والانجليز في العصر الحديث بعد ان انتزعوا زعامة البحر من الاسبان بانتصارهم على الارمادا (الاسطول الاسباني) اخذوا يعملون على تكوين امبراطوريتهم التي كانت منذ عهد ليس بالبعيد لا تغرب عنها الشمس كما يقولون • والعرب لا يختلفون عن هذه الامم في شيء ، فعندما اشعرهم الاسلام بقوميتهم ، وجمع كلمتهم انبعثوا الى اولئك الذين كانوا ينظرون اليهم نظرة السيد الى المسود •

فتحوها من ان تكد الذهن في سبيل استنباط نظام جديد ، ولذلك نراه يبقى على هذه النظم القائمة ، ولا يمسها الا بقدر ما يصلح ما فيها من فساد ، ولا يغير فيها الا ما يتصل بحفظ كيان العرب ، ويثبت وجودهم ، فعلى سبيل المثـــال لا الحصر نذكر ان العرب كانوا قبل الاسلام يتعاملون بنقود الفرس والروم ، وكانت نقود الفرس هي الدراهم الفضية ، ونقود الروم هي الدنانير الذهبية ، وقد استمر ذلك متبعا بعد الاسلام في ايام الرسول الكريم وايام ابي بكر • وعندما جاء عمر بن الخطاب ضرب الدراهم الاسلامية على نقش الدراهم الفارسية ولكنه زاد فيها عبارة : « الحمد لله » او « محمد رسول الله » او « لا اله الا الله وحده » • وذلك اثباتا لظهور العرب على مسرح التاريخ (١) •

ولقد جنى الاسلام من هذه السياسة الحكيمة مغانم كثيرة : مغانم روحية ، ومغانم اقتصادية ، ومغانم فنية •

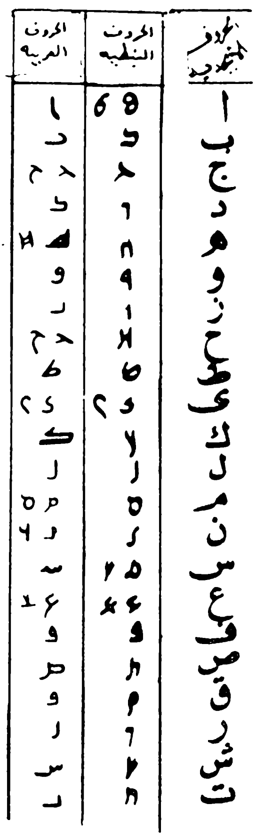
اما المغانم الروحية فتتمثل لنا في انتشار الاسلام انتشارا عظيما دون ان تقصد الدولة الى ذلك ، عملا بقوله تعالى : « **لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغيّ** » • وقد استتبع انتشار الاسلام انتشار اللغة العربية لاقامة شعائر الدين ، والتفقه فيه ، فصار كل مسلم جديد يحرص على تعلم اللغة العربية حرصه على الدين ، وباتحاد عنصري اللغة والدين تعربت البلاد ، واعانت المصاهرة على الاختلاط ، ونشأ عنها جيل جديد ينسب نفسه الى العرب •

وقد استتبع انتشار اللغة العربية انتشار الخط العربي ، ذلك لان الامم التي خضعت للعرب وآثرت ان تحتفظ في ظلهم بلغاتها ، رأت ، لكي تيسر على ابنائها الذين دخلوا في الدين الجديد ، ان تكتب لغاتها بالحروف العربية حتى تجنب هؤلاء المسلمين الجدد مشقة تعلم نوعين مختلفين من الخط : احدهمـــا لشئون الدنيا وهو خط لغاتهم الاصلية ، والآخر لشئون دينهم الجديد وهـــو الخط العربي ، وهكذا نجد ان الخط العربي قد حلّ محل الخط البهلوي في ايران ، ومحل الخط الاردى في الهند ، كما استعمل ايضا في كتابة اللغـــة

---

(١) انظر : المقريزي ، النقود القديمة الاسلامية ــ نشـر الاب انستاس الكرملي ــ القاهرة سنة ١٩٣٩ •

الاسبانية بين المدجنين في الاندلس ، وفي كتابة اللغة التركية العثمانية منذ ان اعتنق هؤلاء الاتراك العثمانيون الاسلام حتى جاء مصطفى كمال اتاترك في سنة ١٩٢٤م فكتب هذه اللغة بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية •



شكل (١)

ونقف هنا قليلا لكي نتساءل هل كان للعرب خط كتبوا به لغتهم ؟ والجواب على ذلك يتطلب منا ان نعود الى ما قبل الاسلام لنجد ان اجدادنا من عرب الحجاز في الجاهلية لم يكن لهم خط خاص بهم ، ولكنهم استعاروا الخط الذي كان يكتب به الاراميون لغتهم ، على انهم لم يجمدوا عند حد ما اخذوه من الاراميين بل طوروا ذلك الخط، وعدلوا فيه حتى اصبح لهم خط خاص بهم يختلف عن الخط الارامي • والواقع ان قصة الخط العربي قصة شيقة ، ممتعة يكفينا ان نذكر منها هنا ذلك الجانب الذي يرتاح اليه العلماء اليوم (١) ، وهو ان الخط العربي الذي نستعمله الآن قد ولد في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية ، في البقعة الممتدة بين شبه جزيرة سينا وفلسطين حيث كان يعيش الانباط ، وهم قبائل عربية ، كانت تعيش عيشة بدوية ثم هجرت حياة البداوة الى حياة الحضر ، واتصلوا بالاراميين ، وتحضروا بحضارتهم التي كانت منتشرة في تلك البقاع ، وقد كانت عاصمتهم مدينة « سلع » الواقعة في منتصف المسافة بين خليج العقبة والبحر الميت (٢) •

(١) من اراد الوقوف على هذه القصة التي تجمع بين الخرافة والتاريخ ان يرجع الى البحث القيم الذي كتبه زميلنا الاستاذ الدكتور خليل يحي نامي ونشر في مجلة كلية الاداب في جامعة القاهرة في سنة ١٩٣٥ في الجزء الاول من المجلد الثالث •

(٢) اطلق اليونان على هذه المدينة اسم Petra وسميت بالعربية «بطرة» وهى الان تسمى وادي موسى ، وقد كشفت الحفائر الاثرية فيها عن ابنية كثيرة =

وتعلم الانباط الكتابة الارامية ، واخذوا يستعملون خطها في كتابة لغتهم العربية ، وقد كانت كتابتهم بطبيعة الحال غير متقنة ، شأن كل انسان بدأ كتابة خط جديد عليه ، وطبيعي انهم لم يحسنوا تقليد هذه الحروف الارامية . ثم دار الزمن دورته ، واتى جيل جديد من الانباط ، وتعلم هذا الجيل ذلك الخط الارامي غير المتقن ، واتسعت الهوة بين خط هذا الجيل وبين الخط الارامي الاصيل حتى اصبح له طابع خاص به وعرف بالخط النبطى . ويتجلى لنا هـذا الخط النبطي في نقش النمارة المؤرخ سنة ٣٢٨م[(١)] .

وتطور الخط النبطي حتى فقد بالتدريـج صورته الاولى ، واصبحت لـه صورة جديدة هي اولى صور الخط العربي (شكل (١) العامود الايسر) . ونلمس هذا التطور فيما وصل الينا من نقوش عربية ترجع الى العصر الجاهلي نذكر منها نقش حرّان المؤرخ سنة ٥٩٨م[(٢)] ، وهو يحتفظ لنا بالكثير من خصائص الخط النبطي التي تتجلى لنا في اداء بعض الحروف لصوتين مختلفين مثل الطاء ، فقد تكون « ط » او « ظ » . وتتجلى لنا أيضا في حذف الحركات الممدودة في الكتابة واثباتها في النطق ، فكلمة « مالك » مثلا تكتب في النبطية ملك بدون الف ولكنها تنطق « مالك » ونلاحظ ان الترتيب الابجدي للحروف العربية (أ ب ج د هـ و ز الخ) هو ترتيب نبطي ، اما الترتيب العربي لهذه الحروف فهو (أ ب ت ث ج ح خ د ذ الخ) . والقرآن الكريم يحتفظ لنا في صورته الاولى بالكثير من هذه الخصائص النبطية ، كما يحتفظ بهذه الخصائص ، كلها او بعضها ، كثير من اوراق البردي العربية التي كشفت عنها الحفائر الاثرية في مصر ، ومعظمها يرجع الى فجر الاسلام .

وبدأ الخط العربي يشق طريقه ، ويشير ابن النديم في كتابه « الفهرست » الى الخط المكي والخط المدني ، ولكنه لايذكر لنا شيئا عن خصائص هذيـن النوعين من الخط العربي . ولم تصل الينا ، حتى الآن ، وثائق نعرف منها شكل

= منحوتة في الصخر . وتعد هذه البقعة من اهم المناطق السياحية في مملكة شرق الاردن ، ولجمال الطبيعة في هذه المنطقة يطلق بعض الكتاب الاجانب عليها اسم The Red Rose City.

(١) انظر صورة هذا النقش في كتاب « قصة الكتابة العربية » للدكتور ابراهيم جمعة ـ نشر دار المعارف بالقاهرة ـ مجموعة اقرأ رقم ٥٣ ، ص ١٩ .

(٢) انظرة صورة هذا النقش في المرجع السابق في نفس الصفحة .

هذين الخطين ، او شكل الخط الذي كان شائعا في عهد النبوة وصدر الاسلام بصفة عامة يوم كان للمدينة المنورة ومكة المكرمة شأن عظيم[1] .

واقدم الوثائق الخطية التي وصلت الينا اما اوراق بردية نرى عليها خطا ليناً قريب في صورته من الخط المعروف عندنا اليوم بخط النسخ ، واما مصاحف قديمة مكتوبة على الرق بخط يختلف في صورته وفي اسمه عن ذلك الخط اللين هو الذي يسميه رجال الاثار بالخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة التي اسسها عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة بعد الهجرة (٦٣٨م) ، واصبحت في خلافة علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عاصمة للعالم الاسلامي ، ولعبت دورا عظيما نلمس اثره فيمن عاش فيها او خرج منها من العلماء والفقهاء والمحدثين . ولقد كان طبيعيا ان تعني هذه المدينة ـ فيما عنيت به من شؤون الثقافة ـ بالخط العربي فجودته ، وابدعت في رسم حروفه حتى ظهر ذلك الطراز الذي يحمل اسمها[2] .

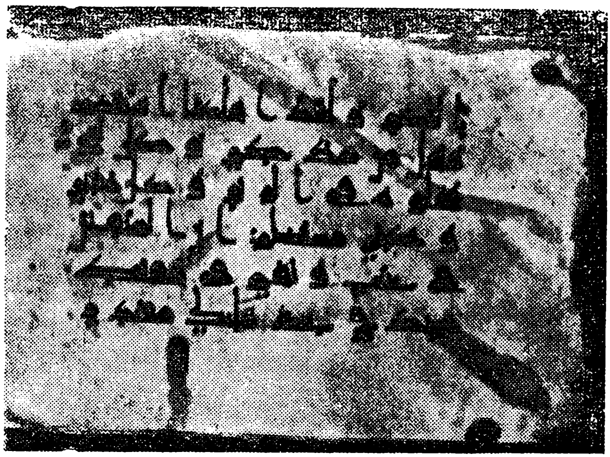
ولكن هذا الخط الكوفي الذي كتب به القرآن الكريم ، لم يكن من السهل على غير العرب قراءته قراءة صحيحة ، فتورط كثير من الاجانب الذين اسلموا في اخطاء جسيمة لفتت انظار العرب الخلص ، وجعلت الامويين يحسون بهذه المشكلة احساسا عميقا ، ويشعرون بانه من حق دينهم عليهم ان يعملوا على ايجاد طريقة تيسر على غير العرب قراءة القرآن قراءة صحيحة ، واخذوا يفكرون في ذلك حتى وفق ابو الاسود الدؤلي الى حل لهذه المشكلة في سنة ٦٧هـ (٦٨٦م) يتلخص في تشكيل الحروف بواسطة النقط ، اذ ابتكر طريقة التنقيط لا لتمييز بعض الحروف عن بعضها كما حصل فيما بعد ، وكما هو معروف الآن ، ولكن لكي تعاون الناس على النطق الصحيح ، فجعل النقطة فوق الحرف دليل الفتحة ،

---

(١) هناك كتب منسوبة الى عصر النبوة يقال ان النبي صلوات الله عليه قد بعث بها الى الملوك والحكام . وهي موضع شك كبير من ناحية الخط لا من ناحية ارسالها . انظر صورة واحد من هذه الكتب في ص ٣٥ من كتاب الدكتور جمعه سالف الذكر .

(٢) ترى نموذجا من هذا الخط في شكل ٢ من هذا الكتاب .

وجعلها تحت الحرف دليل الكسرة ، وجعلها امام الحرف دليل الضمة ، اما النقطتان فقد استعملهما للدلالة على التنوين ، وفي الصورة المنشورة مع هذا الكلام بعض آيات من سورة القمر من مصحف قديم مكتوب على الرق تتجلى فيه هذه الطريقة ، كما تتجلى الطريقة النبطية في حذف حرف المد في كلمة « اشياعكم » وكلمة « جنات »[١] .



شكل (٢)

وفي عهد عبدالملك بن مروان استعمل التنقيط كذلك لتمييز الحـــروف المتشابهة في رسمها بعضها عن بعض ، مثل الباء والتاء والثاء ، والجيم والحـــاء والخاء ، والدال والذال ، والراء والزاي ، والصاد والضاد ، والطاء والظاء ، والعين والغين ، والفاء والقاف ، وقد كتبت هذه النقط بمداد مخالف .

وفي ايام الخليفة ابو العباس السفاح لوحظ انه كثيرا ما كانت تلتبس نقط التشكيل بنقط التمييز ، فأمر هذا الخليفة « الخليل ابن احمد » بان يفكر في وسيلة يؤمن بها الزلل ويخرج بها الناس من هذا اللبس ، واهتدى الخليل الى

---

(١) النص الموجود في هذه الصورة هو : « **١ ـ بالبصر . ولقد اهلكنا اشياعكم . ٢ـ فهل من مدكر وكل شيء . ٣ـ فعلوه في الزبر وكل صغير . ٤ ـ وكبير مستطر ان المتقين . ٥ـ في جنات ونهر في مقعد . ٦ـ صدق عنـد مليك مقتدر .**

طريقة استبدل فيها نقط التشكيل بشرط تكتب في اعلى الحروف للدلالة على الفتحة ، وفي اسفلها للدلالة على الكسرة ، اما الضمة فقد استعمل لها واوا صغيرة توضع فوق الحرف ، وللدلالة على التنوين كانت تكرر هذه الحركات .

* * *

ونعود الى السياسة الحكيمة التي انتهجها عمر بن الخطاب فنذكر المغانم الاقتصادية التي ترتبت على هذه السياسة ، ذلك ان الفتح العربي لم يقطع سلسلة التقدم في النواحي الزراعية والصناعية والتجارية ، بل احتفظت البلاد التي دخلت في حوزة المسلمين بما كان لها من قبل من نشاط اقتصادي ، فاذا اقتصرنا على ذكر الصناعة : ـ وهي اقرب الى موضوعنا ـ وجدنا ان صناعة النسيج التي بلغت درجة عظيمة من الاتقان في مصر ، وصناعة الفخار والخزف التي كانت متقدمة في العراق ، وصناعة الزجاج التي اشتهرت بها بلاد الشام ، وصناعة المعادن التي حذقها الفرس ـ هذه الصناعات المختلفة ظلت تسير قدما في طريق النضوج تحت ظل المسلمين الذين تعلموها وحذقوها ، ولم يقفوا بها عند الحد الذي كانت عليه بل ساروا بها الى الامام خطوات واسعة ، وسموا بها في مدارج الرقي اشواطا بعيدة ، وارتقوا بها الى درجات سامية من الاتقان والاجادة نلمسها عندما نقارن بين ما وصل الينا من مصنوعات فجر الاسلام ومصنوعات العصور الاسلامية التالية .

* * *

واما المغانم الفنية التي ترتبت على سياسة عمر فتتجلى لنا في ذلك الفن الرائع الذي خلقه المسلمون ، والذي لعب في الفنون التي عاصرته او التي اتت بعده دورا لا سبيل الى انكاره ، فقد شملوا برعايتهم رجال الفن في البلاد التي فتحوها ، وقد استخدموا هؤلاء الفنانين فيما عرض لهم من اعمال تتصل بفنهم ، وعندما نضجت الملكة الفنية عند العرب أخذوا يمزجون بين عناصر الفنون التي عرفوها ، وصهروها في بوتقتهم ، ثم اخرجوا منها فنا جديدا لا يخفى علينا اصله ولكننا لا نستطيع ان ننكر عليه شخصيته القوية الواضحة .

ولقد ترتب على الفتوح الاسلامية الواسعة ضياع التوازن بين شبه الجزيرة العربية وبين هذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي اصبح العرب فيها اقلية ، لذلك جعل عمر بن الخطاب هذه الاقلية جيشا مهمته ان يحمي هذه الدولة ، وقرر لافراده الاجور المجزية ، ومن هنا صارت الامة العربية جيشا كبيرا يسكن المعسكرات ، ويعيش عيشة التقشف • وكلما همّ العرب ـ وقد اثروا ثراءعظيما ـ بالخروج من بداوتهم ، والاستمتاع بما اتت به الحياة الجديدة من الوان الترف المباح الذي لا يتعارض مع اصول الاسلام ، وقف لهم عمر بالمرصاد ، والزمهم التقشف والقصد •

وليس هناك من شك في ان سياسة عمر هذه لاتساعد على قيام الفن ، والعناية به باعتباره لونا من الوان الترف ، على اننا يجب ان ندرك ان الظروف وحدها هي التي املت هذه السياسة • فتأسيس الدول يفتقر الى الادارة القوية والى تجنيد كل القوى حتى تثبت اركان الدولة ، ويستقيم عودها وتتبوأ المقام المرموق بين غيرها من الدول ، فاذا ما تحقق لها ذلك صح لها ان تنصرف الى التجميل والترفيه •

★ ★ ★

وقتل عمر بن الخطاب ، وجاء عثمان بن عفان ، وقد زاد اتساع الدولة في عهده عن ذي قبل ، وكان رضوان الله عليه حييا ، لينا ، فلم يستطع ان يسير على نهج عمر في الحزم والتقشف ، وافلت الزمام من يده ، وانطلق العرب الى حياة الترف ، وتذكروا سماحة الاسلام ، وعنايته بالزينة والجمال فاقبلوا على الحياة الدنيا ، وحرصوا على الاستمتاع بها في الحدود المشروعة ، فتأنقوا في مأكلهم وفي مشربهم ، وفي ملبسهم ، واستبدلوا دورهم القديمة الساذجة بقصور منمقة الجدران ، موزونة الابعاد • ثم احسوا ـ بعد ان نعموا بهذه الحياة الجديدة ـ بما بين قصورهم وبيت الله من بون شاسع ، فاقبلوا عليه يرفعون من شأنه بُعدا به عن مواطن الاستهانة اذا ما قورن بقصورهم او بالمعابد المختلفة في الاديان الاخرى التي شاهدوها في ارجاء امبراطوريتهم الجديدة واستجاب عثمان لرغبتهم فأمر باعادة بناء مسجد المدينة بالحجارة المنقوشة ، والقصة (اي الجص) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، واستبدل جريد النخل وجذوعه بخشب الساج الذي

كان يعتبر من اغلى انواع الاخشاب حينئذ ، اي انه جعل من الحرم المدني بناء يتجلى فيه الجمال الفني ، ومن هنا نستطيع ان نعتبر عصر الخليفة الثالث عثمان ابن عفان العصر الذي ولد فيه الفن الاسلامي .

وهذا الاتجاه الفني الذي ولد في عصر عثمان وانعكس بصورة واضحة في مسجد المدينة الذي اعيد بناؤه ـ كما ذكرنا ـ ولبس حلة من الجمال الفني لم تكن له من قبل ، هذا الاتجاه قد اخذ يتبلور عبر العصور الاسلامية التي تلت عصر الراشدين . والعرب الذين كانت رؤوسهم عامرة بتلك الدروس التي فتح بها الاسلام اذهانهم الى اهمية الفن في الحياة ، والذين كانت ايديهم فارغة من المهارة الفنية في الاخراج والتنفيذ قد اضطروا ـ بحكم هذا الفراغ ـ الى الاستعانة في التشييد والتعمير ، والتصنيع والتزيين برجال الصناعة والفن من الامم التي خضعت لهم ، وتتلمذوا عليهم ، وتجلى عهد تلمذتهم في بعض الاثار التي سنراها في رحلتنا التي نزمع القيام بها بعد قليل ، ثم نضجت ملكتهم الفنية ، وانصهرت في نفوسهم التقاليد الفنية التي تعلموها من غيرهم ، ومرنت ايديهم على الانتاج الفني ، فأخذوا يبدعون التحف ، ويشيدون العمائر ، وظهرت انواع من الزخرفة لم تكن معروفة من قبل ، وتجلت في هذه الزخارف روح جديدة ، وبدت لها خصائص فنية غير مسبوقة في فن من الفنون التي سبقت الفن الاسلامي .

* * *

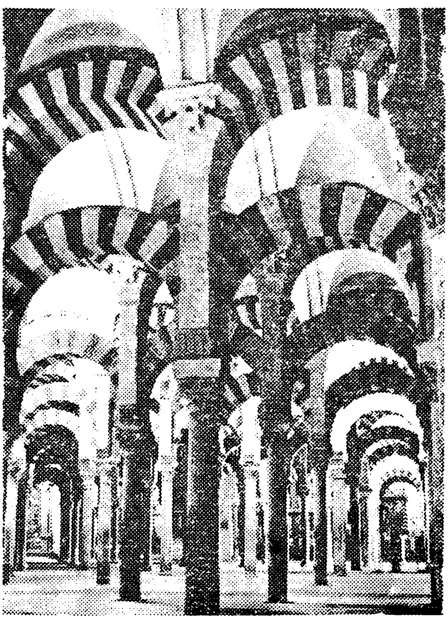
والآن بعد ان تعرفنا على الروح الموجهة للفنان المسلم نستطيع ان نخرج من بلاد الحجاز التي شهدت ميلاد الفن الاسلامي ، ونمضي في رحلتنا التي قررنا القيام بها لنتعرف على ما بقي لنا من الاثار المعمارية لاجدادنا من المسلمين .

العمائر الإسلامية القائمة

في الاندلس

وبلاد الاندلس هي اقصى ما ملكه المسلمون في الغرب ، وقد فتحوها سنة **٩٢ هـ (٧١٠م)** على يد طارق بن زياد الذي خلد اسمه على الصخرة الرابضة الى الجنوب من تلك البلاد التي قامت فيها دولة عظيمة اصبحت بعد قليل خلافة اسلامية[١] ، اتخذت من مدينة قرطبة عاصمة لها ، وقد وصلت البلاد في عهدها الى ذروة التقدم ، وارتفع مستوى الحياة فيها الى درجة عالية • ومن اهم اثار هذه الفترة مسجد قرطبة العظيم (شكل**٣**) ، واطلال مدينة الزهراء • اما المسجد فلا يزال يحدثنا حتى اليوم بعظمة الفن الاسلامي وجلاله في فن البناء والزخرفة •

واما اطلال مدينة الزهراء التي كشفت عنها الابحاث الاثرية سنة **١٩١٤** فتستحق ان نقف عندها قليلا لأن قصة انشائها تعد صفحة فخار في سجل الحضارة الاسلامية ، بناها عبدالرحمن الناصر استجابة لرغبة جاريته الزهراء سنة **٣٢٥هـ (٩٣٦م)**، وجند لها كل ما وصلت اليه يداه فجلب لها من روما والقسطنطينية وافريقية اعمدة الرخام المختلف الالوان، واقام في قصر المؤنس بها حوضا من الرخام زينه بنقوش مذهبة بها صور آدمية ، وجعل عليه تماثيل مختلفة من الذهب المرصع بالدر ، صنعت في



شكل (٣)

(١) هذه الخلافة هي الخلافة الاموية الثانية ، اما الخلافة الاموية الاولى فقد كانت في دمشق ، وسوف نتحدث عنها في موضعها ، ولكننا نحب ان نوضح هنا انه عند سقوط هذه الخلافة في دمشق قد فرّ من وجه العباسيين احد الامراء الامويين الى افريقية ومنها الى الاندلس حيث اقام احفاد هذا الامير هذه الخلافة الاموية الثانية في مدينة قرطبة •

دار الصناعة بقرطبه ، وجعل سقف قصر الخلافة وجدرانه من الرخام ذي الالوان الصافية ، وجعل قراميده من الذهب والفضة ، وانشأ في وسطه صهريجا عظيما مملوءا بالزئبق ، وكان للقصر في كل جانب من جوانبه ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب ، وقامت هذه الحنايا على اعمدة من الرخام الملون والبللور الصافي • وكانت الشمس تدخل تلك الابواب فيضرب شعاعها جدران القصر ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار • وكان في هـــذه المدينة محلات للوحش ، ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودورا لصناعة الآت الحرب والحلى وغير ذلك من الصناعات[١] •

* * *

وضعفت الخلافة الاموية في الاندلس ، واستقل كل امير في البلاد بما كان في يده من ولايات ، فقامت عدة دويلات عرف عصرهم بعصر ملوك الطوائف •

وعلى الرغم من الانحلال السياسي الذي تجلى في هذا العصر فانه يعتبر من ازهى عصور الحضارة الاسلامية في الاندلس ، لان كل امير كان يعمل جاهدا على منافسة قرطبة ـ مقر الخلافة ـ في النواحي الفنية ، ويكفي ان نشير لتأييد ذلك الى القصر الذي شيده في طليطلة المأمون بن ذي النون ، وقد ضاعت معالمه اليوم ، ولكن المقرى قد احتفظ لنا بوصفه اذ يقول انه كانت في وسطه بحيرة ، وفي وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وقد جلب المهندسون الماء على رأس القبة بتدبير محكم ، فكان الماء ينزل من اعلى القبة على جوانبها ، فتصبح قبة الزجاج في غلالة من ماء ، والمأمون قاعد تحتها ، لا يمسه من الماء شيء وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر عجيب[٢] •

* * *

---

(١) راجع وصف هذه المدينة بالتفصيل في كتاب المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ـ جـ ٥ ص ٨٤ و ٨٥ (طبعة دار المأمون سنة ١٩٣٦) •

(٢) نفح الطيب ـ جـ ٤ـ٢٨٣ـ٢٨٤ •

وظهرت على مسرح الاندلس دولة المرابطين ٤٤٨-٥٤٣هـ (١٠٥٦-١١٤٨م)[١] ، ومن بعدهم دولة الموحدين ٥٢٥-٦٦٨هـ (١١٣٠-١٢٦٩م)[٢] ٠ وثمة تشابه كبير بين الدولتين ، فقد اسس كل منهما داعي ديني ، التف حوله خلق كثيرون آمنوا بدعوته ، وتحمسوا لها ، ودفعهم حماسهم للغزو ، فكوّنوا دولة عظيمة كان مسرحها الاول بلاد المغرب ثم ضمت الاندلس الى املاكها ٠ وقد تسرب الضعف الى كل من الدولتين عندما فتر حماس المؤمنين بدعوتهما ، وضعفت همم الزعماء فيهما ، وانصرفوا الى الترف ، وانغمسوا فيه فانهارت كل منهما بمثل السرعة التي نهضت بها ٠

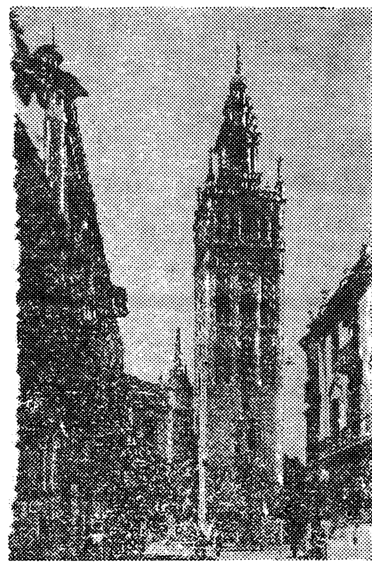
---

(١) المرابطون في اصلهم من البدو الرحل الذين كانوا ينتمون الى قبيلة صنهاجه ، وكانت منازلهم الاولى فيما وراء الصحراء الكبرى حتى اطراف السودان ونهر النيجر ، وقد استقر بهم المقام في غرب الصحراء قرب المحيط الاطلسي او البحر المحيط كما كانت تسميه العرب ، وقد عرفوا بالملثمين لانهم كانوا يغطون وجوههم الى ما دون عيونهم باللثام ، ولعل هذه العادة وهذه التسمية راجعة الى اشتراك نسائهم معهم في القتال ، وخروجهن محجبات حتى يحسبن في عداد الرجال ، وقد دخلوا في الاسلام عندما فتح العرب بلاد المغرب ، وازدادوا فهما لهذا الدين ، وتفقها لاصوله على يدي زعيمهم ومؤسس دولتهم عبدالله بن ياسين الذي سماهم بالمرابطين اخذا من قوله تعالى في سورة آل عمران : « **يا ايها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون** » ٠ وقد عرف هذا الزعيم بالزهد في زخرف الحياة الدنيا ، وكان خطيبا قوي التأثير في الناس ، واسع العلم في الدين ، له طريقة خاصة في تهذيب نفوس مريديه ، وتطهيرها ، ذلك انه كان يأمر بجلد من جاءه راغبا في الانخراط في سلك اتباعه مائة سوط ، كسرا لحد نفسه واثباتا لأنه باع هذه النفس لله ، ولم يعد له من الامر شيء ٠

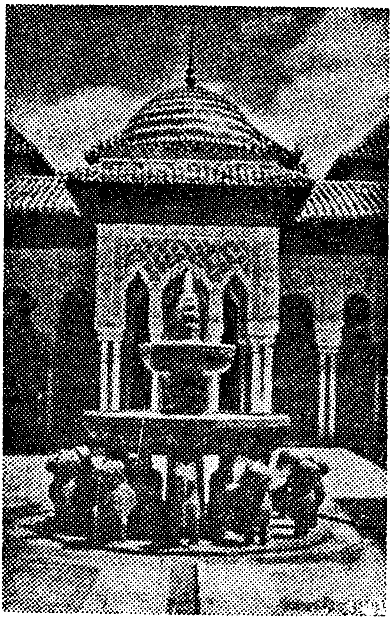
(٢) الموحدون من سكان الجبال ، كانوا يسكنون جبل السوس الواقع في الجنوب الغربي من مراكش ، وكان زعيمهم ابن تومرت ورعا ، متقشفا ، ينكر على الناس مخالفة الشرع الشريف ، ويتحمل الاذى في سبيل محاربة المنكر ، وهو راضي النفس ، قرير العين ٠ حارب المنكر في مكة في موسم الحج وأوذي في ذلك من الناس ، وحاربه في مصر وحض الناس على العودة الى الكتاب والسنة فطرد من مصر ، وحاربه في المغرب فكان يجلس في الطرقات يزيل المنكرات ، وكثيرا ما كان يتمثل بقول المتنبي :

اذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في امر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

ولم يصل الينا شيء من اثار المرابطين في الاندلس ، اما الموحدون فقد وصل الينا منهم مئذنة المسجد الجامع في مدينة اشبيلية وهي تعرف اليوم باسم الجيرالدا (شكل ٤) اما المسجد الذي كانت تتبعه فقد هدم واقيمت مكانه كنيسة كبيرة فيها رفات كرستوف كولمبس الذي ينسب اليه اكتشاف امريكا • وقد احتفظت هذه المئذنة بشكلها القديم فيما خلا قمتها التي تعدل شكلها وأضيف اليها برج الاجراس •



شكل (٤)



شكل (٥)

ثم تقلصت دولة المسلمين في الاندلس ، وانكمشت بعد اتساعها العظيم في اقليم صغير هو اقليم غرناطة الذي كان يحكمه بنو الاحمر ، ومن أهم اثارهم قصر الحمراء[١] الذي شاءت الاقدار ان ينجو من عبث العابثين فلا تزال حدائقه الغناء التي من اشهرها حديقة عائشة ، ولا تزال ساحاته الفسيحة التي من اروعها ساحة البركة وساحة السباع (شكل ٥)، ولا تزال قاعاته الرائعة التي من اجملها قاعة بني سراج وقاعة الاختين وقاعة العرش ، ولا يزال حمامه الجميل محتفظا برونقه • وهذه جميعا تنطق الى اليوم بما وصل اليه اجدادنا من المسلمين في العمارة والفن من السمو والتقدم •

---

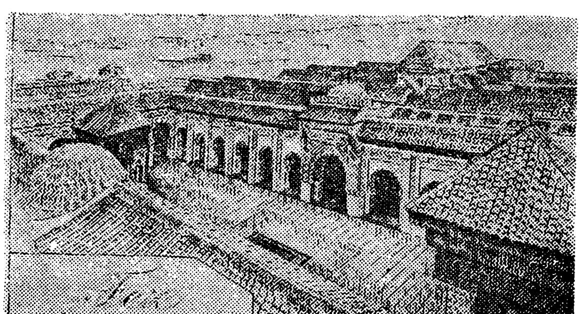
(١) راجع للمؤلف « قصر الحمراء » ان اردت وصف هذا القصر بالتفصيل ـ من مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد بمصر ـ المكتبة الثقافية رقم ٩١ •

في مراكش

ولنعبر الزقاق - او كما نسميه اليوم مضيق جبل طارق - الى المغرب الاقصى او المملكة المغربية كما تعرف اليوم ، لنجد هناك قطرا دخل الاسلام فيه متأخرا عن باقي بلاد المغرب بالنظر لبعده • ولم تثبت قواعد الاسلام فيه الا على عهد الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان بواسطة واليه حسان بن النعمان في سنة ٧٧ هـ (٦٩٦م) • وقد جعل حسان اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ، واقبل الناس على تعلمها ، وسرعان ما ذاعت بينهم ، واصبحت لغة التخاطب بين الاكثرية الساحقة منهم ، وقد خطب طارق بن زياد القائد المغربي الذي فتح الاندلس - في جيشه المكون من المغاربة كذلك ، خطبته المشهورة : « ايها الناس ، اين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو امامكم •• » •

وقد قامت في البلاد دولة الادارسة التي اسسها ادريس بن عبدالله بن الحسن الذي فرّ من وجه الخليفة العباسي المهدي الى هذه البلاد حيث استعان بقبائل البربر على تأسيس دولته • وقد انشأ ابنه ادريس الثاني مدينة فاس سنة ١٩٢هـ (٨٠٦م) • وتعد هذه المدينة من اغنى بلاد العالم الاسلامي بالاثار المعمارية القيمة التي ترجع الى عصور مختلفة ، والتي من اهمها مسجد القرويين وهو يعتبر من افضل المساجد واهمها وقد انشيء سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م) شكل(٦) • وفي هذه المدينة مدارس كثيرة انشأها بنو مرين في القرن الثامن الهجري (١٤م) • والمدارس منشآت معمارية اختصت بها العمارة الاسلامية في العصور الوسطى ، وقد عرفها المسلمون لأول مرة في القرن الخامس الهجري (١١م) في ايران ، ثم انتشرت بعد ذلك في شتى بقاع العالم الاسلامي ، ودخلت بلاد المغرب مع احد امراء الموحدين المسمى يعقوب بن المنصور ٥٨٠-٥٩٦هـ(١١٨٤-١١٩٩م) • ولا ننسى في هذه المناسبة ان المساجد كانت هي المدارس الاولى في الاسلام ، وكانت تعقد بها مجالس العلم ، وقد ظلت كذلك الى ان اتسعت دائرة المعرفة ، وتشعبت فروعها ، واحس الناس ان المناظرة والجدل - وهما من اسس الدراسة - قد يخرجان بالطلاب والاساتذة احيانا عن حد الهدوء الواجب توفره في المساجد ، فخصصوا لها ابنية خاصة مستقلة عن المساجد •

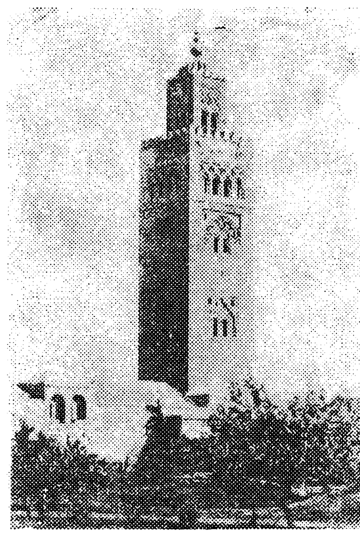
ومدارس المغرب تختلف في تصميمها عن مدارس المشرق ، فهي هنا تقتصر على قاعة واحدة للدراسة بها عادة محراب لكي تؤدي فيها الشعائر الدينية عندما يحين وقت الصلاة ، اما مدارس المشرق فقدبدأت بقاعة واحدة تكون عادة في منزل الاستاذ ، ثم استقلت ببناء خاص مكون من قاعتين بينهما صحن ثم انتهت ببناء خاص من اربع قاعات ، ومعظم المدارس التي وصلت الينا في الشرق تشتمل على اربع قاعات للدراسة ، كل قاعة او ايوان ـ كما يسمى عادة ـ يختص بالتدريس فيه فريق من العلماء يتبعون عادة احد مذاهب الفقه الاربعة (الحنفي ـ المالكي ـ الشافعي ـ الحنبلي) • والسر في هذا الاختلاف بين مدارس الغرب ومدارس الشرق هو ان اغلب اهل المغرب او كلهم يتبعون مذهب الامام مالك ، ومن هنا لم يكونوا في حاجة الى اكثر من قاعة واحدة يدرس فيها هذا المذهب من شتى جوانبه • ويقوم تصميم المدارس في المغرب على مستطيل يتوسطه صحن مكشوف به حوض ماء كبير ، وفي احد جوانبه القصيرة تقوم قاعة الدراسة وحول ضلعيه الطويلين تقوم مساكن الطلاب في طابقين يعلو احدهما الآخر • ومن اهم المدارس في مدينة فاس مدرسة الصفارين ، ومدرسة العطارين شكل(٧) ، والمدرسة العنانية، ومدرسة الصهريج وكلها من عهد بني مرين الذين حكموا البلاد بعد انتهاء حكم الموحدين ، وقد كان يعيش في كنفهم الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة •



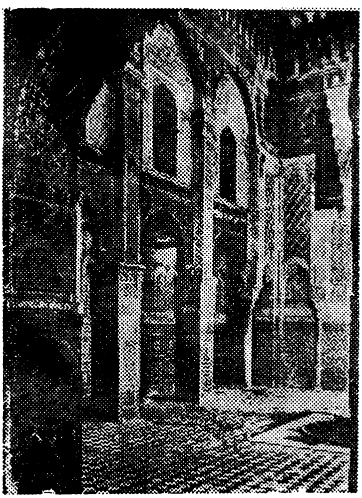
شكل (٦)

ومن المدن الجديرة بالزيارة في هذا القطر مدينة مراكش التي اسست في عصر المرابطين سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) ، ومن اهم اثارها الباقية مسجد الكتبية الذي

اسمه عبد المؤمن بن علي (٥٤٥ - ٥٥٨هـ) (١١٥٠ - ١١٦٢م) وهو اهم شخصية في دولة الموحدين • ومن اجمل مافي هذا المسجد منارته العظيمة (شكل ٨) وهي تكوّن مع «الجيرالدا» في اشبيلية (التي اشرنا اليها في الاندلس - شكل ٤) ومع منارة مسجد حسّان بمدينة رباط الفتح (العاصمة الادارية للمملكة المغربية) والتي لا يزال جزء كبير منها قائما بينما المسجد نفسه مهدم - ثالوث جميل من المنارات في غرب العالم الاسلامي ، وزخارفها تسترعي النظر بجمالها اذ هي اشبه ما تكون بشبكة مكونة من معينات متجاورة ، ومتصل بعضها ببعض[١] ، وقد اصبحت هذه الطريقة من مميزات الفن الأندلسي المغربي •



شكل (٨)



شكل (٧)

وفي بلاد المغرب اثار اسلامية اخرى موزعة بين ارجائها المختلفة ولا يتسع وقتنا لزيارتها فنكتفي بالاشارة الى بعضها مثل مسجد تنمال ، وقبور بني مرين ، وقصر المنصور ، ومقابر السعديين •

---

(١) يعبر عن هذه الزخرفة بعبارة Lozenge grating

في الجزائر

ونخرج من المغرب الاقصى الى المغرب الاوسط ، أو الى الجزائر كما نسميها الآن . وقد قامت فيها دول أسلامية مختلفة لن نفصل القول فيها انما يكفي أن نذكر منها دولة الرستميين[1] ، ودولة الفاطميين[2] ، ودولة بني زيري

---

(١) الرستميون طائفة من الخوارج ، والخوارج هم جماعة من جند الامام علي بن ابي طالب خرجوا عليه عندما وافق على التحكيم اثناء حربه مع معاوية بن ابي سفيان — ومن هنا سموا بالخوارج لأنهم رأوا ان التحكيم خطأ لأن قبوله معناه الشك في احقية علي في الخلافة ، الأمر الذي يضعف من حجة علي . وقد حاربهم علي ، ولكنه لم يقض عليهم ، واصبحوا فرقا مختلفة ، منها فرقة الاباضية التي لا يزال اتباعها في بلاد المغرب .

(٢) الفاطميون ينسبون انفسهم الى السيدة فاطمة الزهراء ابنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وزوجة الامام علي كرم الله وجهه ، وقد كانوا على المذهب الشيعي ، وهذه الكلمة تستحق أن نقف عندها قليلا لنعرف المقصود منها ، يتطلب هذا منا ان نرجع الى الوراء قليلا الى عصر وفاة النبي صلوات الله عليه ، فقد انقسم المسلمون الى فريقين : فريق الشيعة ، وكانوا يرون ان أهل بيت النبي أحق بالخلافة من سواهم ، ولما كان علي هو زوج السيدة فاطمة ابنة الرسول فقد كان في نظر هؤلاء احق بالخلافة من سواه ، فهم اذن شيعة عليّ . أما الفريق الآخر ، اي فريق اهل السنة فكانوا يرون ان الخلافة حق لأي مسلم تتوفر فيه الشروط المقررة لها . وفشل الفريق الاول في الوصول الى الخلافة ، ونجح الفريق الثاني ، واصبح ابو بكر ثم عمر ثم عثمان خلفاء كما مرّ بنا ، وكتم الشيعة أمرهم ان طوعا او كرها ، ولم يجاهروا بخصامهم للنظام القائم . وفي عهد الدولة الاموية قتل الحسين بن علي بالقرب من مدينة كربلاء بالعراق في العاشر من المحرم سنة ٦١هـ (٦٨٠م) ، وقد هزت هذه الحادثة العالم الاسلامي هزا عنيفا اذ جعلت التشيع لأهل البيت مذهبا مناهضا لمذهب أهل السنة يتربص به ويسعي للقضاء عليه ، كما اثارت في النفوس شعورا قويا استغل لتقويض أركان الخلافة الأموية في الشام . ومنذ حادثة كربلاء ، اصبحت الشيعة تعارض كل من تولى الخلافة من غير ابناء علي فوجهت المعارضة أولا الى الامويين وثانيا الى العباسيين لأنهم لم يكونوا من ذرية علي وفاطمة ، وانتشر التشيع في كثير من بقاع العالم الاسلامي ، وقامت له خلافة عظيمة في شمال افريقية ومصر والشام هي الخلافة الفاطمية ، وفي أوائل القرن العاشر الهجري (١٦م) اتخذه اسماعيل الصفوي ، شاه ايران ، مذهبا رسميا لبلاده .

وبني حماد[١] • وأهم الآثار الاسلامية التي لا تزال تحتفظ برونقها الى اليوم نجدها في مدينة « تلمسان » ، فالمسجد الجامع في هذه المدينة له أهمية كبيرة من حيث فن الزخرفة الاسلامية اذ نرى فيه أول مثال لتلـــك الزخرفة المعروفة بأسم « المقرنص » في بلاد المغرب[٢] • كما أنه يتضمن تاريخ انشائـه وهو سنة ٥٣٠هـ(١١٣٥م) • شكل(٩)



شكل (٩)

في تونس

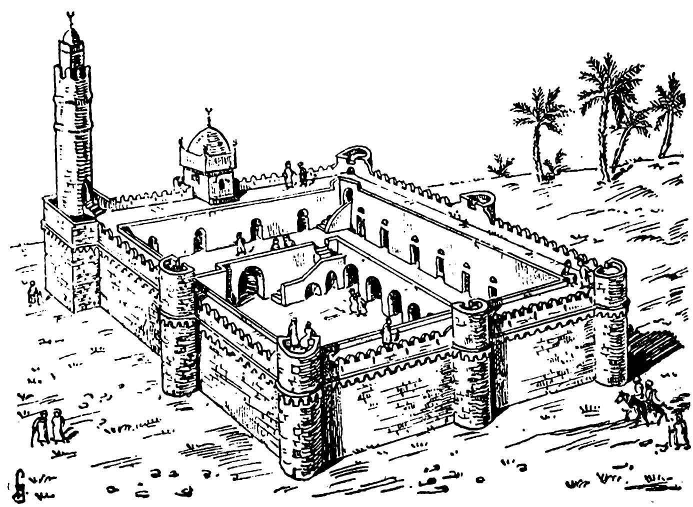
ونترك المغرب الاوسط الى المغرب الادنى الذي كان يطلق عليه ايضا أسم أفريقية ، وهو يعرف الآن بأسم الجمهورية التونسية ، ويعتبر اعرق اقاليم المغرب في الاسلام ، اذ فتحه العرب سنة ٢٧هـ (٦٤٧م) ، ثم اعيد فتحه على يدي عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ (٦٧٠م) ، وقد أسس فيه مدينة القيروان ، أقدم العواصم الاسلامية في بلاد المغرب جميعا ، وبنى فيها مسجدها الجامع الشهير •

---

(٣) بنو زيري وبنو حماد كلاهما اسرة من البربر (سكان شمال افريقية الاصليين) من قبيلة صنهاجة وقد استقرت بهم الحياة في بلاد المغرب الاوسط • وقد انقسموا الى مملكتين : مملكة في الشرق كانت من نصيب بني زيري ، ومملكة في الغرب كانت من نصيب بني حماد الذين كانوا يقيمون في القلعة التي تعرف باسم قلعة بني حماد ، من اهم أثارها بقايا قصر المنار الذي كشف عنه الجنرال دي بيليه اثناء تنقيبه تلك الجهة •

(٤) هـــذه الزخرفة المعروفة عند الاجانب باســـم Stalactite تعتبر من خصائص الفن الاسلامي وسوف نتحـــدث عنها بشيء من التفصيل في موضعها من هذا الكتاب •

واعيد فتح هذه البلاد مرة أخرى على يدي حسان بن النعمان (الذي عرفناه من قبل في مراكش) ، وقد نجح حسان في القضاء نهائيا على شوكة البربر ـ سكان البلاد الاصليين ـ وأسس على ساحل البحر الابيض المتوسط (بجوار مدينة قرطاجنة القديمة) قاعدة بحرية أقام فيها دارا لصناعة السفن ، مستعينا في ذلك بعمال من مصر ، ثم أخذت هذه القاعدة التي لم تكن أكثر من قرية صغيرة ـ تكبر وتنمو ، وتتسع حتى أصبحت مدينة عظيمة عرفت بأسم تونس ، وفيها أسس أبن الحجاب مسجد الزيتونة سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) •



شكل (١٠)

وأمسك الاغالبة بزمام البلاد ، واستقلوا بها ، وسطروا في تاريخها أروع الصفحات ، وخلفوا وراءهم من الآثار الاسلامية ما ينتزع الاعجاب من كل من يراه • وهؤلاء الاغالبة جديرون بأن نقف عندهم قليلا لأن لهم في الحضارة الانسانية أثر لاينبغي أن نجهله ، فرأس هذه الاسرة هو ابراهيم بن الاغلب ، وقد اقترح على الخليفة العباسي الرشيد أن يجعل الحكم وراثيا في اسرته نظير أربعين الف دينار ترسل سنويا الى بيت المال في بغداد ، وقبل الرشيد ذلك مشترطا موافقة الخليفة الجالس على العرش على مَنْ يتولى الحكم من اسرة بني الاغلب ، والواقع أن استجابة الرشيد لذلك ، والدولة العباسية في عنفوان شبابها

وقوتها ، ليكشف لنا عن بُعد نظر الرشيد ، فقد ادرك بُعد المسافة بين تونس والعراق ، وتعذر أخضاع تلك البلاد خضوعا تاما لسلطان الخلافة • واتجه الاغالبة الى توسيع أملاكهم فأسسوا أسطولا عظيما فتحوا به جـزيرة مالطة ، وسردينية ، وصقلية ، كما غزوا به شواطيء فرنسا الجنوبية ، وشواطيء ايطاليا ، وحاولوا أن يفتحوا روما ولكنهم صدوا عنها •

واذا تذكرنا ان هذه الجزر ، وتلك البلاد انما هي جزء من أوربا ، وتذكرنا كذلك أن دولة الاغالبة كانت دولة مستنيرة عملت على نشر الحضارة الاسلامية في جميع البلاد التي حلت بها ، استطعنا ان ندرك أهمية هذه الدولة التي كانت في الحقيقة همزة الوصل بين الحضارة الاسلامية وبين أوربا ، والتي وضعت بذور تلك الحضارة الرائعة في الارض الاوربية ، وعندما نبتت ، وأينعت ، كانت أحد الأسس المتينة التي قامت عليها الحضارة الاوربية التي تسود العالم في الوقت الحاضر •

ولقد حظيت مدينة تونس برعاية الاغالبة ، ونال مسجدها الكبير ــ مسجد الزيتونة ــ نصيبا من عنايتهم فأصبح أثرا رائعا ، لايزال قائما يحدثنا عن جمال الفن الاسلامي •

ومدينة سوسة هي الأخرى كان نصيبها من الرعاية الفنية عظيما ، فقد بنوا فيها «الرباط» في سنة٢٠٦هـ (٨٢١م) شكل(١٠) ، وهو بناءجدير بأن نتأمل فيه وفي أسمه ، فهو طراز من الابنيةالاسلامية لم يمر بنا من قبل ، شيد لكي يكون مقرا لاولئك الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن أوطانهم ، وللجهاد في سبيل دينهم ضد اعداء الاسلام ، وهو يستمد أسمه من أرتباط الخيل بازاء العدو ، يقول الله تعالى في سورة الانفال : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم •** » ولقد تغير مفهوم الرباط بتغير الاحوال في الامبراطورية الاسلامية ، فعندما ضعفت روح الجهاد في النفوس ، اصبح المقصود منه هو البناء الذي يقيم فيه اولئك الذين وهبوا أنفسهم لعبادة الله ، وكأنهم أرادوا بتفرغهم للعبادة ، وتكريس حياتهم لها ان يستجيب الله لدعائهم فيحميهم ويحمي أوطانهم من الاعداء ، ويصد البلاء عن البلاد • ومن أمثلة هذه الاربطة المتأخرة ما وصل الينا من آثار عصر المماليك في مصر ، كرباط « اينال » ورباط « النســاء »

وليس لكليهما أية صفة حربية كما هو الحال في رباط سوسة •

ومن الآثار التي تركها الاغالبة في مدينة سوسه مسجد ابي فتاتة الذي لا نعرف المصدر الذي استمد منه هذا الأسم ، ولكننا نعرف تماما انه من انشاء هذه الاسرة في المدة الواقعة بين سنتي ٢٢٣–٢٢٦هـ (٨٣٨–٨٤١م) كما تدل على ذلك الكتابة الأثرية التي عليه • ولعل أروع الآثار في تلك المدينة هو المسجد الكبير فيها الذي انشأه الاغالبة في سنة ٢٣٦هـ (٨٥٠م) •

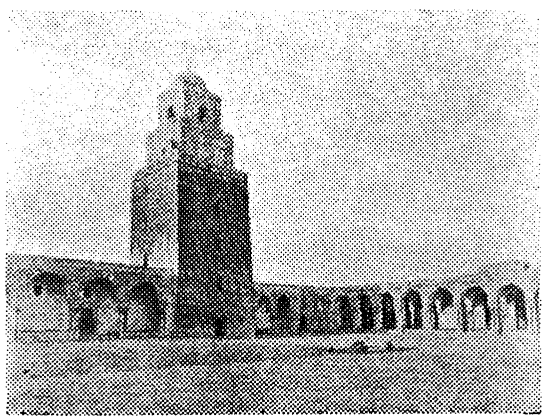
وقد نالت مدينة القيروان ، تلك العاصمة القديمة التي أسسها عقبة بن نافع كما ذكرنا من قبل ، نصيبها من عناية الاغالبة ورعايتهم ، فقد انشأوا بها « الماجل العظيم » او فسقية الاغالبة كما يسمى في بعض الاحيان ، وهو حوض كبير ، مستدير الشكل ، اعد لكي تتجمع فيه مياه الامطار حتى يشرب منها أهل القيروان• اما المسجد الجامع في هذه المدينة فقد خرج عن سذاجته الاولى على أيديهم ، ولبس حلة قشيبة من الجمال الفني • والواقع ان هذا المسجد العظيم قد لعب دورا هاما في العمارة الاسلامية ، وبدت فيه من المظاهر المعمارية ما كان له أثر واضح في نضوج هذه العمارة ، ونستطيع هنا ان نجمل بعض هذه المظاهر لنرى كيف تطور اجدادنا في مجال التصميم والبناء والفن الجميل •

ولعل اول مايسترعي النظر في هذا المسجد هو المئذنة (شكل ١١) ، وهي من العناصر المعمارية التي أصبحت من سمات العمارة الاسلامية ، وهي جديرة بأن نقف عندها قليلا لنعرف شيئاً من تاريخها ، فهي لم تكن معروفة أيام النبي صلوات الله عليه ، ويقول ابن هشام في السيرة النبوية : انه بعد الهجرة الى يثرب سمع النبي أن اليهود يستعملون قرنا (اي نفيراً) ينفخون فيه لدعوة أبناء دينهم للصلاة ، وعرف ان المسيحيين كانوا يدقون ناقوسا لهذا الغرض ، فرأى ان يتخذ للمسلمين وسيلة يدعون بها الى الصلاة ، فأمر مولاه بلالاً ان يؤذن في الناس ، فكان بلال يؤذن من أعلى سطح يجاور مسجد المدينة •

ولم يكن في مساجد الكوفة ، والبصرة ، والفسطاط على عهد الراشدين مآذن ، ولما فتح العرب دمشق رأوا في أسوار المعبد القديم[1] الذي شيد في ساحته

(١) بنيت في ساحة هذا المعبد الروماني القديم في دمشق كنيسة عظيمة ، ثم هدمت هذه الكنيسة في العصر الاسلامي بالاتفاق مع المسيحيين الذين عوضوا عنها ، وبني في مكانها المسجد الاموي •

المسجد الأموي ـ ابراجا أو صوامع مربعة الشكل قائمة في هذا السور كان يتعبد فيها الرهبان ، وقد وجد المسلمون في هذه الابراج أو الصوامع مكانا مناسبا للأذان ، وهكذا أصبحت هذه الابراج المآذن الاولى في الاسلام ، وعلى مثالها انشئت صوامع المساجد في العصر الاموي ، ونذكر على سبيل المثال : مسجد عمرو بالفسطاط ، فعندما جدد بناؤه في ايام الخلافة الاموية الاولى انشئت في زواياه الاربع صوامع أربعة ، وصارت القاعدة في تلك الأيام أن تنشأ للمسجد أربع صوامع لا صومعة واحدة • ولعله من المفيد أن نشير هنا الى الاسماء المختلفة التي كانت تطلق على هذا العنصر المعماري ، فقد سمي « صومعة » كما رأينا ، وقد ظلت هذه الكلمة ، كما ظل الشكل المربع للمئذنة مستعملين في بلاد المغرب والاندلس حتى الآن • وقد سمي كذلك بالمئذنة أي المكان الذي يذاع منه الآذان • وسمي أيضا بالمنارة ، وهذه الكلمة كانت تطلق أول الأمر على المكان



شكل (١١)

الذي تشعل فيه النار فينبعث منها النور ، وعلى أساس هذا التفسير كانت تسمى منارة الأسكندرية المشهورة بمنارة جزيرة فاروس ، ثم استعيرت هذه الكلمة للمئذنة للتشابه بينهما في الوظيفة ، فالأولى كانت تبعث النور المادي ، والثانية كانت ولا تزال تبعث النور المعنوي : نور الاسلام • ومن كلمة « منارة » هذه اشتقت الكلمة الانجليزية Minaret • ومئذنة القيروان بشكلها ورسمها خير مثال للمآذن الاولى ، وهي في الواقع أقدم المآذن القائمة حتى اليوم ، اذ ترجع بعض

اجزائها الى عصر الخلافة الاموية الاولى ، وبعضها الى عصر الاغالبة أو العصر العباسي •

والقبة هي الأخرى من المظاهر المعمارية التي تستلفت النظر في هذا المسجد ـ وفي غيره من الابنية الاسلامية ـ وهي ليست من أبتكار المسلمين الا أنها أصبحت اليوم من ابرز خصائص عمائرهم ، ذلك أنهم ورثوها عن القدماء (١) ، ولكنهم لم يقفوا بها عند حد ما ورثوه ، بل حسنوا فيها ، وعدلوا في اشكالها حتى بلغت على أيديهم غاية النضج ، لقد ورثوها من الأمم القديمة صغيرة ، ساذجة ، بسيطة ، وردوها الى العالم كبيرة ، معقدة ، جميلة •

والمحراب أيضا من المظاهر المعمارية الجديرة بالتأمل ، وقد حظى باهتمام رجال الدين ، والمؤرخين ، والاثريين ، الذين كتبوا معا فصول قصته الشيقة ، ولا يتسع بحثنا هذا للدخول في تفاصيل هذه القصة انما يكفينا ان نذكر ان كلمة « محراب » لم يكن لها قبل الاسلام معنى دينيا ، فقد كانت تعنى المكان العزيز في المنزل أو القصر الذي يحارب من أجله الانسان ، ويدافع عنه • وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى ، فقد جاء في سورة آل عمران : « **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا** » وفي سورة مريم نقرأ : « **فخرج على قومه من المحراب** » • وبعد انتشار الاسلام وتشييد المساجد أصبح المحراب هو المكان الذي يحدد اتجاه القبلة ويتجه اليه الناس في صلاتهم ، ولا نعرف بالضبط شكل أول محراب في الاسلام ، وأقدم صورة له هي محراب القيروان الذي هو عبارة عن تجويف في جدار القبلة يقف عنده الامام ويصطف من ورائه المصلون ، وقد أطلق على هذا التجويف أسم المحراب لأنه أكرم موضع في المسجد بأعتباره البقعة التي يستقبلها الناس في صلاتهم • ومحراب القيروان بالذات له بين المشتغلين

---

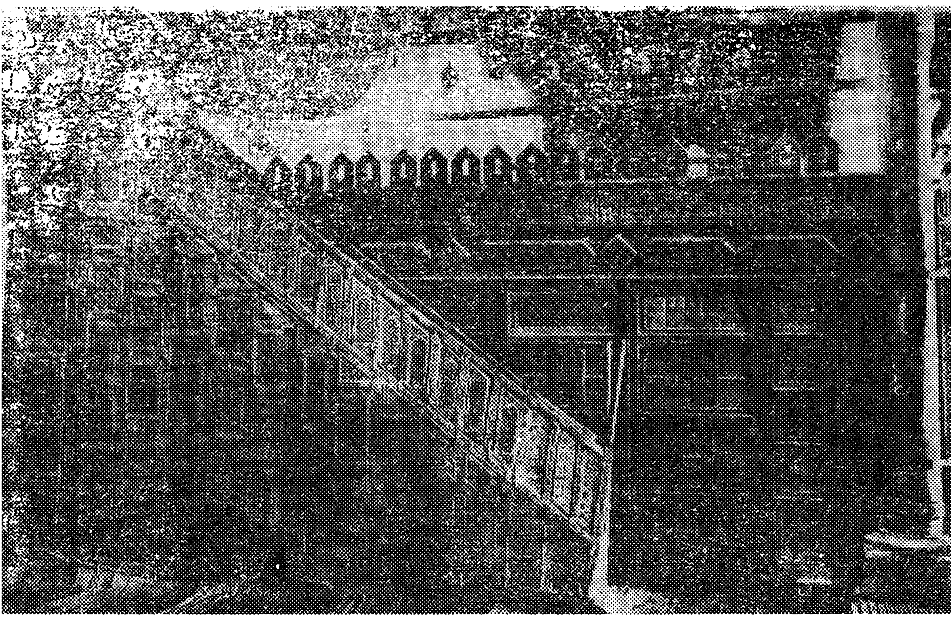
(١) كانت القبة معروفة في العصور القديمة ، ولكن استعمالها كان محدودا ، وفي القرن الثاني بعد الميلاد اهتدى السوريون الى ابتداع طريقة معمارية تعرف باسم البندنتف Pendentive استطاعوا بها انشاء القبة فوق غرفة مربعة بعد ان كانت لا تشيد الا فوق غرفة مستديرة • وفي القرن الثالث الميلادي اهتدى الايرانيون الى وسيلة اخرى عرفت باسم الاسكونش Squinch تؤدي الى نفس الهدف • وقد هذب المسلمون هذين الاختراعين ، وحسنوا فيهما •

بالآثار الاسلامية مكانة ممتازة استمدها من قدمه ، ومن جماله الفني ، فهو يُعد بحق من أبدع ما عمله المسلمون من محاريب ، فتجويفه مبطن بالواح من الرخام تزدان بزخارف مفرغة غاية في الروعة تدلنا أبلغ دلالة على أن رجال الفن من المسلمين ـ في عصر الاغالبة ـ قد أمعنوا النظر فيما ابدعته يد الله من الكائنات ، وتتبعوا أصول الجمال في تكوين هذه المخلوقات ، فرأوا فيها التماثل والتكرار ، والتنوع والتشعع ، واخذوا يحاكون هذه الاصول فيما ابدعته ايديهم • وهذه الزخارف هي في الحقيقة لسان صدق ينطق بنضوج فني ويدل على أنهم قد أصبحوا يقفون على قدم المساواة مع الحضارات السابقة عليهم او اللاحقة بهم • وتزدان واجهة هذا المحراب بقراميد من الخزف ذي البريق المعدني ، أو بعبارة أخرى ببلاطات من الكاشي المصنوع من ذلك النوع من الخزف الذي ابتكره المسلمون (وسوف نتحدث عنه فيما بعد) • ولكن هذه القراميد تبدو للناظر اليها كأنها قلقة في موضعها هذا ، وقد حار رجال الآثار في تفسير هذا القلق حتى عاونهم رجال التاريخ على الخروج من هذه الحيرة عندما اوضحوا لهم ان الامير الاغلبي أبا ابراهيم أحمد كان قد استورد هذه القراميد من العراق لكي يزين بها أحدى قاعات قصره ، ولكنه عدل عن ذلك فيما بعد وآثر ان يزين بها محراب بيت الله استجابة لشعور ديني سيطر عليه ، وهكذا يعاون التاريخ علم الآثار •

وآخر ما نذكره من المظاهر المعمارية هو « المقصورة » ، وهي تعتبر أقدم المقصورات التي وصلت الينا ، والمقصود بها هو السياج او الحاجز الذي يفصل بين المكان الذي يصلي فيه الخليفة او الأمير مع حاشيته والمكان الذي يصلي فيه عامة الشعب ، وذلك لكي يكون الخليفة او الأمير في مأمن ممن تحدثه نفسه من أفراد الشعب باغتياله اثناء الصلاة ، وقد أتخذت المقصورة بالفعل بعد أن قتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في المسجد ، وكان الخليفة الثالث عثمان بن عفان أول من عمل مقصورة في مسجد المدينة ، وكانت من اللبن ، وفيها نوافذ ينظر الناس خلالها الى الأمام ، وعندما جاء عمر بن عبدالعزيز ـ أحد خلفاء الدولة الاموية الاولى ـ هدمت هذه المقصورة ، وجعلت من الخشب كما هو الحال في مسجد القيروان (شكل ١٢) ، واصبح اتخاذ المقصورة في المسجد سنة لتمييز السلطان عن الناس في الصلاة كما يقول ابن خلدون في مقدمته •

ويرى أحد المستشرقين أن المقصورة كانت في أول امرها غرفة خاصة يقصد اليها الحاكم للراحة قبل الصلاة ، ولم تتخذ لحماية الامراء والخلفاء ، والواقع أن مقصورة مسجد القيروان التي لا تزال قائمة حتى اليوم تهدم رأي هذا المستشرق من أساسه ، وتؤيد كلام ابن خلدون ، والمؤرخين السابقين عليه ، وهكذا نلاحظ ان المعالم الاثرية تؤيد آراء المؤرخين ، وتزيدها قوة ، وهكذا يخدم علم الآثار التاريخ كما خدم التاريخ علم الآثار .

والى جانب هذه المظاهر المعمارية التي اشرنا اليها نحب ان نضيف شيئاً آخر هو أقدم الموجود من نوعه في المساجد ، ونعني به منبر القيروان (شكل ١٢) .



شكل (١٢)

والمنبر بصفة عامة لم يكن موجودا اول عهد النبي ، صلوات الله عليه ، فكان اذا خطب وقف الى جذع نخلة ، أي الى أحد العمد التي كان يعتمد عليها سقف مسجده بالمدينة المنورة ، وكان اذا طال به الموقف ، وشق عليه القيام ، استند الى الجذع . وقد رآه ـ ذات يوم ـ رجل ممن سبق لهم أن رأوا منابر الكنائس في بلاد الشام ، فأقترح ان يصنع شيئاً مثل ذلك للنبي ، ووافق النبي على هذا

الاقتراح ، وصنع له بالفعل أول منبر في الاسلام وكان من الخشب ، من ثلاث درجات • فكان النبي يقعد على أعلى الدرجات ويضع قدميه على الدرجة الوسطى •

ولما أصبح أبو بكر خليفة للمسلمين قعد على الدرجة الوسطى تأدبا ، ووضع قدميه على الدرجة السفلى ، ولما جاء عمر بن الخطاب بعده قعد على الدرجة السفلى ووضع قدميه على الارض ، ولما جاء عثمان فعل في أول الأمر كما فعل عمر ، ولكنه رأى بعد ذلك ان يجلس على الدرجة العليا التي كان يجلس عليها النبي من قبل •

وقد ظل هذا المنبر موجودا حتى أيام معاوية بن ابي سفيان ، فزاد فيه من اسفله ، ورفعه عما كان عليه ، فصار له تسع درجات او سبع درجات على اختلاف في أقوال المؤرخين •

ويرى بعض المستشرقين أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يتخذ المنبر الا بعد أن عظم شأنه وصار يستقبل الوفود من جميع الانحاء ، وان المنبر الذي صنع له لم يكن في حقيقته الا عرشاً تربع عليه النبي والخلفاء من بعده • والواقع ان أقوال هؤلاء المستشرقين تتسم بالغلو ، وبالبعد عن الحقيقة ، فلم يكن النبي في حاجة الى عرش لكي يستقبل الوفود ، وقد كان يستقبلهم قبل ان يصنع له هذا المنبر وبعد ان صنع له ، وبساطة المنبر ـ على حد وصف المؤرخين له ـ كافية لأن تنفي عنه صفة العروش التي كان يتخذها الملوك قبل الاسلام ، وفي الحق ان اتخاذ النبي لهذا المنبر الساذج انما جاء عن سبيل التطور الطبيعي ، فقد كان صلوات الله عليه ، يخطب ، ويطيل الخطبة في بعض الاحيان ، ويلحقه من وراء ذلك تعب من غير شك ، ولاحظ ذلك المستمعون له ، ومن بينهم ذلك الرجل الذي كان يعرف منابر الكنائس ، فأبدى اقتراحه لجاره ، وعلم به النبي فلم يجد فيه بأسا ، وصنع هذا المنبر بسيطا ، ساذجا ، يترجم في بساطته وسذاجته عن بساطة الاسلام ، وبساطة المسلمين الاوائل •

وجاء الفاطميون بعد الاغالبة ، ولم تكن تونس في نظرهم الا جسرا عبروا عليه الى مصر التي كانوا يمدون اليها ابصارهم ، ويتوقون الى الاستيلاء عليها للانتفاع بخيراتها ، وبموقعها الجغرافي الممتاز في نشر مذهبهم الديني • ولكنهم في

المدة التي قدر لهم ان يمكثوها في تونس اسسوا مدينة المهدية التي تحمل اسم مؤسس دولتهم « ابو عبدالله المهدي » • ويدل تأسيس هذه المدينة في سنة **٣٠٣**هـ **(٩١٥م)** على ما كان للمسلمين حينئذ من بعد نظر في اختيار مواقع المدن ، فقد خرج المهدي ـ على حد قول ابن الاثير ـ يرتاد ساحل البحر ، باحثا عن موقع لمدينة يؤسسها ، فوجد جزيرة متصلة بالبر ، كهيئة كف متصل بزند ، فبنى فيها مدينته ، وأتخذ من ساحلها ميناءا بحريا ، حفره في الصخر ، وجعله يكفي لايواء ثلاثين سفينة ، وقد انشأ فيها مسجدا عظيما كانت واجهته مبعث الوحي للمهندس الذي خطط ، وأشرف على بناء المسجد الانور بالقاهرة أو جامع الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين في مصر ـ كما يعرف احيانا •

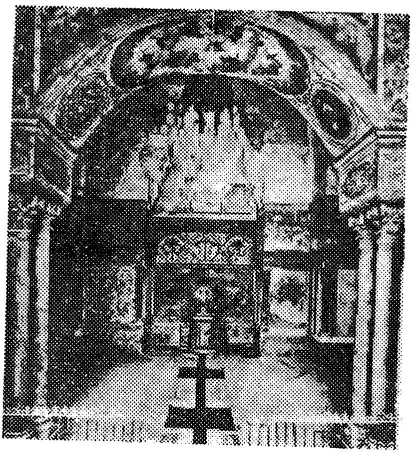
وترك الفاطميون « تونس » الى مصر ، وعهدوا بحكمها الى المغاربة أهل البلاد ، أو بعبارة ادق الى قبيلة صنهاجة التي منها « بنو زيري » و « بنو حماد » الذين أسلفنا الاشارة اليهم عندما كنا بالجزائر • وخلع هؤلاء المغاربة طاعة الفاطميين ، وتوجهوا بولائهم الى الخلافة العباسية في بغداد ، فانتقم الفاطميون منهم بأن أطلقوا عليهم جماعات من اعراب « بني هلال » الذين كانوا ينزلون في صعيد مصر ، فعاثوا في تونس فسادا ، ونشروا الفوضى والرعب في كل مكان ، وقد صورت القصة الشعبية المشهورة ، « قصة ابي زيد الهلالي » حوادثهم في تلك البلاد •

واستولى الموحدون على البلاد ، وانتقلت العاصمة من مدينة المهدية الى مدينة تونس ، وانتقل الحكم بعد مدة من الموحدين الى « بني حفص » ، وقد نشطت في أيام هؤلاء حركة التعمير نشاطا عظيما ، فادخلوا على مسجدي القيروان والزيتونة كثيرا من التحسينات ، وأنشأوا كثيرا من المساجد والمدارس والاسواق التي لايزال بعضها قائما حتى اليوم ، نذكر منها على سبيل المثال : مسجد القصبة الذي يمتاز بصومعته الجميلة التي تحمل تاريخ انشائها وهو سنة ٦٣٠هـ **(١٢٣٢م)**[١] •

(١) راجع للمؤلف بحثا عن الفن الاسلامي في تونس ، نشر في مجلة الهلال التي تصدر في القاهرة • (الجزء ٥١ ـ العدد الرابع ـ اكتوبر سنة ١٩٤٣) •

في صقلية

واذا عبرنا البحر الى جزيرة صقلية رأينا فيها بلادا فتحها المسلمون ، ومكثوا بها نحوا من قرنين ونصف (٢١٣–٤٥٣هـ) – (٨٢٨–١٠٦١م) ، ثم قضى النورمانديون على حكم المسلمين نهائيا ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الحضارة الاسلامية التي مكّن لها الاغالبة في هذه الجزيرة ، ونشروها في ربوعها • واذا كان النفوذ السياسي للعرب قد أنتهى بالفعل ، فأن نفوذهم في الفن والثقافة ظل قويا ، اذ استعان هؤلاء الاوربيون بفنانين وعلماء[١] من المسلمين في السير بعجلة الحضارة الانسانية الى الامام •



شكل (١٣)

ويكفي أن نشير هنا الى بعض الآثار المعمارية التي لا تزال قائمة في مدينة بالرمو عاصمة الجزيرة والتي تشهد باثر المسلمين في الفن حتى بعد خروجهم من الجزيرة ونختار من هذه الآثار «قصر العزيزة» (شكل ١٣) و « قصر القبة » وكلاهما انشيء في العصر النورماندي ، وبالذات في عهد الملك وليم الثاني ، ولكن يتجلى فيهما جمال الفن

(١) يكفي ان نذكر من هؤلاء العلماء عالما عربيا طوقت شهرته الآفاق ، هو ذلك الجغرافي المشهور بالادريسي الذي كان يعيش في بلاد الملك النورماندي روجر الثاني (١١٠١–١١٥٤م) ، فقد عهد هذا الملك الى هذا العالم الجغرافي العربي بوضع كتاب في جغرافية العالم كما كان معروفا في ذلك الوقت ، وقد جاء هذا البحث النفيس فريدا في نوعه في هذا العصر ، يزدان بخرائط كثيرة • وتكليف هذا العربي بهذا العمل العلمي انما يكشف لنا عن مدى تفوق الحضارة الاسلامية على الحضارة الاوربية في ذلك الوقت • – راجع بحثا قيما للعلامة كرامر ، تعرض فيه لهذه النقطة ، وهو منشور في النسخة الانجليزية من كتاب تراث الاسلام • اما الترجمة العربية لهذا الكتاب التي صدرت بالقاهرة سنة ١٩٣٦م فلم يترجم فيها هذا الفصل وهو :

Kramer, Geography and Commerce, Legacy of Islam. Ofors Psess. pp. 79-107.

الاسلامي بصورة واضحة .

والاول منهما به قاعة كبيرة ، تحيط بها غرف صغيرة ، وفي الطابق العلوي قاعة كبيرة كذلك . وتتجلى في هذا القصر زخرفة المقرنص بصورة رائعة ، اذ نراها تملأ الحنايا ، وتشيع في ارجاء البناء جمالا فنيا يزيد من روعته وجود الكتابة الكوفية .

والثاني - وهو قصر القبة - قد استمد اسمه من قبة عظيمة تغطي قاعة واسعة ، تحف بها من الجانبين غرفتين مستطيلتين ، وزخرفة الارابسك الجميلة تشاهدها في اجزاء مختلفة من هذا القصر .

ولا يفوتنا ونحن نغادر مدينة بالرمو ، بل وجزيرة صقلية ، أن نذكر أن هذه الجزيرة قد لعبت في الحضارة الاوربية الحديثة دورا هاما ، فقد استمد منها الايطاليون - وهم أول رسل الحضارة في أوربا - خبرتهم الصناعية في فجر النهضة الاوربية ، كما تأثروا بفنها في فنونهم الزخرفية .

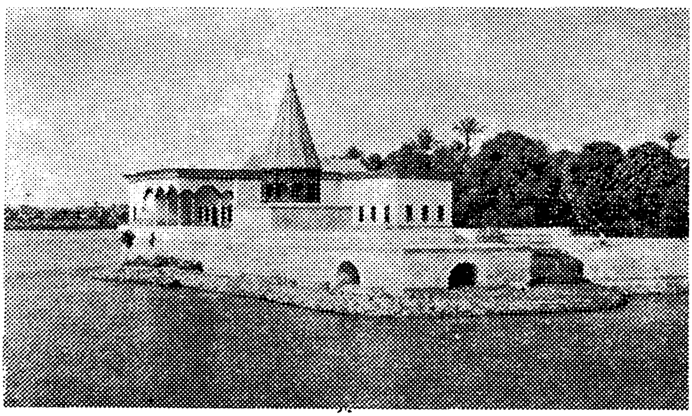
في مصر

ونعبر البحر مرة ثانية متجهين الى مصر ، ذلك القطر الذي يمتاز بأنه يحتفظ لنا بجانب كبير من الآثار والتحف الاسلامية تكوّن سلسلة متماسكة الحلقات تنتظم العصور المختلفة للحضارة الاسلامية .

هذه الميزة التي تتمتع بها مصر دون غيرها من بلاد العالم الاسلامي انما ترجع الى أمرين : الاول ، أنها كانت بمنجاة من بعض الكوارث التي تعرض لها العالم الاسلامي ، لاسيما في جانبه الشرقي . والثاني ، ان الشعور باهمية تراث الماضي قد استيقظ فيها قبل غيرها من البلاد الاسلامية ، فقامت تكشف عنه ، وتحافظ عليه ، وتقوي ما تداعى منه ، وتكمل ما ضاع من اجزائه ، وتسعى جاهدة لكي تجليه على الناس في الصورة الرائعة التي كان عليها يوم شيده ، او صنعه اجدادنا من المسلمين في العصور الوسطى .

وقد فتح العرب مصر على يدي عمرو بن العاص سنة ٢٠هـ (٦٤٠م) ، وفتحها الاتراك العثمانيون على يدي السلطان سليم الاول سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) ، ومن الفترة الواقعة بين الفتح العربي ، والفتح التركي ، وصلت الينا آثار اسلامية كثيرة نلخصها فيما يلي :

من العصر السابق على الطولوني وصلت الينا بعض البقايا من مسـجد عمرو - وهو أول مسجد انشىء في مصر[1] . كما وصل الينا « مقياس النيل » بجزيرة الروضة شكل (١٤) ، الذي أمر بانشائه الخليفة العباس المتوكل على الله سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م)[2] .



شكل (١٤)

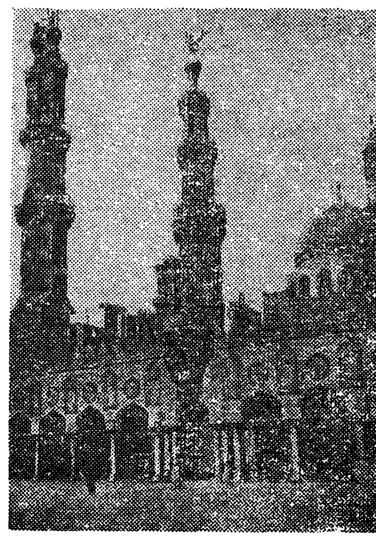
ومن العصر الطولوني وصل الينا مسجد ابن طولون (شكل ١٥) الذي أحتفظ لنا بكامل هيئته التي كان عليها عند انشائه ، وهو يعد مفخرة العمارة الاسلامية على الاطلاق .

(١) راجع ص ٩-٢٦ من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك للمؤلف - الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ففيه بحث مستفيض عن هذا المسجد وصور كثيرة . وراجع كذلك مساجد القاهرة ومدارسها - المدخل - للدكتور أحمد فكري ص ٦٧-١٠٠ ، مصر ١٩٦١ .

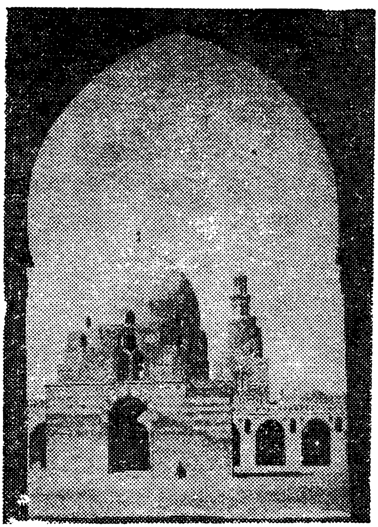
(٢) راجع ص ١٩ ، ٢٠ من كتاب الفن المصري الاسلامي للمؤلف - القاهرة سنة ١٩٥٢ . وص ٥٦٦-٥٦٧ من بحث للمؤلف بعنوان « الحياة الفنية في مصر الاسلامية » نشر في المجلد الثاني من سلسلة تاريخ الحضارة المصرية الذي نشرته وزارة الثقافة والارشاد في مصر . وفيه صور مختلفة لهذا المقياس .

واذا كان المسجد الجامع بمدينة سامراء بالعراق ، الذي بنى هذا المسجد على نمطه ، قد تخرب ولم يبق منه الا أطلال ، فأن جامع ابن طولون الذي بني سنة ٢٦٥هـ (٨٣٩م) أي بعد انشاء مسجد سامراء بثلاثين عاما ، فيه خير العوض[١] .

وليس المسجد وحده هو الذي انشيء في هذا العصر بل يحدثنا المؤرخون عن القصر الذي شيده ابن طولون ووسعه ابنه خمارويه ، واذا كانت معالمه قد ضاعت ، الا أن وصفه الذي وصل الينا ، يدلنا على مقدار عظمة مصر في ذلك العصر ، والتأمل في هذا الوصف يكشف لنا عن صورة من صور القصور في القرن التاسع الميلادي ، وعن هندسة الحدائق وتنظيمها ، كما يجلو علينا مدى



شكل (١٦)



شكل (١٥)

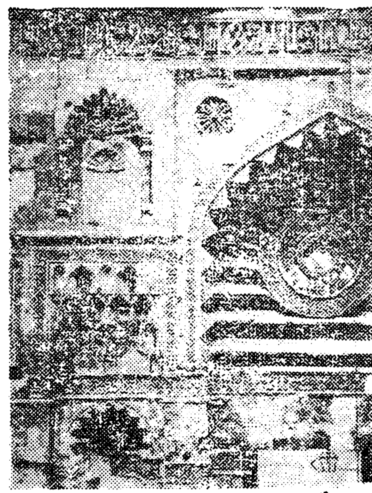
التقدم المادي الذي كانت عليه مصر منذ احد عشر قرنا يوم لم تكن أوربا او أمريكا شيئا مذكورا ، ولم يكن فيهما ما يستحق الذكر اذا ما استثنينا روما والقسطنطينية .

---

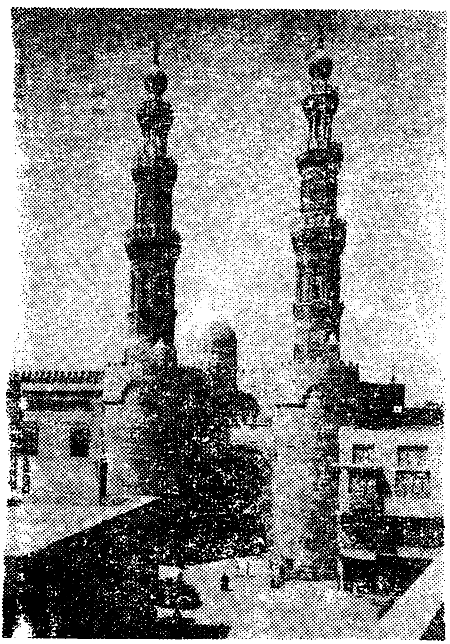
(١) راجع ص ٢٧ـ٥٢ من كتاب : مساجد القاهرة . للمؤلف . وص ١٠٣ـ١٦٠ من كتاب الدكتور أحمد فكري سالف الذكر .

ودخلت مصر تحت حكم الاخشيدين ، ولم يصل الينا من آثارهم الا مشهد آل طباطبا ، وقد عبثت به اليد البلى[1] •

وجاء الفاطميون الى مصر ، ويعتبر عصرهم من أغنى العصور بالآثار الاسلامية ، اذ وصلت الينا منه ابنية كثيرة مختلفة ، نذكر منها الجامع الازهر (شكل ١٦)وجامع الحاكم بأمر الله أو الجامع الانور ، والجامع الاقمر[2](شكل ١٧)، ومشهد الجيوشي[3] ، وبعض أبواب القاهرة (مثل باب زويلة-شكل ١٨) ، واسوارها



شكل (١٧)



شكل (١٨)

---

(١) الدكتورة سيدة الكاشف : مصر في عهد الاخشيدين ص ٢٨٥-٢٨٧ واللوحة الثالثة - القاهرة سنة ١٩٥٠ •

(٢) راجع عن مساجد الازهر والانور والاقمر ، كتاب : مساجد القاهرة • للمؤلف ص ٥٣-١٠٤ (الطبعة الثانية) • والبحث الذي كتبه المؤلف عن الحياة الفنية في مصر الاسلامية - سالف الذكر ، حيث يوجد صور كثيرة لهذه الاثار •

(٣) راجع بحثا للمؤلف عن هذا المشهد نشر في مجلة الازهر ، عدد شهر صفر سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) •

المنيعة التي افلتت من يد الزمن لكي تدلنا على مدى ما وصل اليه اجدادنا في العمارة الحربية في العصور الوسطى ٠

وأمسك صلاح الدين الايوبي ـ تلك الشخصية التي جرى أسمها على كل لسان في الشرق وفي الغرب في العصور الوسطى ، واثبته الاوربيون في كتبهم تحت أسم « سلادين » Saladin ـ بزمام الحكم في مصر ٠ ولم تترك لنا الدولة الايوبية الا القليل من الآثار بسبب انصرافها الى محاربة الصليبيين ، وأهم هذه الآثار قلعة القاهرة او قلعة الجبل كما تسمى في كتب التاريخ[١] ، ثم مشهد الامام الشافعي ذو القبة الرائعة [٢] ٠

ثم جاء عصر المماليك ، وقد كان عصر انتاج فني منقطع النظير ، وأهم ما خلفه هؤلاء المماليك في القاهرة من الآثار : مسجد الظاهر بيبرس[٣] ، وقبة السلطان قلاوون[٤] ، وخانقاه بيبرس الثاني[٥] ، ومدرسة السلطان حسن التي تعتبر اعظم الآثار الاسلامية في مصر (شكل ١٩) ، ويلاحظ أن هذه المدرسة بها أربعة اواوين ، كل أيوان مخصص لتدريب مذهب من المذاهب الفقهية الاربعة ، وبها كذلك مساكن الطلبة [٦] ٠

---

(١) راجع للمؤلف كتاب الفن الاسلامي في العصر الايوبي ـ المكتبة الثقافية نشر وزارة الثقافة والارشاد في مصر ٠ ص٨ـ١٨ ٠

(٢) راجع نفس المرجع السابق ص ٢٧ـ٣٤ ٠

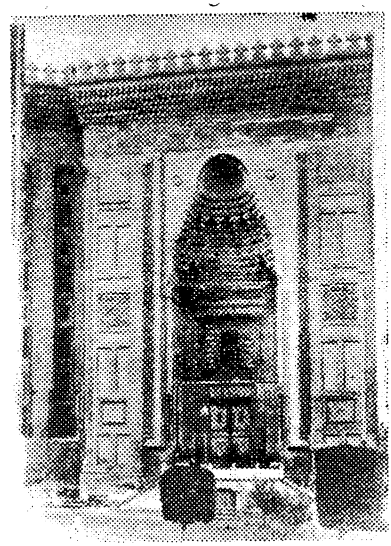
(٣) راجع بحثا مطولا عن هذا المسجد للمؤلف نشر في المجلة التاريخية المصرية في العدد الاول سنة ١٩٥٠ ، ص ٩١ـ١٠٢ ٠

(٤) راجع بحثا للمؤلف عن هذه القبة فيه الكثير من الصور ـ نشر في مجلة الهلال التي تصدر بالقاهرة (الجزء ٥٢ ـ العدد الرابع ـ اغسطس سنة ١٩٤٤) ٠

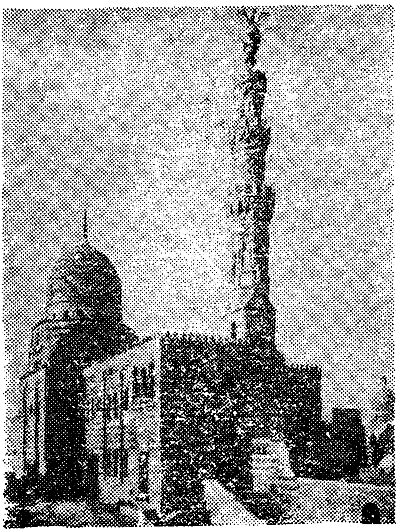
(٥) الخانقاه : كلمة فارسية معناها دار الصوفية ، اي المكان الذي يقيم فيه جماعة من المسلمين ، زهدوا في لهو الحياة الدنيا ، ورغبوا في الانقطاع الى عبادة الله ٠ وهي اشبه ما تكون بأديرة الرهبان عند المسيحيين ٠ راجع بحثا للمؤلف عن هذه الخانقاه ، مزين بصور مختلفة ـ نشر في مجلة الهلال التي تصدر بالقاهرة (الجزء ٥٣ ـ العدد الثالث ـ يوليو سنة ١٩٤٥) ٠

(٦) راجع بحثا للمؤلف عن هذه المدرسة ، مزين بالصور الكثيرة نشر في مجلة الهلال التي تصدر بالقاهرة (الجزء ٥٢ ـ العدد الثاني ـ ابريل سنة ١٩٤٤) ٠

ومن الآثار المعمارية الجميلة التي ترجع الى أواخر هذا العصر مسجد قايتباي بالصحراء الشرقية بالقاهرة (شكل ٢٠) ، وقلعة قايتباي في الاسكندرية



شكل (١٩)

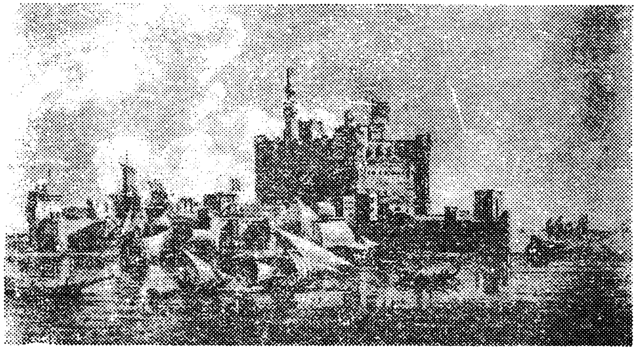


شكل (٢٠)

(شكل ٢١) ، ثم سبيل قايتباي بالقاهرة [١] • والسبيل عادة كان يتكون من بناء ، في الطبقة السفلى منه مورد ماء عذب يشرب منه الناس ، وفي الطبقة العليا «كُتّاب» أو مدرسة اولية لتعليم القراءة والكتابة والحساب وتحفيظ القرآن • وقد كان «السبيل والكتاب» في أول الامر جزءان متصلان من بناء المدرسة أو المسجد ، لا ينفصلان عنه ، ولكنهما استقلا بوجودهما بعد ذلك كما هو الحال في سبيل قايتباي هذا • وقد

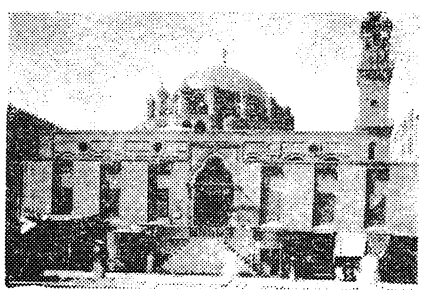
---

(١) يمكن رؤية صورة هذا السبيل في البحث الذي عقده المؤلف عن الحياة الفنية في مصر الاسلامية الذي سبق الاشارة اليه •



شكل (٢١)

أقبل الناس على الاكثار من بنائهما في عصر المماليك ، وحبسوا عليهما الأعيان التي يصرف من ريعها على التلاميذ ومعلميهم ، وعلى توفير ماء الشرب لعابري الطريق في بلد اشتهر بجوه الحار ، فليس أقرب الى الله ممن يسقي الماء ليطفيء اوار الظمأ ، وينشر العلم ليذهب وصمة الجهل •



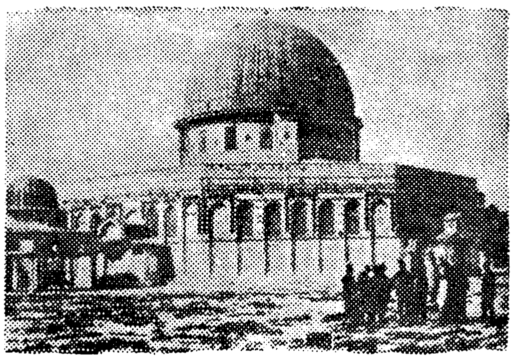
شكل (٢٢)

ثم دخلت مصر تحت حكم الامبراطورية العثمانية ، ووصلت الينا من هذا العصر آثار كثيرة ، تتجلى فيها خصائص الفن التركي العثماني من أهمها جامع سنان باشا ، ومسجد الملكة صفية ، وجامع محمد ابو الذهب(شكل ٢٢) ومسجد محمد علي بقلعة الجبل •

في بلاد الشام

ونطير الى بلاد الشام ، ولا ننسى ونحن ننزل فيها ، أنها كانت قديما قطراً واحدا يشمل فلسطين ، وشرق الاردن ، ولبنان ، وسورية • وقد قامت فيهـــا الخلافة الاسلامية الثانية بعد الخلافة الاولى : خلافة الراشدين ، ونعني بها الخلافة الاموية في الشرق التي كانت مدينة دمشق مقرا لها ، اما الخلافة الاموية في الغرب فقد قامت في الاندلس كما ذكرنا من قبل ، وكانت قرطبة عاصمة لها •

وقد اتسعت رقعة الامبراطورية الاسلامية الى ضعف ما كانت عليه ايـام الراشدين ، اذ نزل العرب في حوض السند ، ثم نزلوا في اقليم ما وراء النهر ، ووصلوا الى وسط آسيا ، وزحف الاسلام في ذلك العهد الى بلاد الصين • وازداد



شكل (٢٣)

سير العرب غربا ، فبعد ان فتحوا مصر اتجهوا الى شمال افريقية : الى تونس والجزائر ومراكش ، ومنها زحفوا الى الاندلس ، فاصبحت امبراطوريتهم تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى الهند وآسيا الوسطى شرقا •

وازداد اقبال العرب على الحياة المدنية ، واضطرهم هذا الى تعريب الدواوين، ولم يكن الانتقال الى اللغة العربية دفعة واحدة بل جاء بالتدريج ، اذ مر العرب بفترة استعملت فيها اللغتان الوطنية والعربية معا ، ولكن لم ينته عصر الدولـــة الأموية حتى ذاع استعمال اللغة العربية وحدها في المكاتبات الرسمية •

والعملة الاسلامية التي خطا عمر بن الخطاب ، الخطوة الاولى في سبيل تعريبها كما ذكرنا من قبل [1] ، زاد فيها عثمان بن عفان عبارة « الله اكبر » ، ونقش عبدالله بن الزبير عبارة محمد رسول الله على احد وجهيها ، وعبارة « امر الله بالوفا » على الوجه الآخر ـ قد أصبحت الآن عربية خالصة ، لانصيب فيها لنقوش الفرس او الروم ، وقد توعد عبدالملك بن مروان ـ الذي كان له فضل هذا التعريب الكامل ـ كل من يتعامل بغير هذه العملة الاسلامية بالقتل ، وقد اصبحت النقوش التي على هذه العملة الاسلامية الخالصة ، على الوجه عبارة : « لا الـه الا الله وحده لا شريك له » ، وعلى الظهر : « الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد » • وعلى الحافة من جهة ، عبارة مأخوذة من الآيتين الكريمتين رقم **٢٨** و **٢٩** من سورة الفتح وهي : « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » • ومن الجهة الأخرى على الحافة كذلك عبارة : « بسم الله ضرب هذا الدينار (او الدرهم) في سنة ••• » •

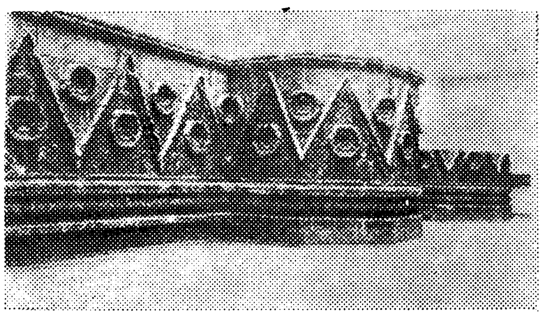
ولقد وصلت الينا من عصر الخلافة الاموية في الشام آثار كثيرة لا تزال قائمة حتى اليوم ، اما في أماكنها الاصلية مثل قبة الصخرة والمسجد الأموي بدمشق ، وقصير عمرة ، وقصر هشام • أو نقلت وأعيد بناؤها في المتاحف مثل قصر الحير الغربي في المتحف الوطني بدمشق ، وقصر المشتى في المتحف الالماني في برلين الشرقية •

وتحدثنا هذه الآثار جميعا بزخارفها المختلفة عن المرحلة الاولى التي مرّ بها الفن الاسلامي بعد مولده في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان[2] ، مرحلة النقل عن الفنين البيزنطي والساساني ، ويتجلى لنا ذلك في وضوح في زخارف قبة الصخرة في بيت المقدس التي شيدها الخليفة الاموي عبدالملك ابن مروان سنة **٧٢**هـ **(٦٩١م)** ، **(شكل٢٣)** فوق الصخرة المقدسة التي يقال ان النبي الكريم قد وضع قدمه عليها بعد ما أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، ثم بدأ يعرج الى السماء ليلة الاسراء •

---

(١) راجع ص ١٧ من هذا الكتاب •
(٢) راجع ص ٢٣ من هذا الكتاب •

والمسجد الاموي في دمشق من الآثار الاسلامية الهامة (شكل ٢٥) ، وقد شيده الخليفة الاموي الوليد بن عبدالملك بين سنتي ٨٨ ، ٩٦هـ (٧٠٦ و٧١٤م) ، وانفق عليه أموالا طائلة حتى جعله ـ كما يقول المقدسي ـ أحد عجائب الدنيا السبع • ولم يكن المقدسي راضيا عن اسراف الوليد في بناء هذا المسجد ، وقد عبر عن عدم رضائه هذا في حديث له مع عمه جاء فيه : « قلت يوما لعمي : يا عم ، لم يحسن الوليد حين انفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرفت في عمارة الطرق والمصانع ، ورمّ الحصون ، لكان ذلك أصوب وأفضل » • فأجابه عمه قائلا : « انك لا تعقل يا بني ، ان الوليد وفق ، وكشف له عن أمر جليل ، وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ، ورأى فيها بيعا قد أفتن في زخارفها ، وانتشر ذكرها ، كالقمامة (يعني كنيسة القيامة) ، وبيعة لُدّ ، والرها ، فاتخذ للمسلمين مسجدا اشغلهم به عنهن ، وجعله أحد عجائب الدنيا » (١) •



شكل (٢٤)

و « قصير عمرة » من الآثار الأموية التي كشفت عنها الحفائر الاثرية سنة ١٨٩٨م على يدي الباحث الأثري « موزل Musil » وقد أثار اكتشافه جدلا طويلا بين العلماء لما أحتواه هذا البناء من صور جدارية ، فقد كان المعروف حينئذ أن الاسلام يحرم التصوير (٢) • وهذا القصر الصغير يقع على بعد خمسين ميلا شرقي

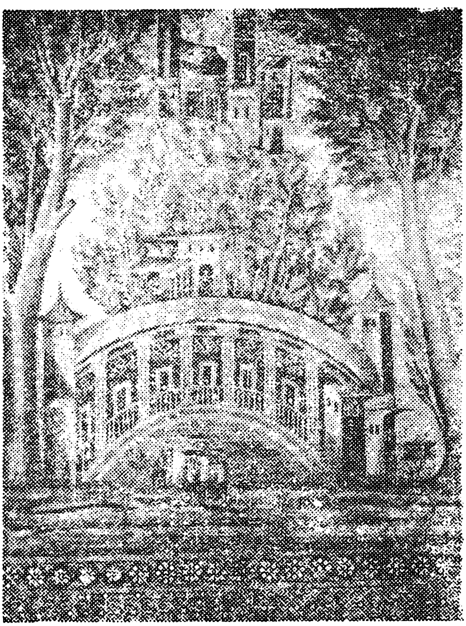
(١) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ طبعة ليدن ص ١٥٩

(٢) عن هذا الاثر انظر بحث كرزول في كتابه الكبيرة عن العمارة الاسلامية في الجزء الاول ص ٢٥٣ـ٢٧٢ ، أو كتابه الصغير ص ٨٤ـ٩٣ • وفي كلا الكتابين صور كثيرة ودراسة وافية عن هذا الاثر من ناحيته المعمارية •

مدينة « عمان » عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية ، وقد بني لكي يستريح فيه الخليفة عند خروجه للصيد ، وبه حمام ، وتزدان جدران هذا القصر الصغير بالصور الآدمية المختلفة التي أثارت موضوع التصوير في الفن الاسلامي ، ومن أهم صور هذا البناء واحدة تمثل الخليفة الوليد وهو جالس على عرشه ، وقد وقف وراءه الملوك الذين اخضعهم(١)

وقد كشفت دائرة الآثار الفلسطينية عن قصر الى الشمال من مدينة أريحا في مكان يعرف بخربة المفجر ، وينسب هذا القصر الى الخليفة الأموي هشام على أساس كتابة أثرية عثر عليها في خرائبه وتتضمن تاريخ انشائه وهو سنة ١١٠هـ (٧٢٨م)(٢) .

اما الآثار المعمارية التي نقلت من مواطنها واعيد بناؤها في المتاحف ، فنذكر منها قصر المشتى الذي كشفت عنه الحفائر الأثرية في القرن التاسع عشر الميلادي في الجنوب الشرقي من مدينة عمان . وكل ما بقي من هذا القصر العظيم هو واجهته الحجرية ذات الزخارف الرائعة التي أهداها السلطان عبدالحميد - سلطان تركيا - الى غليوم أمبراطور المانيا سنة ١٩٠٣ بناء على طلبه ، ونقلت أحجار هذه الواجهة الى مدينة برلين حيث أعيد بناؤها في القسم الاسلامي بمتاحف الدولة (في برلين الشرقية في الوقت الحاضر) . وفي



شكل (٢٥)

(١) سنتناول موضوع التصوير في الاسلام فيما بعد في هذا الكتاب .

(٢) راجع كتاب :

Barmaki, Guide to the Umayyad Palace at khirbet al mafjar, Jerusalem, 1947.

هذه الواجهة (شكل ٢٤) نشاهد الفن الاسلامي كذلك في مرحلة الاعتماد على عناصر الفن الساساني والفن البيزنطي كما شاهدناه في زخارف قبة الصخرة وزخارف المسجد الاموي في دمشق ، وهذا هو ما خدع اولئك الذين أنكروا على الفن الأسلامي شخصيته فظنوا أنه أمتداد للفنين البيزنطي والساساني ، ولكنهم نسوا ان الفن الاسلامي هنا انما يمر بمرحلة النقل التي تؤهله لمرحلة الابتكار فيما بعد ، شأن كل فن من الفنون التي سبقته او لحقت به •

والأثر الثاني الذي أعيد بناؤه من جديد هو قصر الحير الغربي الذي نشاهده الآن في المتحف الوطني بدمشق ، وقد عثر المنقبون فيه في سنة ١٩٣٦ على صور جدارية عظيمة اقبلوا على دراستها[١] •

★ ★ ★

وسقطت الخلافة الأموية في دمشق سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، وأصبحت بلاد الشام جزءاً من أقاليم الخلافة العباسية ، ثم غزا البلاد الاخشيديون ثم الفاطميون ثم الايوبيون ، أي انها شاطرت مصر حظها في هذه الفترات •

ولم تخل البلاد من آثار شتى تذكرنا بتلك الفترات نذكر منها على سبيل المثال بيمارستان نور الدين في دمشق ، وهذا الأثر جدير بأن نقف عنده قليلا ، فهو يعني بلغتنا الحديثة دار الاستشفاء ، وهو بناء يتكون من ابهاء وحجر بها أسرة• وبعض هذه الحجر مخصصة للنساء وبعضها خاص بالرجال ، ولكل مرض من الأمراض قسم خاص به ، يتفقد شئونه اطباء من قبل الدولة ، يطالعون فيه أحوال المرضى ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه من الدواء والطعام ، ومن هنا كان بهذا البناء موظفون يقومون بطبخ الادوية وطبخ الاطعمة ، وفي مخازنه الملابس التي يرتديها المرضى عند تواجدهم للاستشفاء كما هو الحال في احدث المستشفيات اليوم[٢] •

وهذه المنشآت العامة التي كانت تنشئها الدولة لكي توفر وسائل العلاج للشعب تعد في الحقيقة من مفاخر الحضارة الاسلامية التي سبقت بها غيرها من

---

(١) للدكتور سليم عادل عبدالحق بحث قيم عن هذا القصر منشور في مجلة الحوليات الاثرية السورية ـ المجلد الاول ـ الجزء الاول ص ٥ـ٥٧ سنة ١٩٥١ •

(٢) راجع بحثا عن هذا المارستان به صور مختلفة للاستاذ صلاح المنجد نشر في سنة ١٩٤٦ في دمشق •

الحضارات • واوربا عندما نهضت نهضتها العظيمة ، واتجهت الى هذه النواحي الانسانية انما اقتفت اثر الشرق واقتدت باجدادنا ، ولعل خير مايترجم عن سمو حضارة هؤلاء الاجداد في العصور الوسطى : عصور التعصب للجنس ، وللدين ، وللطبقة الاجتماعية ـ هو تلك العبارة التي قالها السلطان قلاوون ـ أحد سلاطين المماليك في مصر ـ عندما افتتح مارستانا بالقاهرة[١] بناه على نمط مارستان نورالدين الذي تتحدث عنه ، اذ قال هذا السلطان : « اني بنيته لوجه الله ، لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والاجناس ، ممن هو مثلي او دوني ، للغني والفقير ، للحر والعبد ، للذكور والاناث » •

ونزلت بدمشق بعد ذلك كارثة الغزو المغولي الذي قضى على كثير مما كان فيها من آثار الحضارة ، ولكنها عادت فاستردت مكانتها من جديد في عصر المماليك • ثم عادت فتدهورت عندما استولى عليها تيمورلنك ـ أحد زعماء المغول ـ الذي اتى على ما كان فيها من صناعات وفنون •

ودخلت البلاد بعد ذلك تحت سيطرة الأتراك العثمانيين ، وقد وصل الينا من عهدهم بعض الآثار ، نذكر منها على سبيل المثال : التكية السليمانية التي شيدها السلطان سليمان القانوني • والتكية في هذا العصر هي ما كانت تعرف بالخانقاه في العصر الملوكي ، وقد تحدثنا عنها عندما كنا في مصر[٢] •

ولا ينبغي ان نترك بلاد الشام قبل أن نزور الجزء الشمالي منها لا سيما مدينة حلب التي قامت فيها مملكة بني حمدان ، تلك الاسرة العربية التي استطاعت أن تنتزع « حلب » من يد الاخشيدين • واعظم شخصية في هذه الاسرة « سيف الدولة الحمداني » الذي نال شهرة واسعة خلدها له الشاعر العربي العظيم ابوالطيب المتنبي ، كما اهدى له ابو الفرج الاصبهاني كتابه الشهير « الاغاني » • وهذا الكتاب هو في الحقيقة كنز ثمين يجد فيه المعنيون بالآثار الاسلامية معلومات قيمة تنير لهم سبيل بحثهم ، ففيه صور أدبية واضحة لمظاهر الحياة الاجتماعية ، وفيه

---

(١) لقد ضاعت معالم مارستان قلاوون ، هذا ولم يبق منه الا أسمه الذي يطلق الان على مستشفى حديث لامراض العيون •

(٢) انظر الهامش رقم ٢ من الصفحة رقم ٥١ من هذا الكتاب •

وصف لآلات الطرب ، وأواني الشراب ، وللأثاث والحلى والملابس والخيام[١] •

ويحسن ان نشير هنا الى ان للشعر العربي ـ لا سيما ما يتصل منه بالوصف ـ فضل كبير على الباحثين في الآثار الاسلامية ، اذ احتفظ لهم ، في بعض الاحيان ، بوصف الآثار والتحف التي ضاعت • وليس هناك من شك في أن هذا الوصف قد تعوزه الدقة التي يتطلبها دارس الآثار ، ولكنه يساعد على تكوين صورة ذهنية أقرب ما تكون الى الحقيقة ، ولعل خير مثال نسوقه هنا للتدليل على ذلك ما جاء على لسان الشعر في وصف خيمة سيف الدولة الحمداني التي كان يقيم تحتها اثناء حربه مع البيزنطيين ، والتي ضاعت ، ولم تصل الينا ، ولكن المتنبي أحتفظ لنا بوصفها اذ يقول في قصيدة طويلة يمدح بها سيف الدولة واصفا لهذه الخيمة :

عليها رياض لم تحكها سحابة ... واغصان دوح لم تُغن حمائمه[٢]
ترى حيوان البر مصطلحا به ... يحارب ضدٌ ضده ويسالمه[٣]
اذا ضربته الريح ماج كأنه ... تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه[٤]
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة ... لأبلج لا تيجان الا عمائمه[٥]
تُقَبِّل افواه الملوك بِساطه ... ويكبر عنها كمه وبراجمه[٦]

---

(١) هناك دراسات مختلفة عن كتاب « الاغاني » نذكر منها على سبيل المثال كتاب شفيق جبري « دراسة الاغاني » وقد طبع في سوريا سنة ١٩٥١ ، وكتاب محمد عبدالجواد الاصمعي « ابو الفرج الاصفهاني ، وكتابه : الاغاني » وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٥١ •

(٢) أي أن هذه الخيمة فيها صور حدائق لم تنبتها الامطار ، وفيها صور اشجار واغصان عليها طيور لا تغني لانها صور فقط وليست طيورا حقيقية •

(٣) اي نرى في هذا الفسطاط صور انواع الحيوانات البرية وقد وقفت الى جوار بعضها لاتتقاتل لان الصلح قد عقد بينها ، كما نرى به صور حيوان يحارب بعضها بعضا ، ويسالم بعضها بعضا ، وهذا طبعا لايكون الا في الصور •

(٤) واذا ما ضربت الرياح هذا الفسطاط خيل للناظر اليه كأنما الخيول المصورة عليه تجول ، وكأنما الاسود المرسومة فيه تختال في سيرها •

(٥) ويشير المتنبي هنا الى صورة لقيصر الروم وقد خرّ ساجدا في ذلة امام الابلج (أي سيف الدولة) الذي لا تاج له الا عمامته •

(٦) يصف الشاعر هنا صورة أخرى للملوك وهي تقبل بساط سيف الدولة لا كُمه ولا حتى مفاصل اصابعه (البراجم) لأنه أعظم شأنا من هؤلاء الملوك •

ومن أمثلة وصف الشعر للاثار المبنية ما قاله الشاعر عمارة اليمني في وصف دار للوزير الفاطمي طلائع بن رزيق :

لم يبق نوع صامت او ناطق — الا غدا فيه الجميع مصورا
فيها حدائق لم تجدها ديمة — كلا ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبد فيها الروض الا مزهراً — والنخل والرمان الا مثمرا
والطير قد وقفت على أغصانها — وثمارها لم تستطع ان تنقرا
• •
لا تعدم الابصار بين مروجها — ليثا ولا ظبيا بوجرة[1] اعفرا
أنست نوافر وحشها لسباعها — فظباؤها لا تتقى اسد الشرى[2]
وكأن صولتك المخيفة امنت — اسرابها الا تخاف فتذعرا
وبها زرافات كأن رقابها — في الطول ألوية تؤم العسكرا[3]

★ ★ ★

وقد استولى امبراطور الدولة البيزنطية (نقفور) على مدينة حلب ، وخربها• ثم جاء نور الدين محمود بن زنكي[4] فخلصها من الفرنجة الذين حكموها خلال الحروب الصليبية ، وضمها الى املاكه • ثم أصبحت حلب تحت حكم الايوبيين ، وكان من أهم رجالهم فيها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي ، وقد ترك لنا في حلب آثاراً كثيرة من أهمها القلعة التي لا تزال حتى اليوم قائمة تتوسط المدينة(شكل٢٦)، وهي تعد من اعظم التحصينات العسكرية التي وصلت الينا من العصور الوسطى ، وتكوّن هي والعمائر الحربية الفاطمية ، والايوبية في مصر سلسلة من الابنية العسكرية تنطق بمدى ما بلغه اجدادنا في هذه الناحية من تفوق ومهارة •

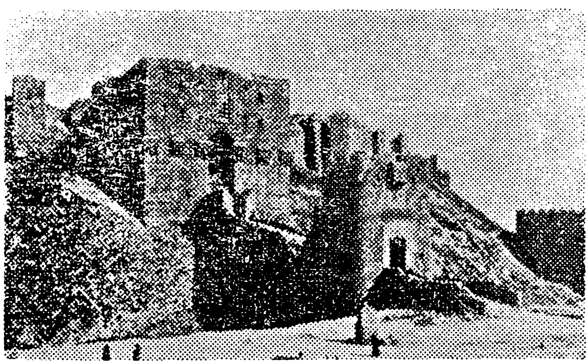
(١) الوجرة : أسم مكان في بلاد العرب •

(٢) الشرى : هي مأسدة بقرب مدينة الكوفة •

(٣) نقلت هذه الابيات من المنتخب من ادب العرب — جمعه وشرحه الدكتور طه حسين وآخرين ، ج ١ ، ص ٣٧٧ •

(٤) هو أحد رجال الدولة السلجوقية ، وسوف نتعرف على هؤلاء السلاجقة بعد قليل •

ومن آثار الملك غازي أيضا « الخان » الذي شيده لينزل فيه التجار الايطاليون الوافدون الى حلب من مدينة البندقية • وانشاء هذا الخان انما يدل على أن صلة حلب بالاوربيين كانت وثيقة في ذلك الوقت ، الأمر الذي من أجله بني هذا الخان لهم • والخان أسم يطلق في العمارة الاسلامية على بناء اشبه ما يكون بالفندق اليوم ؛ ولا يكاد يختلف عنه الا في انه يحتوي على أمكنة لدواب المسافرين ، ومخازن لحفظ ما معهم من سلع • وقد كان الخان يتكون من صحن مكشوف في الوسط تربط فيه الدواب ، ومن غرف مختلفة بعضها يطل على هذا الصحن وفيها يحفظ ما مع التجار من بضاعة ، وبعضها يفتح على الطريق العام ، وفيها تعرض السلع المعدة للبيع او المبادلة • وفي الطابق العلوي من الخان توجد غرف معدة لنزول المسافرين •



شكل (٢٦)

وفي مدينة حلب آثار أسلامية اخرى غير ما ذكرنا ، ترجع الى عصور مختلفة ، ولكل أثر منها طابع العصر الذي انشيء فيه ، ونكتفي هنا بالاشارة الى المسجد الجامع فيها وقد دخل عليه الكثير من التعديل ، والى مدرسة الفردوس •

في آســيا الصغرى

ونترك بلاد الشام بقسميها الجنوبي والشمالي الى آسيا الصغرى حيث تقابلنا هناك دولة سلاجقة الروم •

وقبل ان نمضي في استعراض ما بقى من الآثار الاسلامية في هـــذه البلاد ينبغي أن نعرف أولا من هم هؤلاء السلاجقة ، ومتى ظهروا على مسرح التاريخ الاسلامي .

والسلاجقة اتراك ، ظهروا أول ما ظهروا في أقليم التركستان ، اذ كان زعيمهم « سلجوق » قائدا لجيش أحد ملوك التركستان ، ولكن هذا الملك خشى على نفسه من نفوذ سلجوق الذي استطاع ان يجمع حوله القلوب بما اتصف به من اتزان وحكمة . واحس سلجوق بروح الغدر ، فآثر السلامة وخرج هـــو ورجاله من التركستان الى ما وراء النهر ، وهناك دخل في الاسلام .

وفي تلك البلاد منى السلاجقة بقوة « محمود بن سبكتكين » او محمود الغزنوي ، الذي كان يحكم غزنة وخراسان (وسوف نقابله في بلاد الهند فيمـا بعد) ، وقد شتت شمل السلاجقة فانقسموا الى عدة شعب : فريق ذهب الى أصفهان ، وفريق الى اذربيجان ، وفريق الى خوارزم .

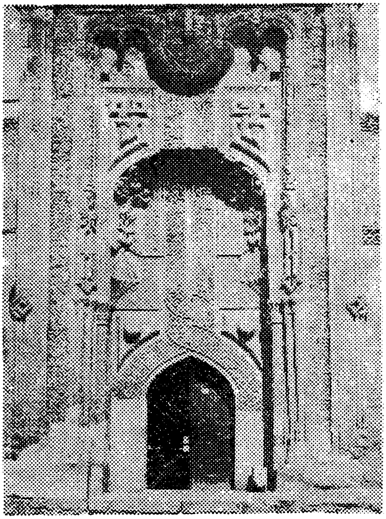
وثار السلاجقة على مسعود بن محمود الغزنوي ، فحاول ان يقضي عليهم ولكنهم استنجدوا بابناء عمومتهم الذين كانوا نازلين فيما وراء النهر ، وكان زعيمهم يدعى « طغرلبك » . وقد نجح السلاجقة في هزيمة الغزنويين والقضاء عليهم ، وكان هذا النصر بداية لظهور دولتهم ، وقد اتخذوا من مدينة « مرو » عاصمة لهم ، ووسعوا أملاكهم حتى شملت الشرق العباسي كله ، واصبح الطريق الى بغداد ممهدا امامهم . وكانت بغداد حينئذ تحت حكم « الملك الرحيم » من البويهيين (١) ، وكان الخليفة العباسي هو القائم باحكام الله ، وقد ضاق ذرعـا باستبداد البويهيين فاستنجد بالسلاجقة الذين لبوا دعوته على الفور ، ودخـل طغرلبك بغداد على رأس جيشه ، وقضى على دولة البويهيين وتزوج الخليفـة بابنة اخ طغرلبك ، كما تزوج طغرلبك بابنة الخليفة ، توثيقا للصلات بينهما ، ومات طغرلبك بعد هذا الزواج بستة شهور ، وتولى زعامة السلاجقة «الب ارسلان» وقد كانت له مع الدولة البيزنطية جولات موفقة ، اذ استطاع ان ينتصر عليهم في موقعة تعد من اشهر مواقع التاريخ الاسلامي هي موقعة « ملازكرد » ، التي أسر

---

(١) اسرة فارسية سوف نتحدث عنها عند وصولنا الى العراق .

فيها الامبراطور البيزنطي ديوجنيس ، وقد احيى بهذا النصر المبين أيام المسلمين الاولى ، يوم كانت لهم قوة وصولة •

وقد نشأت بعد هذا النصر دولة سلاجقة الروم التي اشرنا اليها في أول هذه الكلمة ، وقد ضمت اليها بلاد الشام ، وكان من رجالها نور الدين محمود بن زنكي الذي قابلناه في بلاد الشام •



شكل (٢٧)

وقد اتخذ السلاجقة مدينة « قونية » عاصمة لهم ، وعنوا بتجميلها بالمساجد والمدارس والقصور والاسواق والخانات ، واصبحت تلك المدينة من اعظم مراكز الحضارة الاسلامية ، ولا تزال فيها بقايا من هذه الحضارة قائمة حتى الآن تتمثل لنا في « خان السلطان » الواقع على الطريق الى « قونية » ومدرسة « اينجه منارة » القائمة في مدينة قونية نفسها (شكل **٢٧**)•

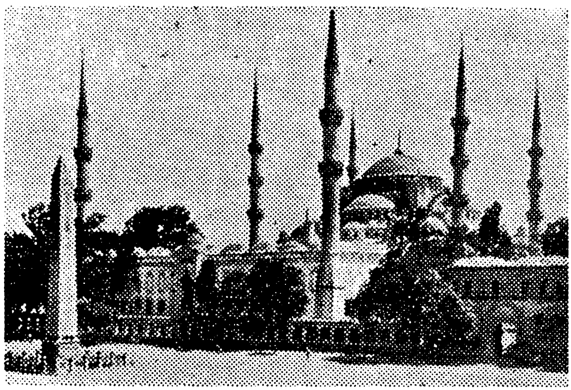
واقطع السلطان علاء الدين الثاني ــ سلطان قونية ــ احد القبائل التركية بعض الاراضي الواقعة في اقصى الشمال الغربي من بلاده ، على الحدود التي تفصل بين أملاكه واملاك البيزنطيين •

وقد ترك لرئيس هذه القبيلة المسمى « ارطغرل » حرية توسيع مقاطعته الصغيرة على حساب جيرانه من البيزنطيين • ومات ارطغرل وورث ولده « عثمان » هذه الاراضي عن ابيه ، واستطاع ان يوسع رقعتها بمهارته الحربية فاستحق بذلك أن يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية التي نسبت اليه ، وتسمت باسمه •

وقد سار خلفاء عثمان على نهجه في سياسة التوسع ، ونمت مملكتهم حتى شملت آسيا الصغرى باكملها بل وتجاوزتها الى الجهات الاربع فدانت لها مصر والشام والعراق والحجاز وشمال افريقية ، وأصبحت من اعظم الامبراطوريات الاسلامية في التاريخ •

ومن أهم اعمالها استيلاؤها على القسطنطينية ، وهذا العمل في حد ذاته حدث تاريخي عظيم ، له أهميته في الحضارة الانسانية ، اذ اصطلح المؤرخون على اعتباره نهاية العصور الوسطى ، وبداية للعصور الحديثة •

وقد بدأت في سجل الفن الاسلامي صفحة جديدة بهذا الفتح المبين ، اذ قويت فيه الروح البيزنطية بشكل واضح لاسيما في تصميم المساجد ، وقد اصبحت كنيسة القديسة صوفيا التي تعد أروع الآثار البيزنطية السابقة على الاسلام ــ مبعث الوحي في تخطيط المساجد العثمانية ، بعد ان انقلبت على أيدي العثمانيين الى مسجد



شكل (٢٨)

عقب الفتح ، فانشيء لها محراب ، ومنبر ، وشيدت بها أربع مآذن في زواياها الاربع، اسطوانية الشكل ، ممشوقة القد ، تنتهي من اعلى بطرف مدبب كأنها أقلام الرصاص التي أعدت لكي نكتب بها ، وقد ذاع هذا التصميم في الاقاليم الاسلامية التي دخلت في حوزة العثمانيين •

ومدينة اسطنبول ــ وهو الاسم الذي اطلق على القسطنطينية بعد الفتح العثماني ــ من اغنى البلاد بالآثار الاسلامية ، ويكفي ان نذكر من مساجدها مسجد محمد الفاتح الذي شيد بين سنتي ٨٦٨ـ٨٧٤هـ (١٤٦٣ـ١٤٦٩م) • ومسجد السلطان بايزيد ٩٠٧ـ٩١٣هـ (١٥٠١ـ١٥٠٧م) ، ومسجد السليمانية ٩٥٧ـ٩٦٤هـ (١٥٥٠ـ١٥٥٦م) ، وجامع السلطان احمد ١٠١٧ـ١٠٢٣هـ (١٦٠٨ـ١٦١٤م) •

في العــراق

ونترك آسيا الصغرى الى العراق حيث قامت الخلافة الاسلامية الثالثـة بعد خلافة الراشدين وخلافة الامويين • وقبل ان نتحدث عن هذه الخلافة نحب ان نشير الى ان العراق عندما غزاه المسلمون كانت عاصمته طيسفون (المدائن) التي بقى لنا منها حتى الآن ايوان كسرى القائم بجوار قرية سلمان باك من ضواحي بغداد الحالية •

وقد اسس المسلمون فيه مدينتي « البصرة و الكوفة » في عصر الراشدين ، ثم أسسوا مدينة « واسط » في عهد الأمويين الاوائل ، وعندما سقط هؤلاء وسقطت خلافتهم انتقل زمام العالم الاسلامي من الشام الى العراق ، وحمل العباسيون لواء الخلافة •

والخلافة العباسية تستمد اسمها من العباس ، عم النبي صلوات الله عليه ، والجد الاعلى لاول خلفائهم المسمى أبو العباس عبدالله ، والمعروف في كتب التاريخ ايضا باسم « السفاح » •

ولن نبحث هنا في اسباب سقوط الخلافة الاموية وقيام الخلافة العباسية ، فمجال ذلك في كتب التاريخ ، انما لابد لنا ان نشير الى أمر واحد لاسبيل الى اغفاله هو ان الامويين جعلوا للعرب مكان الصدارة في كل شيء ، ووضعوا الأمم التي دخلت في الاسلام في المحل الثاني من الاهمية مهما كانت مقدرتهم • وقد افادتهم هذه السياسة في باديء الأمر ، فأمنوا شر الفتن ، ولكنها كانت في آخر الأمر من عوامل سقوطهم ، افادتهم عندما حفظت عليهم كيانهم امام تلك الشعوب المختلفة التي اخضعوها ، وجعلت لهم قوة تخشاها هذه الشعوب ، ثم اسقطتهم عن عرشهم عندما ضعفوا في أواخر ايامهم ، ورأت تلك الامم المغلوبة ان الفرصة قد سنحت لاظهار سخطهم على الأمويين ، ووجدت في أهل بيت النبي الذين كانوا يطمعون في الخلافة معيناً لهم في حركتهم ، كما وجد أهل البيت في هذه الأمم المغلوبة ــ وخاصة الفرس منهم ــ قوة يحققون بها آمالهم في الخلافة ، وهكذا تعاون الطامعون ، مع الناقمين من الفرس على الأمويين ، واسقطوا الخلافة الاموية •

ولقد حرص العباسيون على جعل الخلافة وراثية في الفرع العباسي دون الفرع العلوي من أهل البيت على أساس ان الخلافة ميراث شرعي عن النبي ، وانه حين توفى النبي كان الوارث له عمه العباس لأن البنات لاتتولى الخلافة[1].

وحرصوا ايضا منذ البداية على ان يصبغوا هذا الميراث بصبغة مقدسة ، فقالوا ان الخليفة يستمد سلطانه من آبائه الخلفاء ، من النبي ، من الله . وانه لذلك يعتبر ظل الله في أرضه . وبهذه الاسطورة حالوا بين الخلافة العباسية وبين السقوط عندما ضعف رجالها ، وآل سلطانها الفعلي الى المتغلبين عليها من الفرس والاتراك . وبفضل هذه الأسطورة ايضا خلقوا في نفوس الناس هيبة الخلافة ، فطال عمرها ما يزيد على خمسمائة عام ، أي خمسة أضعاف عمر الخلافة الأموية تقريبا .

وبدأت الخلافة العباسية قوية ، واختار « السفاح » اقليم العراق لكي يكون مقرا لها ، لأنه اقرب الى ايران ، صاحبة الفضل الاول في قيام في هذه الخلافة ، ثم هو ، الى ذلك ، يعد واسطة العقد في الامبراطورية الاسلامية .

وقد اتخذ مدينة الكوفة عاصمة له في أول الأمر ، ثم انتقل منها الى الهاشمية التي انشئت بالقرب من الكوفة ، وعندما جاء الخليفة العباسي الثاني « أبو جعفر المنصور » اسس مدينة السلام في الجانب الغربي من نهر دجلة ، على بعد بضعة اميال شمال المدائن ، عاصمة العراق قبل الاسلام .

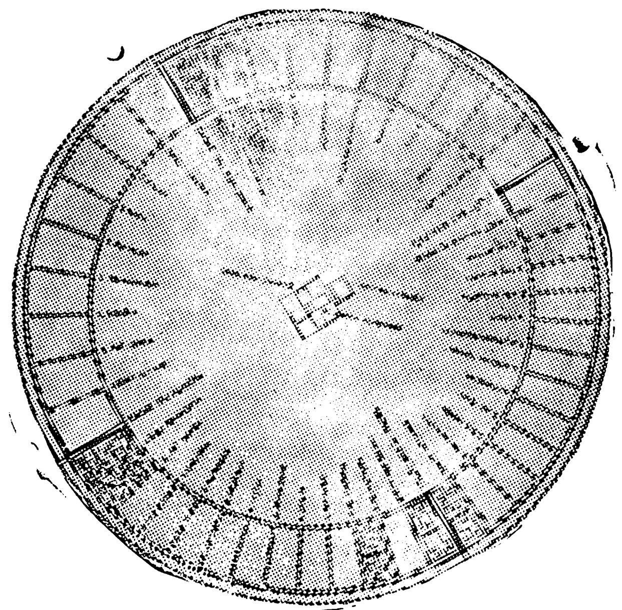
وقصة بناء مدينة السلام ، صفحة فخار في سجل الحضارة الاسلامية ، واذا نحن قارنا بين ما اتبعه المسلمون في تخطيط البصرة والكوفة في العراق ، وتخطيط الفسطاط في مصر ، وتخطيط القيروان في تونس ، وتخطيط واسط في العراق وبين ما اتبعوه في تخطيط هذه العاصمة الجديدة لتبين لنا مدى التطور العظيم الذي طرأ على المسلمين . فقد استدعى المنصور المهندسين ، وافضى اليهم برغبته في بناء عاصمة لملكه يكون فيها في مأمن من الفتن الداخلية ، ومن العدو الخارجي.

---

(١) كان للنبي صلوات الله عليه عمّان هما ابو طالب ، وقد انجب عليا زوج فاطمة ابنة الرسول ، والعباس ، وقد انجب عبدالله ، ومحمد . وهذا الاخير انجب بدوره ابراهيم ، وعبدالله المعروف بالسفاح وابو جعفر المنصور .

وطلب اليهم ان تخطط له المدينة على الأرض حتى يعرف شكلها • فخططت له بالرماد ، ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن ، وصب عليها النفط ، واشعلت النار فيها بغية ابراز شكلها بصورة واضحة •

وعرف المنصور رسمها وأقره ، وأمر بحفر أساسها ، وجند لها الصناع والبنائين والمساحين من انحاء ملكه الواسع ، وبدىء في البناء سنة ١٤٥هـ(٧٦٢م) ، وفي العام التالي نزلها المنصور ونقل اليها دواوين الدولة •



شكل (٢٩)

ولكن تُرى اين هي هذه المدينة اليوم ؟ لقد ضاعت معالمها من الوجود ، ولم يبق لنا منها شيء ، ولكننا نستطيع ان نقف على صورتها التي كانت عليها من المراجع التاريخية(شكل٢٩)، ونستطيع ان نتخيل موضعها في المنطقة الممتدة تقريبا ، بين « الكاظمية » شمالا و « الكرخ » جنوبا • ففي هذا المكان الذي لا نجد فيه اليوم اثراً لتلك المدينة كانت تقوم « دار السلام » التي كانت ــ على حد وصف المؤرخين ــ مستديرة ، يحف بها من الخارج خندق عميق ، يقوم بعده الى الداخل سور به ابراج ، ومن وراء هذا السور سور ثان به ايضا ابراج كبيرة

وصغيرة ، ثم الى الداخل بعد ذلك سور ثالث اعلى من السورين السابقين ، واعظم منهما سمكاً ، وهو يحيط برحبة واسعة يتوسطها قصر الخلافة الذي كان يعرف بقصر باب الذهب ، وكانت تعلوه قبة عظيمة خضراء ، عالية ترى من اطـراف المدينة ، وعلى رأسها صنم على صورة فارس في يده رمح ، يدور مع الريح حيث دارت • والى جوار القصر كان يقوم مسجد المنصور •

ويلاحظ ان الجزء الفاصل بين السورين الاول والثاني ، أي السـور المشرف على الخندق والسور الذي يليه ، خال من المباني لكي يسهل مهمة الدفاع عن المدينة • اما الجزء الفاصل بين السور الثاني والسور الثالث الذي يحيط بالرحبة ، فتقوم فيه منازل السكان ، وتجري بينها الطرقات المختلفة ، وكان لكل طريق منها اسم مستمد من اسماء اصحاب الدور والبساتين المقيمين في تلـك الطرقـات •

وكانت في هذه الاسوار مداخل اربعة تفضي الى الساحة الوسطى التي اشرنا اليها : مدخل في اتجاه الكوفة ، ومدخل في اتجاه البصرة ، ومدخل في اتجـاه خراسان ، ومدخل في اتجاه الشام • وعلى كل مدخل منها قائد يحرسه في الف رجل • وقد كانت هذه المداخل الاربعة عظيمة الارتفاع ، تسمح للفارس ان يدخل الى المدينة او يخرج منها وهو رافع رمحه او عَلَمه ، وقد كان لها ابواب ضخمة من الحديد لا يفتحها ولا يغلقها الا جماعة من الرجال • وقد كان فوق كل مدخل منها مجلس مغطى بقبة عظيمة ، ذاهبة في السماء ، على رأسها من الخارج تمثال تديره الريح لايشبه نظائره •

واذا كان المنصور قد اطلق على مدينته اسم « دار السلام » تيمنا بهذا الاسم الذي سميت به الجنة (١) ، فمن اين جاء اسم « بغداد » الذي غلب عليها ، وامتد حتى شمل كذلك الجانب المقابل لها على الضفة الشرقية لنهر دجلة ؟

الواقع ان هذا الاسم انما هو اسم قرية قديمة سابقة في وجودها عـلى الاسلام ، كانت تقوم بالقرب من موضع « دار السلام » ، وكانت تسمى « سوق

---

(١) يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « **والله يدعو الى دار السلام ، ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم** » • ويقول ايضا : « **لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون** » •

بغداد » • وقد كانت من المراكز التجارية ، وظلت قائمة حتى الفتح الاسلامي للعراق عندما انتصر العرب على سكانها ، واجبروهم على الهرب منها تاركين وراءهم امتعتهم وبضائعهم التي غنمها المسلمون ، وقد كان ذلك في سنة ١٣هـ (٦٣٤م) • [١]

ولا تذكر المراجع التاريخية متى كان خراب مدينة المنصور المدورة ، ولكن اغلب الظن ان السور الثالث المحيط بالرحبة المركزية قد انهدم قبل غيره لأنه لم يكن قويا مثل السورين الآخرين ، والخندق الذي كان يحيط بالاسوار ، اغلب الظن ، انه لم يدم طويلا بعد زمن المنصور لأنه لم يرد له ذكر في اخبار اول حصار لبغداد في ايام الخليفة « الأمين » • والراجح ان هذه المدينة المدورة قد بقيت حافظة لصورتها التي انشأها عليها الخليفة المنصور حتى وفاة الرشيد سنة ١٩٣هـ (٨٠٨م) • وفي عهد ولده الأمين حوصرت ، وقد تأثر السوران الاول والثاني بهذا الحصار الذي استمر خمس سنوات • ولسنا ندري على التحقيق هل أستمر الخلفاء يسكنون مدينة السلام ام تركوها الى الجانب الشرقي ؟ والذي لاشك فيه ان الخليفة المعتصم اسس مدينة « سر من رأى » (وسوف نزورها بعد قليل) سنة ٢٢١هـ (٨٣٥م) ، ونقل اليها مقر الحكم ، وبعد ثمانية وخمسين عاما عاد الخلفاء العباسيون الى بغداد الشرقية سنة ٢٧٩هـ (٨٩٢م) ، وظلت دار الخلافة بها حتى قضى المغول عليها في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) •

ترى هل ابتدع العرب تصميم هذه المدينة المدورة ام نقلوه عن غيرهم ؟ أما المؤرخون العرب القدامى مثل الطبري ، وابن الاثير ، والخطيب والبغدادي فلا يجيبون على هذا السؤال ولكنهم يصفون هذه المدينة بانها مدورة ، ولم يوضحوا ان كان العرب قد جعلوها كذلك ابتكارا ام نقلا عن غيرهم • واليعقوبي يجيب عن هذا السؤال بقوله : « لا يعرف في جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها » • واليعقوبي صادق في هذا القول في حدود معلوماته الشخصية ، ومن هنا وصفها هو وبعض المؤرخين المسلمين بانها الوحيدة في العالم التي لها هذا الشكل المنعدم النظير •

---

(١) راجع لسترانج : بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، العراق سنة ١٩٣٦ ص ١٩ـ٢٠ •

ولكن علم الآثار يجيب على هذا السؤال اجابة تختلف عن اجابة المؤرخين ، اذ يقول ان هناك مدنا مدورة تخلفت عن العصور القديمة السابقة على الاسلام من أهمها مدينة « زنجرلي » الواقعة في شمال سوريا ، على بعد خمسين ميلا من مدينة الاسكندرونة • ومدينة « ابرا » في آسيا الصغرى الى الشرق من مدينة « نصيبين » • ومدينة « اكبتانا » او همدان ـ كما تعرف اليوم • ومدينة « الحضر » الواقعة في شمال العراق • ومدينة درابجرد التي تعرف اليوم باسم « داراب » وهي في الجنوب الغربي من ايران • فالتخطيط المستدير للمدن كان معروفا قبل الاسلام عند البيزنطيين وعند الساسان ، وليس من المستبعد ان تكون مدينة « داراب » هي مصدر الوحي للمهندسين الذين خططوا للمنصور مدينته المدورة ، ذلك لانها ـ كما يرى كرزول ـ اقرب في تخطيطها لمدينة المنصور (1) •

والشيء الوحيد الذي ينسب الى « دار السلام » ولا يزال موجودا بيننا حتى الآن هو محراب من الرخام معروض في متحف الآثار ، يقال انه محراب مسجد المنصور الذي كان بالمدينة المدورة (شكل ٣٠) • ونسبة هذا المحراب الى ذلك المسجد انما تقوم ـ اكثر ما تقوم ـ على أساس ان زخارفه تنطق بروح العصر الذي أسست فيه المدينة المدورة •



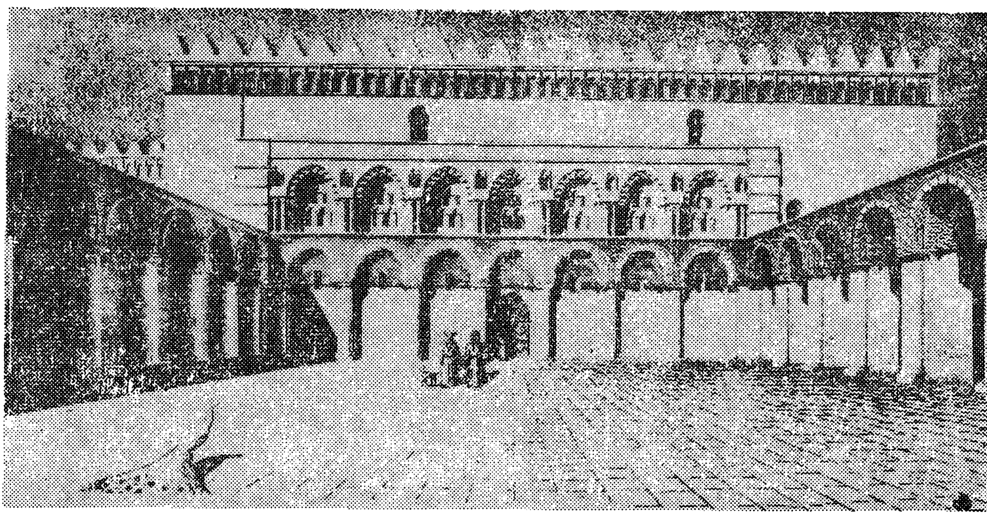
شكل (٣٠)

والآن فلنعبر دجلة الى ضفته الشرقية حيث تقوم بغداد الشرقية التي بدأت نواتها في سنة ١٥١هـ (٧٦٨م) ، أي بعد تأسيس « دار السلام » بخمسة اعوام ،

---

(١) راجع بحث كرزول في كتابه المختصر عن العمارة الاسلامية •
Creswell, A short Account of Early Musilm Architecture Penguin Books, p. 173.

وذلك عندما قدم « المهدي » ولي عهد الخليفة المنصور من خراسان بجيشه ، ولم يشأ المنصور ان يلتقي الجنود الآتين من الشرق بجنوده في المدينة المدورة ، فأمر ان يبني لولي العهد وعسكره مدينة في شرق دجلة ، سميت بالرصافة ، وهكذا أصبح قصر ولي العهد ، وثكنات جنده ، هما نواة مدينة بغداد الشرقية • وقد امتد العمران بين مدينة المنصور المدورة وبين الرصافة او بغداد الشرقية ، وارتبطا معاً بثلاثة جسور ليست مثل جسور اليوم ولكنها كانت سفنا مشدودة بعضها الى بعض •



شكل (٣١)

واذا كانت آثار العصر الاول للخلافة العباسية الذي انتهى بوفاة المأمون قد اضاعتها او غيرت معالمها يد الزمن ، كما رأينا في مدينة المنصور المدورة ، وكما هو حاصل في مشهد الامام الحسين رضوان الله عليه الموجود في كربلاء[١] ، والذي

(١) ذاع ذكر كربلاء بعد مقتل الامام الحسين رضوان الله عليه سنة ٦١ هـ (٦٨٠م) ، وقيام قبره الشريف فيها • ويعتبر هذا المشهد من أجمل العتبات المقدسة في العراق ، وقد كان موضع الرعاية والعناية من اولى الامر ، ومن الاغنياء الأمر الذي ترتب عليه عمل كثير من التجديدات المعمارية في بنائه دون النظر الى تصميمه القديم ، او بعبارة أخرى دون اعتبار لعلم الآثار الذي لم يكن قد ولد بعد ، حتى اصبح المشهد الحالي ثمرة لهذه التجديدات والاصلاحات •

كان لتوالي العناية به أثر كبير في تغيير ملامحه القديمة ، فان هناك أثر واحد من هذا العصر قد احتفظ لنا بتصميمه وشكله يعزينا عن فقد تلك الآثار العظيمة الا وهو قصر الاخيضر الذي يقوم بالقرب من كربلاء (شكل ٣١) • وقد كان يظن انه سابق في وجوده على الاسلام ، ولكن الحفائر الأثرية التي اجريت في هذا القصر كشفت عن بقايا مسجد مشيد في داخله ، الامر الذي لم يعد معه مجال للشك في ان هذا الاثر اسلامي •

وعلى أساس ما في هذا القصر من عناصر معمارية يرجعه الأثريون الى عصر الرشيد [١] ، ذلك العصر الذي قفزت فيه الحضارة المادية الاسلامية الى الامام خطوات واسعة بسبب افساح المجال في هذا العصر ، أمام الشعوب المغلوبة ، والتسوية بينهم وبين العرب في كل شيء ، وقد كان من أثر هذه المساواة حدوث انقلاب عظيم في الحياة الاجتماعية والفنية ، فالواقع ان هذه الامم المغلوبة على أمرها عندما سمت مكانتها الاجتماعية الى مستوى العرب ، ارتفعت معها تقاليدها ومناهجها في الحياة ، ونظر الناس اليها نظرة تقدير واعجاب •

ولما كان سلطان الفرس عظيما ، اذ بفضلهم قامت الدولة العباسية ، فقد أقبل الناس على الحياة الفارسية يقلدونها في شتى نواحيها ، واندفعوا يصيبون الشيء الكثير من أسباب الترف الذي عرف عن الفرس ، ووفروا لأنفسهم وسائل المتعة والدعة ، وبالغوا في اعداد الموائد ، وتفننوا في الوان الطعام ، ورفلوا في فاخر الثياب ، واحتفلوا بالاعياد الفارسية والاسلامية على السواء ، ولم يتركوا متعة من متع النفس ، او لذة من لذات الحس الا أخذوا منها بالنصيب الاوفى • وكتب الادب والتاريخ حافلة بما يصور لنا هذا التغير الاجتماعي •

وهناك عامل آخر ساعد على سرعة التطور والنضوج في الحضارة المادية هو تركيز السلطة الفعلية للدولة في يد الوزير بعد ان كانت مركزة في يد الخليفة وحده ايام الأمويين في الشام ، فالوزير اصبح كل شيء في الدولة ، اما الخليفة

---

(١) عن الاخيضر راجع : (أ) كتيب مديرية الآثار العراقية الذي عنوانه الاخيضر • (ب) بحث للمؤلف بعنوان « قصر الاخيضر » في مجلة الهلال التي تصدر في القاهرة ، المجلد ٤٩ ــ الجزء الرابع ــ يوليو سنة ١٩٤١ •

فقد تخفف من اعباء الحكم ، وانصرف الى حياة الدعة في القصور ، واتخذ لنفسه حاشية كبيرة من الادباء والشعراء الى جانب عدد كبير من الجواري اللائي كان لهن أثر بعيد في ترقية الذوق الفني ، وفي اذكاء الشعور بالجمال ، وفي تقدم الفنون الجميلة • وقد استتبع هذا اللون من الحياة التفنن في ابتداع السلع المختلفة التي تستلزمها هذه الحياة المترفة من ملابس ، وطنافس ، وحلى ، وكؤوس ، وأوان وطرائف • وقد نسج الوزراء والاغنياء على منوال الخلفاء ، وسارت على هذا النهج ايضا افراد من الطبقة المتوسطة من الشعب بقدر ما سمحت لهم به مواردهم •

ودخلت الخلافة العباسية في عصر جديد بعد وفاة الخليفة المأمون ، وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذا العصر الجديد بالعصر التركي الاول نظرا لتسلط الاتراك فيه على الخلافة ، اما العصر الذي سبقه فقد اصطلح على تسميته بالعصر الفارسي الاول •

والاتراك قبائل شتى ، منهم الاتراك السلاجقة الذين عرفناهم من قبل(١) ، ومنهم الاتراك العثمانيون الذين رأيناهم في آسيا الصغرى (٢) ، ومنهم الاتراك النازلون فيما وراء النهر حتى حدود الصين الشمالية وهم الذين نقصدهم الآن ، والذين باسمهم سُمي هذا العصر •

وقد نجح العرب في اخضاع هؤلاء الاتراك قبل قيام الخلافة العباسية ، يوم اتسعت رقعة الامبراطورية الاسلامية في عصر الخلافة الاموية الاولى ، ونزلت جنود المسلمين في اقليم ما وراء النهر ، ووصلوا حتى أواسط آسيا حيث ينزل هؤلاء الاتراك واخضعوهم لسلطانهم •

وقد استعان العرب بهؤلاء الاتراك على حماية الحدود الشرقية لامبراطوريتهم العظيمة ، ودخل الاتراك في الاسلام ، وارتفعت مكانتهم الاجتماعية الى مرتبة العرب ، والفرس الذين كانوا أصحاب النفوذ في الدور العباسي الاول او العصر الفارسي الاول كما ذكرنا • وقد وجد الخلفاء العباسيون في هؤلاء الاتراك جنودا

---

(١) انظر ص ٦٢ من هذا الكتاب •

(٢) انظر ص ٦٣ من هذا الكتاب •

اقوياء ، ليست فيهم نزعة الاعتزاز بالقومية التي كانت قوية في الفرس ، وكانت قوتها في نفوسهم أكبر خطر على كيان الدولة العباسية ، لذلك نجد الخليفة المأمون قد استخدم هؤلاء الاتراك في جيشه ، وفي قصره ، واستكثر اخوه المعتصم ـ الذي ولى الخلافة بعده ـ من شرائهم ، واصبح معظم الجيش المركزي للخلافة على عهده منهم ، اما الجيش العربي فقد بدىء في الاستغناء عنه منذ ذلك الوقت .

وقد ترتب على كثرة الجنود الاتراك ان ضاقت بهم بغداد ، وتأذى الناس بوجودهم اذ كان هؤلاء الأتراك يركضون على ظهور خيولهم في شوارع المدينة ، فيصدمون الناس يمينا وشمالا ، فيثب عليهم الغوغاء ، ويقتلون بعضا ، ويضربون بعضا ، الأمر الذي ضايق « المعتصم » . واخذ يفكر في حل له . وخرج يوما للصيد وفكره مشغول بحوادث الاتراك وضرورة ابعادهم عن بغداد ، ومرّ في طريقه على صحراء لا عمارة فيها ولا انيس الاّ دير للنصارى ، فوقف عنده وسأل من فيه من الرهبان عن اسم ذلك المكان ، فاجابه بعضهم : « نجد في كتبنا المتقدمة ان هذا الموضع يسمى « سر من رأى » ، وانه كان مدينة سام بن نوح ، وانه سيعمر بعض الدهور على يد ملك جليل مظفر ، منصور ، له أصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ، ينزلها ، وينزلها ولده » . فقال المعتصم : « أنا والله ابنيها ، وانزلها ، وينزلها ولدي » .

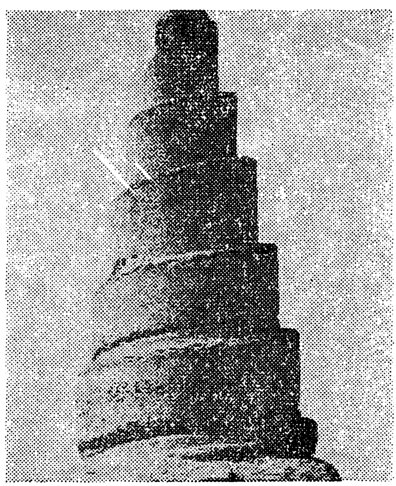
وأشترى المعتصم الارض من اصحاب الدير ، وكانت واقعة على الضفة اليمنى من نهر دجلة ، وعلى بعد مائة وثلاثين كيلومترا تقريبا شمالي بغداد ، واحضر المهندسين فاختاروا له مواقع القصور ، وصيّر لكل واحد من اصحابه بناء قصر[1] .

وخططت شوارع المدينة كأحسن ما تكون الشوارع سعة ، واستقامة ، وطولا . واستحضر من كل بلد من يعالج العمارة ، والزراعة ، وهندسة الماء واستنباطه ، والصناعة : فمن مصر حمل من يعمل القراطيس ، ومن البصرة من

---

(١) أصدرت مديرية الآثار بالعراق كتيبا عن « سامراء » فيه صور كثيرة ومعلومات مفيدة .

يصنع الزجاج والخزف والحصر ، ومن الكوفة من يعمل الخزف والادهان • وانزل هؤلاء الصناع جميعا ، بعيالهم ومصانعهم في مدينته ، واقطعهم الاراضي ، وحثهم على البناء ونتجت عن ذلك حركة واسعة النطاق في التعمير والانشاء • واستعمل القوم ما بين ايديهم من المواد الخام ، فمن الطين صنعوا اللبن والآجر ، ومن الاتربة الكلسية صهروا الجص الذي طلوا به الجدران التي تفننوا في زخرفتها • وشيد المسجد الجامع في هذه العاصمة الجديدة ، واقيمت حولـــه الاسواق ، وجعل لكل تجارة سوقا خاصة ، وافرد للاتراك قطائع منعزلة عـن الناس ، واشترى لهم الجواري ، فزوجهم منهن ، ومنعهم من ان يتزوجوا او يصاهروا الى احد من المولدين الى أن ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم الى بعض ، واجرى الارزاق لهؤلاء الجواري التركيات •



شكل (٣٢)

وهجرت مدينة سامراء بعد ان سكنها الخلفاء العباسيون نحو نصف قرن ، [١]

---

(١) سكن مدينة سامراء ثمانية من الخلفاء العباسيين هم : المعتصـــم والواثق ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين ، والمعتز ، والمهتدي ، والمعتمد الذي عادت في ايامه الخلافة العباسية الى بغداد الشرقية بعد ان حكم مدة في سامراء•

وقد رصعوا جوانبها في هذه الفترة القصيرة بالقصور والمساجد • واخذت تلك القصور والابنية تتهدم الواحدة تلو الأخرى ، وسفت عليها الرمال فغطت هـذه العاصمة الجميلة •

وظلت سامراء رهينة الاهمال حتى أشرق فجر القرن الحالي ، واتجه علماء الآثار الى العناية بتراث المسلمين ، فنفضت معاول بعض هؤلاء العلماء الرمال عن آثار تلك المدينة من قصور ومساجد وشوارع ، واستطاعوا ان يتعرفوا على بعض الأبنية مثل قصر الخليفة الذي بقى لنا منه باب العامة ، والمسجد الجامع الـذي لاتزال اسواره ، ومئذنته الملوية قائمة تشهد بعظمة اجدادنا (شكل ٣٢) ، ومثل الشارع الاعظم وما على جانبه الايمن من منازل كثيرة ، ومثل مسجد ابي دلف ، وقصر العاشق الواقع على الضفة المقابلة اي الضفة الغربية من دجلة •

وعلى بعد نحو ميل الى الجنوب من قصر العاشق تقوم قبة الصليبية فوق تل مرتفع ، ولهذا الأثر الاخير أهمية كبيرة اذ يعتبر أقدم المشاهد الاسلامية جميعا ، وقد شيدته ام الخليفة العباسي المنتصر بعد موت ابنها في سنة ٢٤٨هـ (٨٦٢م)[١] • ويقال انه قد دفن فيه مع المنتصر المعتز والمقتدر •

والواقع ان اهتمام الهيئات العلمية بالكشف عن آثار هذه المدينـــة كان عظيما ، ويكفي ان نذكر على سبيل المثال اعمال ڤيوليه Viollet الفرنسـي ، وجرترود بل Gertrude Bell الانجليزية ، وهرتسفلد Hertzfeld وزاره Sarre الالمانيان ، وأعمال مديرية الآثار العراقية التي لاتزال جارية هناك تحت اشراف الزميل الدكتور عبدالعزيز حميد • وقد نشرت البعثات الالمانية نتائج حفائرها في كتاب يعد من أهم المراجع لمعرفة هذه العاصمة العظيمة ، وبالتالي للوقوف عـلى صفحات مشرقات من حضارة اجدادنا المسلمين في العصور الوسطى •

ولمدينة سامراء أهمية عظيمة في دراسة الفن الاسلامي ، فقد سار العمران فيها بخطوات واسعة ، متلاحقة ، واصبح تخطيط المدن ، وتشييد القصور — في عهدها — ابعد ما يكون عن الاقتصاد ، يتجلى فيه الاسراف ، والترف باوسع معانيهما • ولكن سامراء كما نمت ، وتقدمت في سرعة فائقة ، كذلك تخربت وهجـــرت في سرعة ملحوظة ، وفي مدة عمرانها القصيرة المدى حدث تطور واضح في الفن

(1) Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. II p. 283.

الاسلامي اذ برزت شخصيته ، واضحة ، جلية ، ممثلة فيما يعرف بين المشتغلين بالآثار الاسلامية باسم طراز سامراء الثالث »[١] •

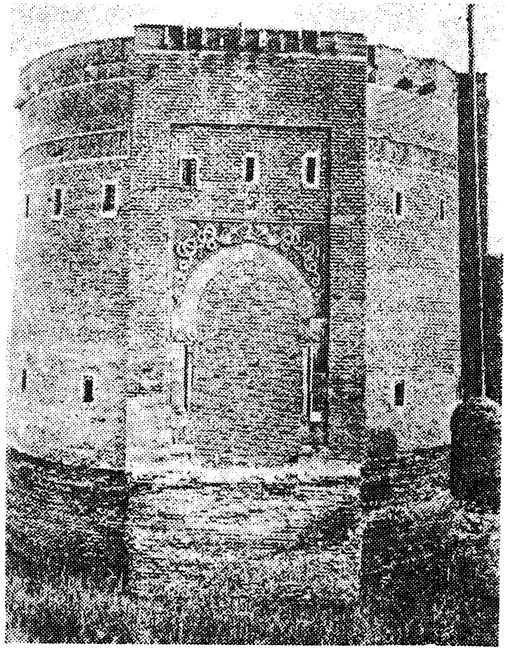
وعادت الخلافة العباسية الى بغداد الشرقية ، وكانت العودة في ايام الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٧٩هـ (٨٩٢م) ، وازدهرت فيها الحضارة المادية من جديد • وخير ما يشهد بذلك « دار الشجرة » التي انشأها الخليفة المقتدر في قصر الخلافة ببغداد ، والتي أستمدت اسمها من شجرة كانت بها مصنوعة من الفضة ، تقوم في وسط بركة كبيرة • وقد كان لها ثمانية عشرة غصنا ، لكل غصن فروع كثيرة ، مكللة بانواع الجواهر على شكل الثمار ، وكان على الاغصان انواع من الطيور بعضها من الذهب وبعضها من الفضة ، واذا مرّ الهواء على هذه الطيور ابانت عن عجائب من انواع الصفير والهدير • وعن يمين البركة تماثيل لخمسة عشر فارسا فوق خمسة عشر فرسا ، ومثلها عن يسار البركة ، وقد ارتدوا جميعا أنواع الحرير ،وفي ايديهم المطارد ، ويتحركون على خط واحد ، فيظن ان كل واحد منهم قاصد الى صاحبه[٢] •

ولقد كان لبغداد الشرقية خندق ، واسوار ، وابواب ، ولكن اتساع العمران في جهاتها الاربع قد ازال معظم معالمها الاثرية ، ولم يبق لنا منها الا اسماء يرددها الناس في بغداد مثل « الباب المعظم » وقد كان يوما ما بابا حقيقيا في سور المدينة يسلكه الناس عند اتجاههم الى مشهد الامام الاعظم « ابي حنيفة النعمان » او بعبارة أخرى الى « الاعظمية » اكبر محـــلات بغداد الشرقية • او صورا نراها في الكتب فقط ولم نعد نراها في الطبيعة مثل « باب الطلسم » الذي نسفه الاتراك العثمانيون عند انسحابهم من بغداد سنة ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الاولى ، وقت تقدم الانجليز لاحتلال بغداد (شكل ٣٣) • او بقايا اصبحت تستعمل في غير الغرض

---

(١) راجع طرز سامراء في الجزء الاول من كتاب الفن الاسلامي في مصر للمرحوم الدكتور زكي محمد حسن •

(٢) راجع مسترانج : بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ ترجمة ـ بشير يوسف فرنسيس ، ص ٢١٨ـ٢١٩ • وراجع ايضا (متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريده ص ١٨٢ جـ ٢ •



شكل (٣٣)

الذي انشئت من اجله مثل « الباب الوسطاني » الذي نشاهده بالقرب من مسجد الشيخ عمر السهروردي والذي يستخدم الآن كمتحف حربي •

ودخلت الخلافة العباسية في دور الضعف ، وفقدت سلطانها السياسي على معظم ممتلكاتها ، وانقسمت امبراطوريتها الى دويلات كثيرة ، بعضها يعترف لها بالولاء الاسمي ، وبعضها لايعترف • والواقع ان هذا الانقسام انما يرجع الى ضعف شخصية الخلفاء انفسهم من جهة ، والى استيقاظ روح القومية من جهة أخرى ، والى بُعد بعض هذه الدويلات عن مركز الخلافة ، الأمر الذي جعل اخضاعها بالقوة امرا صعبا فوق قدرة الخلافة •

وقد استبد الاتراك بالخلفاء فكانوا يعزلون من يريدون ويولون من يريدون، ويعذبون ويقتلون من يغضبون عليه ، الأمر الذي اضطر معه الخليفة المستكفي بالله ان يستنجد باسرة فارسية ، نشأت فقيرة ثم دخل رجالها (وكانوا اخوة ثلاثة)

في الجندية ، وما زالوا يتنقلون في خدمة ملوك الفرس من واحد الى واحد حتى ارتفع شأن أكبر الاخوة وهو « علي » اذ استطاع ان يحصل من الخليفة الراضي على أمر بتعيينه سلطانا على أقليم فارس • وقد نجح « علي » في ان يرفع من شأن اخويه ، فالحسن أصبح حاكما على أصفهان ، وهمذان والري ، و «أحمد» أصبح حاكما على الاهواز ثم تقدم الى « واسط » ، وطلب اليه قواد الخليفة المستكفي أن يأتي الى بغداد لكي ينقذها من الاتراك ففعل ، ودخلها ، وخلع عليه الخليفة ، ولقبه « معز الدولة » كما لقب اخاه علياً « عماد الدولة » ولقب اخاه الحسن « ركن الدولة » وأمر الخليفة ان تضرب الدنانير باسمهم •

وعصر البويهيين هو في الواقع عصر جديد في تاريخ الخلافة العباسية في بغداد اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر الفارسي الثاني • ولقد كانت اعظم شخصية بين آل بويه هو « عضد الدولة » الذي ورث املاك الاسرة الواسعة في العراق وايران ، وقد تزوج بابنة الخليفة العباسي الطائع لله ، كما تزوج الخليفة بابنته • ولم تصل الينا من هذا العصر آثار انما تشير كتب التاريخ الى «البيمارستان» العضدي ، والمرصد ، والاكاديمية العلمية التي كان ملحقا بها مكتبة عظيمة قرأ فيها الشاعر العربي الشهير ابو العلاء المعري عندما كان يطلب العلم في بغداد • ومن الشخصيات الاسلامية التي برزت في هذا العصر : الفارابي ، وابن سينا ، والخوارزمي وأخوان الصفا •

وبنو بويه على المذهب الشيعي ، وقد عرفنا من قبل المقصود بهذا المذهب[1]، ونحب هنا ان نضيف شيئاً يتصل بالفن الاسلامي فان بعض المستشرقين يحاولون ان يفرقوا بين الشيعة وأهل السنة من حيث موقف كل منهما من التصوير الاسلامي[2] ، فأهل السنة يحرمونه والشيعة يجيزونه ، وهذا خطأ بيّن ينبغي التنبيه عليه لأن كلا من هذين المذهبين ينظر الى مسألة التصوير نظرة واحدة ، والخلاف الجوهري بينهما انما يدور حول شخص الخليفة وما يتصل بهذا المنصب •

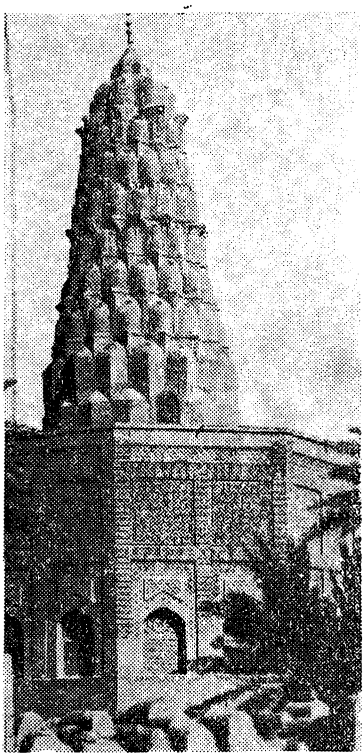
واذا كان لم يصل الينا شيء من آثار البويهيين فقد وصل الينا من عصر السلاجقة او كما يقول المؤرخون من العصر التركي الثاني ، آثار كثيرة نشير اليها فيما يلي • انما ينبغي علينا قبل ان نمضي في استعراض هذه الآثار ان نذكر

---

(١) انظر هامش ص ٣٤ الفقرة الثانية •

(٢) Arnold, Painting in Islam, p. 11, 15 Oxford, 1928.

أولا أن الخليفة العباسي قد خلع على زعيم السلاجقة « طغرل بك » لقبا جديدا ظهر لاول مرة هو لقب « السلطان » وقد شاع التلقيب به منذ ذلك الوقت للدلالة على من بيده السلطة الحقيقية • وثانيا ان السلاجقة العظام قد وحّدوا الشرق الاسلامي تحت حكمهم ، وشملت مملكتهم خراسان ، والعراق ، وشمال الشام، وآسيا الصغرى وبلاد العرب ، وظلت مجتمعة الكلمة حتى مات السلطان سنجر في سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) وهو آخر سلاطينهم العظام ، وتولى بعده سلاطين ضعاف انقسمت في عهدهم الدولة الى فروع عدة ، كل فرع منها مستقل عن الآخر ، وقد قابلنا نحن في رحلتنا بعض هذه الفروع مثل فرع الشام الذي قابلناه في شمال تلك البلاد ورأينا آثاره في مدينة حلب ، ومثل فرع آسيا الصغرى او سلاجقة الروم ، وقد اشرنا الى آثاره في مدينة «قونية» ، وفرع سوف نقابله في ايران بعد قليل • اما فرع العراق فقد خلف لنا آثارا عدة منها ما هو في بغداد ومنها ما هو في الموصل •

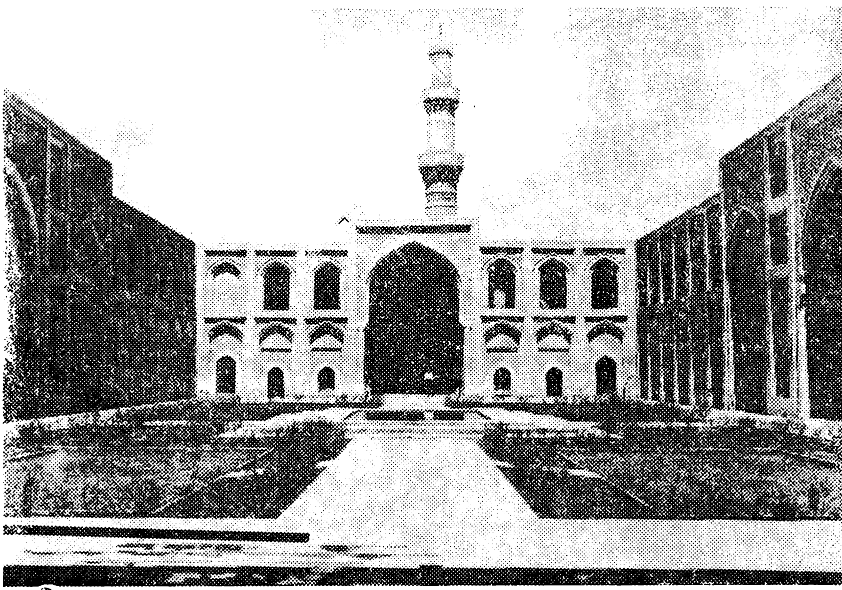


شكل (٣٤)

ومن آثار بغداد القائمة نذكر تربة السيدة زمردة خاتون زوجة الخليفة المستضيء بالله ، وهي قائمة في الكرخ (شكل ٣٤) ، وقد شيدت في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله ابن هذه السيدة ، وتعرف هذه التربة عند العامة في بغداد بتربة الست زبيدة (زوجة الرشيد) ، وهذا خطأ فقد دفنت السيدة زبيدة في مقابر قريش او الكاظمية الحالية •

وعلى الضفة الشرقية لدجلة تقوم المدرسة المستنصرية التي تستمد أسمها من الخليفة العباسي المستنصر بالله (شكل ٣٥) ، وقد شرع في بنائها سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧ م) وتمت سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م)

وكانت تدرس فيها المذاهب الفقهيــة الاربعـة ، وهي من طابقين : الطابـــق الارضي وكانت به غرف الدراسة والمكتبة ، والطابق العلوي ، وكانت به مساكن الطلاب ، وقد كانت بها ساعة كبيرة ، ذهب الزمن بها ، ولكن هناك ساعة شبيهة بها وجدت لها صورة في كتاب (الحيل الجامع بين العلم والعمل) لابن الرزاز الجزري ننشرها مع هذا الكلام (شكل ٣٦)(١) • والواقع ان هذه الساعة المعقدة انما تنطق بمدى تقدم اجدادنا في علم الميكانيكا او علم الحيل كما كان يسمى في ذلك الوقت •



شكل (٣٥)

وآخر ما نذكره من آثار العصر السلجوقي في بغداد بناء يقع خلف وزارة الدفاع يسمى « القصر العباسي » ، جعلت منه مديرية الآثار متحفا للفن الاسلامي • وسواء كان هذا البناء هو « دار المسناة » التي بناها الخليفة العباسي الناصر لدين الله

---

(١) للاستاذ ناجي جواد ، بحث طريف عن الساعات عبر التاريخ نشر بعنوان «قصة الوقت» بالعربية وبالانجليزية The Story of Time وقد كتب مقدمته الاستاذ الدكتور مصطفى جواد • والصورة المنشورة هنا منقولة عن هذا الكتاب •

سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) ثم اتخذها قصرا له[1] ، او كان المدرسة الشرابية التي انشأها « اقبال الشرابي » وافتتحت سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) فهو مثال رائع للعمارة العراقية الاسلامية يعطينا صورة جميلة للزخرفة الاسلامية في هذا العصر لاسيما تلك المعروفة بالمقرنص ، تنتزع الاعجاب من كل من يراها •

وضعف السلاجقة في العراق ، وضعفت بضعفهم الخلافة العباسية ، واغارت عليها قبائل المغول ، واخمدت انفاسها في بغداد •

وهؤلاء المغول أو التتار كانوا قبائل تنزل في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي ، وتمتد بلادهم في المنطقة الواقعة في اواسط آسيا ، جنوبي سيبيريا وشمال التبت ، وغربي منشوريا وشرقي التركستان •

وقد كانت حياتهم تقوم ـ أكثر ما تقوم ـ على الرعي ، فيتنقلون من مكان الى مكان سعيا وراء المراعي والاعشاب ، ويقضون ايامهم في سلسلة لا تنتهي من الحروب والغارات والمنازعات • وعندما كانت تقسو عليهم الطبيعة في ارضهم كانوا يغيرون على جيرانهم : على بلاد الصين ، وبلاد ايران وغيرهما من البلاد الغنية المحيطة بهم ، ولقد وجدوا في هذه الغارات متنفسا لنزعتهم الحربية ، وموردا لرزقهم عندما كانت تضيق عليهم سبل العيش •

ولقد ظهرت فيهم شخصية فرضت شهرتها على التاريخ هي شخصية «جنكيزخان» الذي استطاع ان يجمع شتاتهم ، ويلزمهم الطاعة له ، والخضوع لأمره • ولقد هزّ هذا الزعيم بفتوحاته اركان الارض فيما بين الصين شرقاً وبحر الادرياتيك غربا خلال القرن الثالث عشر بعد الميلاد •

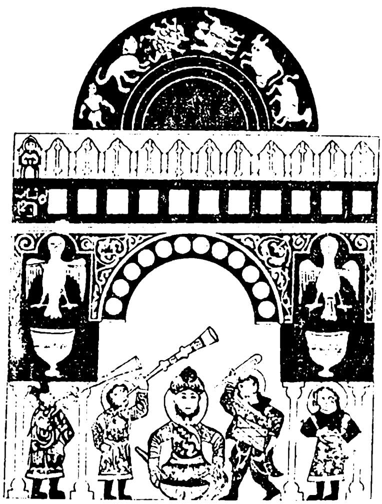
وفي عهد حفيده « هولاكو » اتجه المغول الى القضاء على الخلافة العباسية في بغداد بعد أن دانت لهم ايران • ولم يجد المغول مقاومة كبيرة عندما قدموا الى العراق ، فسرعان ما وقعت في ايديهم بغداد ، وسلم الخليفة نفسه وعاصمته اليهم بلا قيد ولا شرط ، فقتلوا الخليفة ، واستباح جنوده العاصمة واتوا على كل

---

(١) يرى الدكتور مصطفى جواد (في بحثه المنشور في دليل تاريخي على مواطن الآثار بالعراق ص ٦ـ٧) ان هذا الاثر هو دار المسناة بينما يرى الاستاذ ناجي معروف في كتابه « المدرسة الشرابية او القصر العباسي في قلعة بغداد » انه المدرسة الشرابية ، وترجيح أحد الرأيين يفتقر الى بحث خاص •

ما كان فيها ، ومن كان فيها : قتلوا ، ونهبوا ، وحرقوا ، وهدموا ، ولم تبق في هذه العاصمة الجميلة الا أطلال وخرائب •

ولقد كان سقوط الخلافة في بغداد أبعد ما يكون عن خاطر المسلمين جميعا في شتى انحاء الارض ، لذلك أصابهم الذهول في أول الامر ، ثم سرعان ما انقلب هذا الذهول الى حزن عميق ، يعتلج في كل نفس ، ويأس قاتل يتردد في كل قلب •



شكل (٣٦)

ولكن الخلافة العباسية سقطت ، ولم تمت ، فقد كان حرص المسلمين على احيائها عظيما ، ولم يكن بين امرائهم وملوكهم ـ عند سقوطها ـ من يستطيع ان يقوم بهذا العبء الا مصر ، فقد كانت حينئذ أقوى الدول الاسلامية جميعا ، واعظمها شأنا ، واعلاها ذكراً سيما بعد نجاح صلاح الدين الايوبي في صد تيار الصليبيين ، وفي الانتصار عليهم • لذلك نجد سلطان مصر «الظاهر بيبرس» قد أقدم على احياء الخلافة العباسية في مصر •

والواقع ان قضاء المغول على الخلافة العباسية لم يكن بالأمر الهين الذي يسكت عليه المسلمون طويلا ، او يسلمون فيه بالأمر الواقع ، فنفوسهم كانت متعلقة بأهداب الخلافة ، وكانوا يرون ان تنصيب الخليفة واجب اذا تركوه اثموا في حق الدين • ولعل أحساس الحكام بفقدان الخلافة كان أقوى من احساس المحكومين به ، ذلك لأن الحكام قد فقدوا بفقدها قوة ادبية عظيمة كانوا يستمدون منها العون الأدبي على تثبيت عروشهم • ومع ان الخليفة اصبح لا يملك من الأمر شيئاً ولكنه مع ذلك كان هو الذي يمنح السلاطين تفويضا يجعل حكمهم شرعيا في البلاد التي كانوا يتربعون على عروشها •

وظلت الخلافة العباسية قائمة في مصر حتى غزا البلاد الاتراك العثمانيون

على يدي السلطان سليم الأول ، وحصل هذا السلطان من الخليفة العباسي على اقرار بتنازله عن حقه في الخلافة الى العثمانيين ، وظلت الخلافة الاسلامية قائمة في اسطنبول حتى الغاها الزعيم التركي مصطفى كمال اتاتورك سنة **١٩٢٤** اي منذ واحد واربعين عاما تقريبا •

ومن العصر اللاحق لسقوط الخلافة العباسية في بغداد وصلت الينا بعض الآثار نذكر منها على سبيل المثال تلك المنارة المعروفة بين الناس في بغداد بأسم « منارة سوق الغزل » التي شيدها « اباقا بن هولاكو » بين سنتين **٦٦٣** و **٦٨٠** هـ (**١٢٦٤** و **١٢٨١**م) • وجامع مرجان الذي يرجع الى سنة **٧٥٨**هـ (**١٣٥٦**م) او بعبارة اخرى الى عصر الدولة الجلائرية • وخان مرجان الذي بني بعد ذلك بسنتين في سوق البزازين ، وقد أتخذت منه مديرية الآثار العراقية داراً لعرض الآثار العربية [١] •

وقبل ان نغادر العراق ينبغي ان نزور الموصل في الشمال ، وهي تعتبر أهم مدن العراق بعد بغداد لاسيما من حيث الآثار الاسلامية ، فهي غنية بهذه الآثار ، ولكن المجال هنا لايتسع للحديث عن كل آثارها ، ولمن يريد الوقوف على هذه الآثار فليرجع الى ابحاث ومؤلفات الاستاذ سعيد الديوه‌جي مدير متحف الموصل فهو واجد فيها ما يعطيه فكرة واضحة عن هذه الآثار[٢] ، اما نحن هنا فنكتفي بالاشارة الى أهم مساجد هذه المدينة ونعني به « الجامع النوري » القائم في وسط المدينة ، والذي أمر ببنائه نور الدين محمود بن زنكي ، واستغرق بناؤه سنتين من **٥٦٦** الى **٥٦٨**هـ (**١١٧٠-١١٧٢**م) • وقد رمم عدة مرات ودخلت عليه بعض التعديلات ، ولكن لاتزال أهم ما يسترعي النظر فيه اشياء ثلاثة : قبته ، وزخارفه ، ومنارته •

---

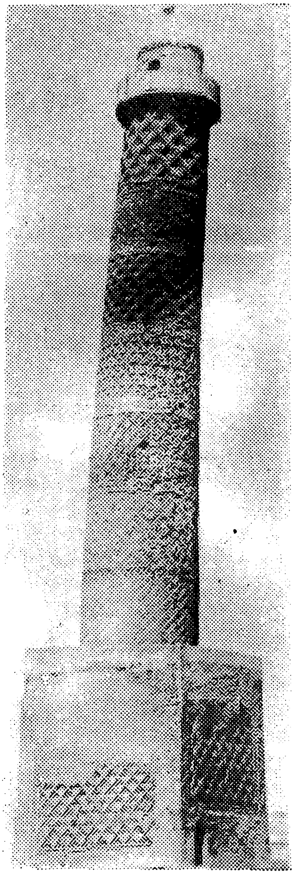
(١) مرجان الذي يقترن اسمه بهذه الاثرين هو احد مماليك السيدة والدة الشيخ حسن الكبير الجلائري مؤسس الدولة الجلائرية في بغداد •

(٢) للاستاذ سعيد الديوه‌جي ابحاث كثيرة عن آثار الموصل نشرت في مجلة سومر التي تصدرها مديرية الآثار بالعراق ، كما ان له كتبا قيمة في هذا الموضوع نخص بالذكر منها كتابه « جوامع الموصل في مختلف العصور » المطبوع في بغداد سنة ١٩٦٣ •

أما القبة فتمتاز بأنها في الحقيقة قبتين ، احداهما في داخل الاخرى وبينهما فراغ ، وهي تبدو من الخارج في شكل هرمي تقريبا •

وأما الزخارف فما نراه منها في متحف العصر العباسي ، يدل على تطور كبير في رسم « الارابسك » ونضوج في عمل الزخارف الهندسية •

وأما المئذنة (شكل ٣٧) فهي أعلى منائر العراق ، اذ يبلغ ارتفاعها نحوا من ٥٥ مترا ، وتتألف من قسمين رئيسين : قاعدة منشورية الشكل مبنية من الحجر ، وبدن اسطواني الشكل مبني بالآجر ، وتمتاز بوجود درجين في داخلها لا يلتقيان الا في اعلاها عند الحوض الذي يقف عليه المؤذن[١] • كما تمتاز كذلك بانحنائها انحناء واضحا نحو الشرق •



(شكل ٣٧)

---

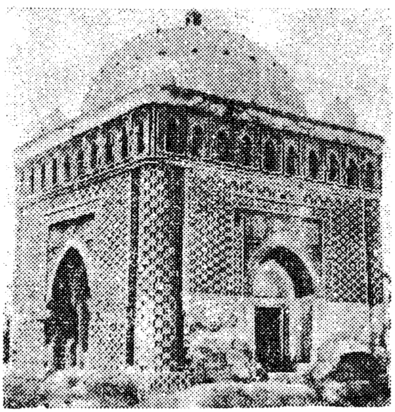
(١) يعلل أهل الموصل هذه الظاهرة بتعليل طريف اذ يقولون ان باني هذه المنارة قد حسده استاذه على عمله الجميل هذا واضمر له الشر ، ولما انتهى البنّاء من عمله استدعى استاذه هذا ليطلعه عليه ، وعندما صعدا معا داخل المنارة اغلق الاستاذ الباب وسار خلف تلميذه وهو يضمر ان يلقيه من أعلى المنارة ، ولكن البنّاء عندما وصل الى الحوض نزل من الدرج الثاني دون ان يعلم به استاذه ، وهكذا نجا من الموت واعترف له استاذه بالمهارة (ص ٤٣ من كتاب « جوامع الموصل في مختلف العصور » المذكور في الفقرة السابقة •

في ايـران

واذا تركنا العراق ، واتجهنا شرقا الى ايران ، وجدنا هناك امة سطرت في سجل الفن الاسلامي صفحات كثيرة تُعد من أروع الصفحات ، فهي بلاد عريقة في المدنية ، قضى الفتح العربي على دينها القديم ، واضعف لغتها القومية ، وعندما استعادت هذه اللغة قوتها لم تستطع ان تتخلص من الحروف العربية فظلت تكتب بها الى اليوم •

وقد سيطرت التقاليد الايرانية على العالم الاسلامي في العصر العباسي ، بل لقد اتخذت مدينة « مرو » ـ احدى المدن العظيمة في ايران ـ عاصمة للخلافة العباسية فترة من الزمن على عهد الخليفة المأمون •

وقد فتح العرب بلاد ايران في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، واسقطوا الدولة الساسانية ، وقضوا عليها نهائيا في موقعة نهاوند سنة **٢٢**هـ **(٦٤٢م)** •



شكل (٣٨)

وينقسم تاريخ ايران في العصر الاسلامي الى أربعة ادوار رئيسية : الدور الاول « عصر ما قبل السلاجقة » • والدور الثاني « العصر السلجوقي » • والدور الثالث « عصر المغول » • والدور الرابع والاخير « العصر الصفوي » •

والعصر الاول يشمل قسمين رئيسين هما : عصر الولاة من قبل الراشدين، والأمويين ، والعباسيين • ثم عصر الدويلات ومن أهمها دويلة السامانيين ودويلة البويهيين • وقد وصل الينا من هذا الدور أثران هامان هما : المسجد الجامع بمدينة نايين ، ومشهد أسماعيل الساماني في مدينة بخاري • والاثر الاول يمتاز بأن

زخارفه تتمثل فيها طرز سامراء باروع صورة[1] • والأثر الثاني (شكل ٣٨) يعد أقدم مشهد في ايران ٢٩٥هـ (٩٠٧م) ، وثاني المشاهد في العمارة الاسلامية عامة (أما اول هذه المشاهد فهو قبة الصليبية التي أشرنا اليها ونحن في العراق)[2] • وللمشهد الايراني أهمية كبيرة من حيث التصميم ، ذلك أنه يتكون من قبة كبيرة في الوسط، وقباب صغيرة في الزوايا الأربع • وقد كان هذا الطراز مبعث الوحي للفنانين المسلمين في الهند ، فصممت معظم العمائر الاسلامية الهندية على نمطه • كما يتجلى ايضا في هذا المشهد الايراني طريقة خلق الزخارف من الاوضاع المختلفة لقوالب الآجر عندما تستخدم في البناء ، وقد ذاعت هذه الطريقة في العصر السلجوقي وظهرت في معظم البلاد التي دخلت تحت حكم السلاجقة •

والدور الثاني او العصر السلجوقي شهد نهضة فنية عظيمة في ايران تتجلى لنا فيما وصل الينا من مساجد ، ومشاهد ، او أضرحة نذكر منها على سبيل المثال لمسجد الجامع في مدينة أصفهان ، وضريح جنيدي قابوس في جرجان [3] ، ومشهد الأمام الغزالي في طوس ، وضريح السلطان سنجر في مرو ، وضريح مؤمنة خاتون في نخجوان •

والدور الثالث او عصر المغول لم يكن عصر فوضى او تأخر كما تصوره في اذهاننا كلمة « المغول » فهؤلاء الناس على الرغم مما اشتهروا به من قسوة ووحشية في التاريخ الا انه قد وجد فيهم من احب الفن ورعاه مثل تيمورلنك الذي جعل من سمرقند ، عاصمة ملكه ، مدينة عظيمة ، تلألأ جوانبها بالابنية الرائعة • وقد احيا من جديد تلك السنة القديمة التي كان يسير على نهجها خلفاء المسلمين في العصور الاولى وهي تجنيد الصناع من كافة انحاء الامبراطورية الاسلامية للمساهمة في تجميل العاصمة ، او بعبارة أخرى سنة « الليتورجيا » التي بفضلها رصعت

---

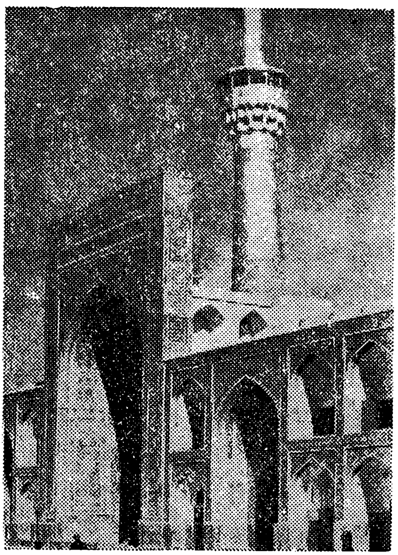
(١) راجع عن هذا المسجد وزخارفه كتاب الفنون الايرانية في العصر الاسلامي للمرحوم الدكتور زكي محمد حسن ، ص ١٨ والاشكال ١ ، ٢ ، ٣ ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ •

(٢) ص ٧٦ من هذا الكتاب •

(٣) انظر شكل ٤ ، ٥ ، ٧ ، ١٣ من كتاب الفنون الايرانية سالف الذكر •

جوانب ايران على عهد تيمورلنك بالكثير من الابنية الجميلة •

ومن اجمل آثار هذا الدور المسجد الجامع بفيرامين[1] ، ومشهد الامـــام الرضا ، رضي الله عنه في مدينة مشهد (شكل ٣٩) ، والمسجد الجامع في مدينة سمرقند ذو المآذن الاربعة القائمة في أركانه ، والمسجد الازرق في مدينة تبريز الذي تدل اطلاله الباقية على ما كان له من روعة ، وقبور الائمة في مدينة « قم » التي تشبه العتبات المقدسة في العراق ، ثم « مدينة الموتى » بجوار سمرقند التي تُعد من أروع مدن الموتى في العالم ، ويستلفت النظر فيها قبر تيمورلنك بقبته الرائعـة (شكل ٤٠) •



شكل (٣٩)

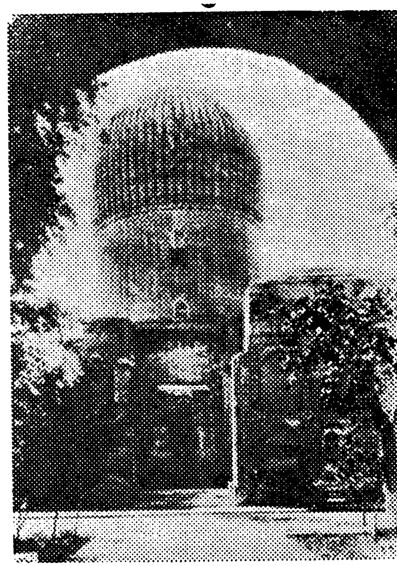
والدور الرابع والاخير هو العصر الصفوي الذي أستمد اسمه من أحد أولياء الله في مدينة اردبيل وأسمه « صفي الدين » • أما مؤسس الدولة الصفوية فهو الشاه أسماعيل الصفوي حفيد هذا الولي • وقد جعل المذهب الشيعي مذهباً رسميا لبلاده كما ذكرنا من قبل[2] ، واتخذ مدينة تبريز عاصمة له ، وازدهرت

---

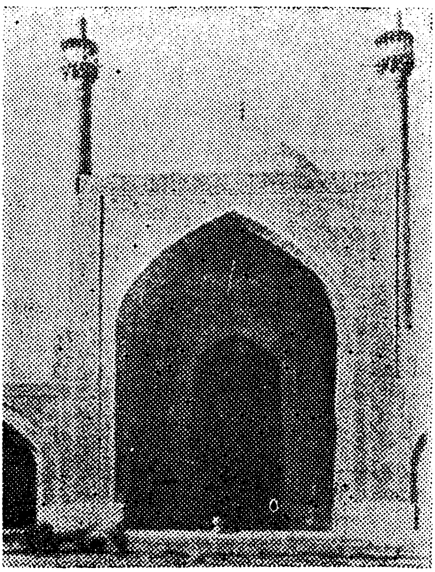
(١) انظر صور هذا المسجد في كتاب :
Pope, A Survey of Persian Art, pls; 405-411.

(٢) ص ٣٤ هامش رقم (٢) من هذا الكتاب •

بعده في هذا العصر ، مدينتا «قزوين» ثم «أصفهان» التي صارت في عهد الشاه عباس الأكبر من أعظم مدن الشرق كله ، وتركزت فيها جميع نواحي النشاط الفني في البلاد • وقد أتصل الشاه عباس بالدول الاوربية لكي يحفظ التوازن بينه وبين الأتراك العثمانيين الذين أخذ نجمهم في الصعود في هذا الوقت ، واصبحوا ألد خصوم ايران ، ويعلل هذا العداء بين الدولتين بالاختلاف في المذهب الديني ، فالاتراك سنة والايرانيون شيعة ، كما يعلل ايضا برغبة الاتراك في توسيع مملكتهم على حساب الفرس •



(شكل ٤٠)



(شكل ٤١)

وينبغي ان نذكر هنا ان الفن الاسلامي قد أخذ يدخل في دور الضعف والاحتضار منذ توثقت العلاقات بين أيران وأوربا ، ذلك لان التحف المختلفة للفن الاسلامي اصبحت تصنع بكميات كبيرة دون العناية بالاخراج او اتقان الصناعة وذلك لكي تلبي رغبات الاوربيين الذين أقبلوا على شرائها في نهم عظيم ، ولم يكن هؤلاء الاوربيون يفرقون كثيرا بين ما هو متقن الصنعة ، وبين ما هو رديء • واقبالهم على شراء هذه التحف الرخيصة كان من أثره ان هبط مستوى

الفن الاسلامي وتسربت اليه كثير من العناصر الأوربية بل ومن الروح الأوربية مما افقده روعته القديمة •

ومن أجمل الآثار الاسلامية التي وصلت الينا من العصر الصفوي مسجد الشيخ صفي الدين في اردبيل الذي لبس حلة جديدة من الجمال الفني في هذا العصر ، وقد أصبحت له واجهة اشبه ما تكون بواجهات القصور ، والحق به بناء تغطيه قبة عظيمة ، وتكسو جدرانه الواح من الخشب بها طاقات مختلفة الاشكال أعدت لكي توضع بها الهدايا والنذور التي يقدمها الزوار ، ومعظمها من الخزف الثمين ، ومن هنا عرف هذا البناء بأسم « صيني خانه » او « البيت الصيني » • وتتجلى في مسجد الشاه (شكل ٤١) الذي يرجع الى هذا العصر ايضا المهارة المعمارية والفخامة ، كما تتجلى كذلك في قصر « جيهل ستون » او قصر «الاربعين عامودا»[١] ، وفي جوسق المرايا «اينة خانه» • وأستعمال المرايا في الزخرفة من ابرز خصائص هذا العصر •

في الهنـد

وقصة الحضارة الاسلامية في الهند تقع في ثلاثة فصول رئيسية قامت بتمثيل كل فصل منها فرقة معينة • فالفصل الاول مثلته فرقة عربية ، والفصل الثاني مثلته فرقة تركية ، والفصل الثالث والأخير مثلته فرقة مغولية •

اما الفرقة العربية فقد ظهرت على مسرح بلاد الهند أيام الخلافة الاموية الاولى ، أو بعبارة أخرى في سنة ٩١هـ (٧٠٩م) ، وكان على رأسها محمد بن القاسم الذي نزل بجيشه امام مدينة الديبل (كاراتشي الحالية) ، ثم سيّر جيشه بحذاء نهر السند حتى أشرف على وادي البنجاب • وفي الحق لقد خلّد محمد ابن القاسم لنفسه فخر السبق في فتح هذا الميدان الجديد امام المسلمين ، ولكنه لم يلبث طويلا على خشبة المسرح ، وكأنما اراد فقط بهذا الظهور ان يلفت الانظار في الهند الى تلك الامة الفتية التي قامت الى الغرب من بلادهم ، ويسترعي الانتباه الى ذلك الدين الجديد الذي اشرق أول ما اشرق في الجزيرة العربية ، ثم انتشر نوره من تلك الجزيرة الى ارجاء الارض •

---

(١) انظر صورة هذا القصر في كتاب الفنون الايرانية للمرحوم الدكتور زكي محمد حسن (الشكل ٢٠) •

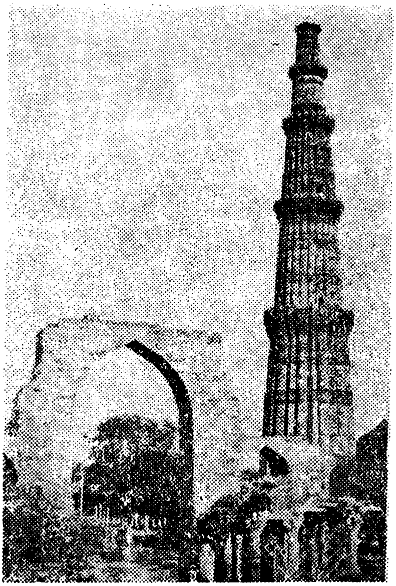
واما الفرقة التركية فقد كان أفرادها من الغزنويين • والغزنويون وان كانوا ينسبون الى مدينة غزنة الا انهم في الأصل فريق من الأتراك كان زعيمهم « البتكين » واليا على مقاطعة خراسان من قبل السامانيين الذين عرفناهم في ايران[١] • وأحس البتكين هذا ذات يوم بروح الغدر من سادته ، فهرب الى مدينة غزنه ، وأقام نفسه حاكما عليها ، وأتخذها هو ورجاله موطنا لهم ، ومن هنا عرفوا بالغزنويين ، وقد أستطاع ان يمد نفوذه على بعض نواحي الهند • ولكن الذي بدأ سلسلة الفتوح الاسلامية العظيمة في بلاد الهند هو « سبكتكين » وأبنه « محمود الغزنوي » ، اعظم شخصية بين الغزنويين ، ومن أكبر شخصيات التاريخ الاسلامي عامة • وقد كان تحت سلطانه « خراسان وغزنة » ، وأرسل اليه الخليفة العباسي «القادر» من بغداد بالخلعة والتقليد ، وأنعم عليه بلقب «يمين الدولة وأمين الملة » تقديرا لخدماته للاسلام ، وأغلب الظن ان هذا اللقب الذي أنعم به عليه كان له أثر بعيد في زيادة اشتعال نار حماسته الدينية ، فوقف همته على الجهاد في سبيل الله ، ونشر الاسلام في بلاد الهند ، والقضاء على الوثنية فيها ، وبالفعل نراه يخرج الى هذه البلاد في عشر غزوات بين سنتي **٣٩١هـ (١٠٠٠م)** و **٤١٦هـ (١٠٢٥م)** • وفي الغزوة الأخيرة « لم يزل يفتح في بلاد الهند حتى أنتهى الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية » كما يقول ابن خلكان في تاريخه • وقد كان نصره عظيما ، اذ استطاع ان يقتحم معبد صنمهم المشهور « سومنات » وان يحطم هذا الصنم[٢] ، ويحمل معه قطعة منه جعلها في عتبة مسجده في غزنة •

---

(١) انظر ص ٨٦ من هذا الكتاب •

(٢) لهذا الصنم قصة طريفة رواها ابن خلكان في تاريخه اذ يقول : انه كان لهذا الصنم شأن عظيم عند الهنود ، فيعتقدون انه يحيي ويميت ، ويشفي المرضى • ويعلق ابن خلكان على ذلك بقوله انه ربما شفى المريض بالفعل بعد زيارته لهذا الصنم ، وعندئذ يزداد ايمان الناس بهذا المعبود ، وحقيقة الامر ان الشفاء ربما أتى من استنشاق المريض للهواء الطيب ، واضطراره الى الحركة اثناء الزيارة ، واذا تصادف عدم الشفاء ، لام المريض نفسه ، واتهمها بكثرة ذنوبها وعدم اخلاصها عند زيارة المعبود فهو لا يستحق العناية والرعاية من =

وعلى الرغم من هذه الغزوات الكثيرة التي قام بها «محمود الغزنوي» في الهند فانه لم يستطع ان يقيم في تلك البلاد حكومة أسلامية قوية ثابتة ، وقد كان يكتفي باقرار الامراء الهنود على بلادهم ، ويقنع منهم بالولاء له ، وبما يحملونه من أمـوال .



شكل (٤٢)

وينبغي ان نذكر هنا ان الشاعر الفارسي العظيم « الفردوسي » قد قدم منظومته المعروفة « الشاهنامة » الى هذا السلطان العظيم الذي كافأه عليها بستين الف مثقال من الفضة بعدد ابياتها . وقد يبدو غريبا ان يعني حكم تركي بشاعر فارسي في ذلك العصر الذي كان التعصب فيه للمذهب الديني قويا ، ولكن الواقع ان الغزنويين على الرغم من انهم من الاتراك ، ويدينون بالمذهب السني ، وقيامهم يعتبر انتصار للعنصر التركي ، الا انهم تحضروا بالحضارة الايرانية التي كانت مزدهرة في ذلك الوقت ، وعنوا عناية واضحة بالادب ، والفن ، وباقي نواحي الحضـارة الايرانية .

ومات هذا الرجل العظيم في سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) وهو في الحادية والستين من عمره ، ودفن في قبر عظيم في مدينة غزنة بني على طراز القبور السلجوقيـة ذات الاضلاع المتعددة .

= المعبود . ويصف ابن خلكان الاوقاف المحبوسة في هذا الصنم قائلا أنها كانت عشرة الاف قرية في تلك البقاع ، وان خزائن معبده كانت مملوءة بالاموال ، وانه كان في خدمته من البراهمة الف رجل ، و ٣٠٠ رجل يحلقون رءوس الحجـاج ولحاهم عند الحج اليه ، و٣٠٠ رجل ، و ٥٠٠ امرأة يغنون ويرقصون عند بابه . (جزء ٢ ص ٥١٤ من طبعة الوطن بالقاهرة) .

وقد ترك لنا خلفاؤه في الهند آثارا لا تزال باقية نذكر منها مسجد قوة الاسلام في دلهي الذي بناه «قطب الدين ايبك» تخليدا لذكرى استيلائه على تلك المدينة سنة **٥٨٩هـ (١١٩٣م)** وهو من اعظم المساجد، وقد نسج في تشييده على المنوال الذي نسج عليه الخلفاء والأمراء المسلمون من قبل، فجمع له العمد من المعابد الهندية القديمة، وزينه بايات من القرآن الكريم، وجعل له مئذنة تعتبر من أروع المآذن القائمة وهي تعرف اليوم بأسم «منارة قطب» (شكل **٤٢**) .

واما الفرقة المغولية التي مثلت الفصل الثالث من قصة الحضارة الاسلامية في الهند فتبدأ عملها بغزو تيمورلنك، وافتتاحه فيها عصراً جديداً، وأهم شخصية فيه هو الملك « أكبر » الذي دام عهده نحوا من خمسين سنة كانت من أزهى عصور الأسلام في تلك البلاد . ويلاحظ انه في عهد هذا الحاكم العظيم قد تضاءل النفوذ الفارسي الذي كان قويا في عهد سلفه، وقامت نهضة وطنية في الفن لقيت كل تشجيع من الملك « أكبر » وقد أتت ثمارها في عصر من جاء بعده في الهند من حكام .

وقد وصلت الينا من هذا العصر عمائر كثيرة من أنواع مختلفة : من مساجد، وقصور، وقلاع، ومدافن . اما المساجد فنذكر منها المسجد الكبير في بيجابور الذي يستلفت النظر فيه قبته الكبيرة والقباب الصغيرة التي حولها، وهي تذكرنا بمشهد اسماعيل الساماني في بخارى الذي أشرنا اليه من قبل [(١)] . ومن المساجد الهامة ايضا المسجد الكبير في مدينة « اجرا » الذي بدأه « أكبر » وأتمه بعده « جيهان جير » . والمسجد الكبير في مدينة دلهي الذي بني في عهد « شاه جيهان » .

وأما القصور فمن أهمها ما شيده « أكبر » في « فاتحبور سكري » ونذكر منها على سبيل المثال « الديوان الخاص » ويتوسطه عامود يحمل السقف على ركائز من المقرنصات غاية في الروعة والجمال .

وأما القلاع فأهمها قلعة « اجرا » التي شيدها « أكبر » من الحجر الرملي الاحمر سنة **٩٧٤هـ (١٥٦٦م)** وقد اتخذها مسكنا له، ومن اروع ما نشاهده

---

(١) انظر ص ٨٦ و ٨٧ وشكل ٣٨ من هذا الكتاب .

فيها « باب دلهي » (١) •

وأما المدافن أو الاضرحة فمن أهمها مدفن الملك « أكبر » المشيد في حدائق سيكندرة ، بالقرب من اجرا • وضريح « تاج محل » في مدينة اجرا نفسها • وهذا الضريح الاخير يعد أجمل العمائر الاسلامية جميعا في القرن الحادي عشر بعدالهجرة ١٧م(شكل٤٣)، ولذلك سنقف عنده قليلا نتأمل في روعة قصته، وبهاء طلعته، وجمال تكوينه ، ودقة تصميمه • وقد أمر بتشييده الملك « شاه‌جهان » ابن الملك « أكبر » سالف الذكر ، وذلك لكي يضم رفات زوجته ورفاته هو بعد مماته • ولانشائه قصة لحمتها الاخلاص ، وسداها الوفاء ، اذ تزوج الشاه جهان بالاميرة « ممتاز محل » التي تغير اسمها فاصبح « تاج محل » • وقد رزقت منه بأربعة عشر ولدا ثم توفيت على أثر ولادة آخر اولادهما ، فحزن عليها حزنا عميقاً ، وواصل البكاء عليها ليلا ونهارا ، ثم عقد العزم على أن يخلد هذا الحب ، فأختار في مدينة « اجرا » بقعة شيد عليها هذا البناء الفخم ، ونقل رفات زوجته اليه • وقد استغرق البناء اثنتين وعشرين سنة ، وكان يعمل فيه عشرون الف عامل ، وشيده بالمرمر الابيض وجعله يتكون من قبة عالية تحتها قبران : واحد للزوجة وواحد للزوج • ويحيط بالقبرين حاجز من المرمر الابيض نقشت فيه الزخارف نقشا رائعا بطريقة التخريم الدقيق حتى ليبدو وكأنه قطع من المدبج (الدنتلا) • وللضريح مآذن ضاربة في الفضاء ، ونوافذ قد سدت بمصبعات رائعة ، وله مداخل اربعة ، كل مدخل منها يغطيه قبو جميل • والعقود ، والنقوش مرصعة بالاحجار الكريمة • وللضريح ساحتان مكشوفتان في كل منهما حديقة غناء ، ويتصل به مسجد صغير لطيف الشكل •

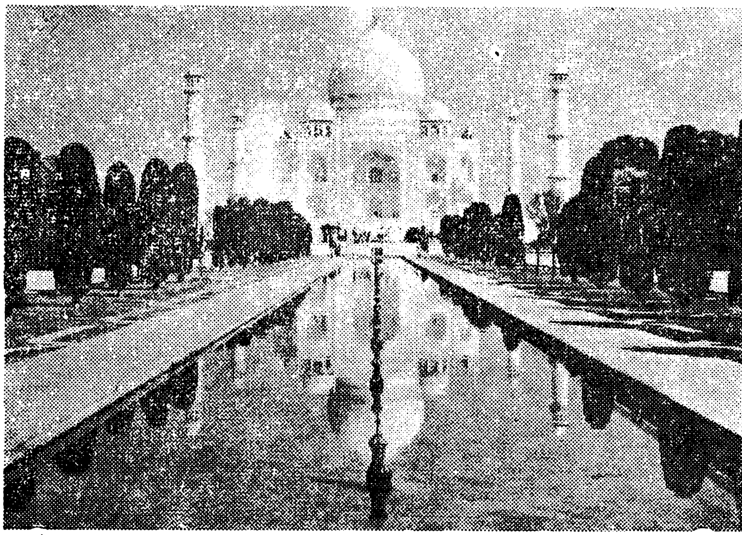
ويتجلى في هذا البناء سمو الذوق ، واتزان الابعاد ، والتناسب بين الاجزاء ، والتناسق في الزخارف والالوان ، فهو بحق أجمل عمائر الهند في عصرها الاسلامي ، ومن أروع الآثار الاسلامية في الشرق وفي الغرب (٢) •

---

(١) من احسن الكتب التي تحدثت عن العمارة الاسلامية في الهند كتاب :
Brown, Indian Architecture, The Islamic Period, Bombay, 1942.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٩٥-١١٩ •

وينبغي ان نذكر ، ونحن نغادر الهند ، ان البلاد قد انقسمت في سنة ١٩٤٧م الى دولتين : دولة الهند ، ودولة الباكستان ، وهذه الاخيرة يقع جزؤها الغربي في اقليم السند وما يحيط به ، وهي البقاع التي اشرق فيها الاسلام اول ما اشرق في بلاد الهند ، ومن هناك انتشر في انحاء البلاد .



(شكل ٤٣)

في بلاد الصين

وبلاد الصين هي آخر الاقطار التي نزورها في رحلتنا هذه . ولن نجد فيها من الآثار الاسلامية ما وجدناه في الاقطار السابقة من حيث الكم او الكيف ، ولكننا سوف نرى فيها طرازا جديدا من المساجد لم يصادفنا من قبل .

ولعله من المفيد اولا ان نعرف كيف وصل الاسلام الى هذه البلاد ، فالعرب لم يفتحوا بلاد الصين كما فتحوا بلاد الهند ، وبلاد فارس ، والعراق ، والشام ، وآسيا الصغرى ، ومصر ، وبلاد المغرب ، والاندلس . ولكنهم اتصلوا بالصينيين عن طريق التجارة سواء قبل الاسلام او بعده ، كما اتصلوا بهم ايضا في مناسبات سياسية ، وظروف أخرى غير ظروف التجارة .

وابرز الأوقات التي تم فيها هذا الاتصال هو ما وقع في عهد الراشدين ، وما وقع في عهد الخلافة الأموية الاولى ، ثم ما وقع في عصر الخلافة العباسية في بغـداد •

اما الاتصال الاول الذي تم في عصر الراشدين فقد كان ايام الخليفة الثالث عثمان بن عفان عندما أوفد أمبراطور الصين أحد سفرائه الى هذا الخليفة متشفعاً في « فيروز بن يزدجرد » آخر ملوك الفرس من بني ساسان الذي قضى العرب على ملكه ، وارغموه على النزول عن عرشه ، والخروج من ايران • وقد اعتـذر الخليفة عن قبول هذه الشفاعة ، ورد رسول الصين رداً كريما ، واعاده الى بلاده مصحوبا بأحد قواد العرب ، وقد أكرم امبراطور الصين وفادة هذا الرسول العربي •

واما الاتصال الثاني الذي تم في عهد الخلافة الأموية الاولى ، فقد كان أيام «الوليد بن عبدالملك» عندما قام القائد العربي قتيبة بن مسلم ، والي خراسان ، بحملات حربية لتوسيع رقعة الامبراطورية الاسلامية فعبر نهر جيحون ، واستولى على سمرقند وبخارى وغيرهما ، ووصلت جيوشه الى حدود الصين ، وعندئـــذ ارسل وفدا الى أمير الصين يطلب اليه الدخول في طاعته ، وقد وصف لنا الطبري هذه الحادثة وصفا طريفا ملخصه أن وفد قتيبة أخبر أمير الصين أنه أقسم الا ينصرف عن بلاد الصين حتى يطأ أرضها ، ويختم ملوكها ، ويعطي الجزية • وقد أضطر أمير الصين الى تحقيق مطلب قتيبة فبعث اليه مع الوفد العربي بحرير وذهب ، وصحاف من ذهب فيها تراب الصين ، وأربع غلمان من ابناء ملوك الصين ، وجزية عظيمة • وقبل قتيبة الجزية ، وختم الغلمان ، ووطىء تراب الصين •[1]

وأما الاتصال الثالث الذي تم في عهد الخلافة العباسية ، فقد كان ايام الخليفة المنصور عندما أستنجد به أحد أباطرة الصين لكي يساعده على استرداد عرشه بعد أن اغتصبه منه أحد الثوار ، ولبى المنصور طلبه ، وأرسل اليه فرقـة من الجنود العرب أستطاع بواسطتها ان يسترد عرشه ، ويقال ان هؤلاء الجنـــود العرب لم يعودوا الى بلادهم بعد انتهاء مهمتهم بل طاب لهم العيش في الصـــين فأستقروا فيها ، وتزوجوا من ابنائها[2] •

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، جـ٨ ص ١٠٠ وما بعدها ـ المطبعة الحسينية بمصر •

(٢) Arnold, The Preaching of Islam, p. 295, 296.

وأخذ الرحالة العرب يزورون بلاد الصين ، ومن أقدم الرحلات ما سجله تاجر عربي اسمه « سليمان » زار بلاد الصين سنة ٢٣٧هـ (٨٥١م) ووصلت لنا رحلته في مخطوط نشره أحد المستشرقين الفرنسيين (١) •

وقد كان في هذا المخطوط « ذيل » لتلك الرحلة كتبه شخص اسمه « ابو زيد حسن » في سنة ٣٤٠هـ (٩١٦م) اشار فيه الى حادثة كررها المسعودي في كتابه مروج الذهب ملخصها ان عربيا يدعى « ابن وهب » زار بلاط ملك الصين ، ورأى عنده كتابا فيه صور الرسل ، ومن بين هذه الصور واحدة تمثل النبي محمد (صلوات الله عليه) راكبا جملا وحوله اصحابه (٢) •

وعندما ظهر المغول على مسرح التاريخ لم تسلم منهم بلاد الصين ـ حيث يطلق عليهم هناك أسم التتار ـ فقد غزاها سنة ٦٠٥هـ (١٢٠٨م) قبلاي خان ، ثم أمتدت فتوحات المغول الى العالم الاسلامي ، واستطاع هولاكو (وهو أخو قبلاي خان هذا) ان يقضي على ملوك خوارزم ، وان يستولي على أيران ، ثم يستولي على العراق ويسقط الخلافة العباسية ، ويستبيح بغداد كما ذكرنا من قبل (٣) • وهكذا اصبحت بلاد الصين ومعظم شرق العالم الاسلامي تحت حكم المغول ، وبحكم هذا الاتصال الوثيق ازداد تسرب الثقافة الصينية الى ايران وباقي العالم الاسلامي وذلك بفضل تنقل الفنانين والصناع الصينيين الذين كانوا يصحبون المغول في ملكهم الجديد •

ولا ننسى ايضا ان ارتباط الصين بالعالم الاسلامي على هذا النحو قد اتاح لكثيرين من المسلمين ان يهاجروا الى تلك البلاد وان يعيشوا فيها • ويحدثنا ابن بطوطه في رحلته ، انه كان « في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين

---

(١) نشرت هذه الرحلة مع ذيلها على يد المستشرق Langlés ثم نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية وذلك سنة ١٨٤٥ • ولخصها المستشرق فران Ferrand في كتابه :

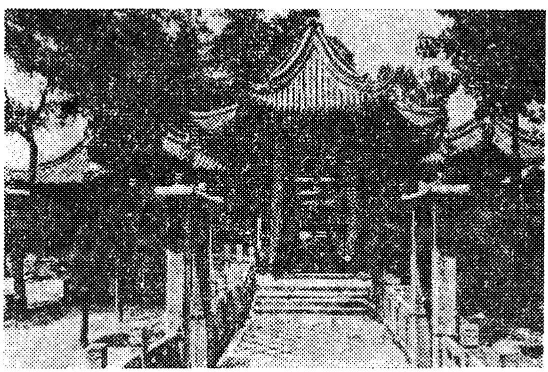
Relation de Voyages et Textes Geoqraphiques Arabes, Persans et Turks relatifs á l' extreme Orient de VIII au XVIII e siecles, traduits revues at annotes Par Gabriel Ferrand, Paris, 1913-1914.

(٢) ذكر المسعودي هذه الحادثة في الفصل الذي عقده عن ملوك الصين في كتابه مروج الذهب •

(٣) راجع ص ٨٢ من هذا الكتاب •

ينفردون بسكناهم فيها ، ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها ، وهم معظمون محترمون »[1] .

والمساجد في بلاد الصين مشيدة على طراز المعابد الصينية ، ولم تكن في الواقع تمتاز عن هذه المعابد في مظهرها الخارجي ، أما في الداخل فكل ما يوجد من فرق هو وجود الاصنام في المعابد الصينية ، ووجود المحراب والمنبر في المساجد ، وقد شذ عن هذه القاعدة مسجد مدينة خانفو (كنتون) اذ بنيت له مئذنة اسطوانية الشكل ، ساذجة ، عاطلة من كل زخرف . ويعتبر هذا المسجد من أقدم مساجد الصين ، ولكن هناك مسجد آخر هو مسجد « جانغآن » ينافس هذا المسجد في القدم ، ومن المؤرخين من يضعه قبل مسجد خانفو ، ومنهم من يضعه بعد هذا المسجد .[2]



شكل (٤٣)

وأهمية بلاد الصين بالنسبة للفن الاسلامي ، انما تظهر في مجال الفنون والصناعات لا في مجال العمارة ، ذلك ان العرب قد تعلموا منهم ـ كما يقول كاتب صيني وقع في أسر العرب ثم نجح في أن يهرب من الاسر ، وقد وضع كتابا تحدث فيه عن مدينة الكوفة ، وذكر أن صناعا من بني وطنه (أي من الصينيين)

---

(١) رحلة ابن بطوطة (الطبعة الاوربية) ص ٢٥٨ .

(٢) بدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين ص ١٦٩ـ١٧٧ والمراجع التي يشير اليها ـ طبعة مصر سنة ١٩٥٠ .

كانوا أسرى في هذه المدينة ، وأنهم علموا الصناع المسلمين نسج الاقمشة الحريرية الخفيفة ، وصناعة التحف الذهبية والفضية ، والنقش والتصوير .[1]

وقد أعترف العرب للصينيين بالمهارة في الصناعة ، ويكفي أن نذكر ما كتبه ابن الفقيه الهمداني من أن الله ، عز وجل ، قد خص أهل الصين باحكام الصناعة ، وانه منحهم في ذلك ما لم يمنحه أحداً غيرهم ، فكان لهم الحرير ، والغضائر الصيني ، والسروج الصيني ، وغير ذلك من المنتجات الدقيقة المحكمة[2]

والمسعودي يقول : « وأهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة ، وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الامم ، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر ان غيره يعجز عنه ، فيقصد باب الملك ، يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع ، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك الى سنة ، فان لم يخرج أحد فيه عيبا اجاز صانعه ، وأدخله في جملة صناعه ، وأن أخرج أحد عيباً اطرحه ولم يجزه ... وقصدهم بهذا وشبهه ، الرياضة لمن يعمل هذه الاشياء ، ليضطرهم ذلك الى شدة الاحتراز ، واعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده »[3] .

وابن بطوطه يشير في رحلته الى اتقان الصينيين لفن التصوير فيقول : « وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في احكامه من الروم ولا من سواهم ، فان لهم اقتداراً عظيما ، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك اني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها ، الا ورأيت صورتي ، وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان ، والكواغد ، موضوعة في الاسواق . ولقد دخلتُ الى مدينة السلطان ، فمررت على سوق النقاشين ، ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زي العراقيين ، فلما عدت من القصر مشيا ، مررتُ بالسوق المذكورة فرأيت صورتي ، وصور اصحابي في كاغد قد الصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه ، لاتخطي شيئاً من شبهه . وذكر لي ان السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم اتوا الى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون الينا ، ويصورون صورنا ، ونحن

---

(١) راجع زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٠ وذلك نقلا عن مقال نشر في مجلة Toung Pao في العدد السادس والعشرين سنة ١٩٢٩ بعنوان :
P. Pelliot, Des Artisans Chinois á la Capitale Abasside en 750-762.

(٢) راجع ابن الفقيه الهمذاني : كتاب البلدان ـ ص ٢٥١ .

(٣) راجع المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٨٩ .

لم نشعر بذلك . وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم ، وتنتهي حالهم في ذلك الى ان الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته الى البلاد ، ويحث عنه ، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ » [1] .

ولقد قلد الصناع المسلمون التحف الصينية لاسيما المصنوعات الخزفيـــة فقد عرف عن الصينيين أنهم اعرق الامم في هذه الصناعة ، ويكفي دليلا على ذلك ان هذه البلاد قد خلعت أسمها على المصنوعات الخزفية فأصبحت تعرف بأسم « الصيني » في اللغة العربية ، واسم (China) في اللغات الاوربية . وقد كشفت الحفائر الأثرية عن كميات كبيرة من شتى أنواع الخزف الصيني في أطلال المدن الاسلامية القديمة مثل الفسطاط وسامراء .

وتعلم العرب من الصينيين صناعة الورق ، والورق كما نعرف ، يلعب اليوم في حياتنا دوراً خطيراً ، وهو يعد من أبرز مميزات حضارتنا الحالية ، ويكفي لكي ندرك أهميته في حياتنا ان نتخيل انفسنا وقد أصبحنا ذات يوم فاذا الورق قـــد اختفى من حياتنا : فلا جرائد ، ولا مجلات ، ولا كتب ، ولا كراسات ، ولا عملة ، ولا خطابات ، ولا قوانين ، ولا منشورات ، ولا خرائط ، ولا اعلانات .. واذا كان للصينيين فضل أختراع الورق [2] فان للعرب فضل انتشاره ، واذاعة صناعته بين أرجاء الارض [3] ، فأوربا لم تكن تعرف هذه الصناعة حتى القــرن الثاني عشر بعد الميلاد ، ثم عرفتها بعد ذلك عن طريق الاندلس وصقلية ، حيث كان للعرب فضل تأسيس أول مصنع لهذه المادة هناك ، ومن هذين القطرين انتقلت صناعة الورق الى ايطاليا ، ومن أيطاليا انتشرت في أرجاء أوربا .

وتأثر المسلمون في فنهم بكثير من الاساليب الزخرفية الصينية ، ولعل من أبرز العناصر الصينية التي تسربت الى الفن الاسلامي رسم « التنين » الذي نراه على كثير من العمائر والتحف ، وقد ذكرنا في هذا الكتاب « باب الطلسم » أحد

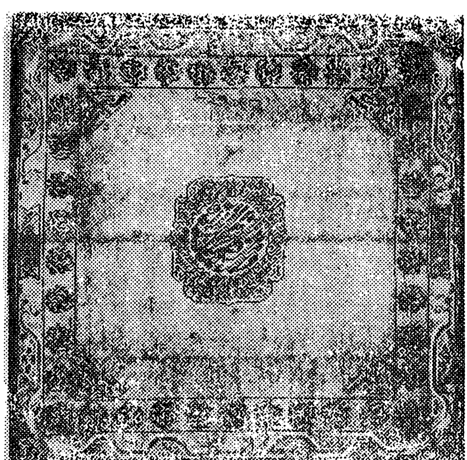
(١) راجع رحلة ابن بطوطه ـ الطبعة الاوربية ـ جـ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) يقال ان شخصا صينيا يدعى تساي‌لن (Tsai Lin) هو صاحب الفضل في اختراع الورق ، وذلك سنة ١٠٥م .

(٣) عرف العرب الورق عندما قام زياد بن صالح حاكم سمرقند بحملة ضد ملك فرغانه ، واسر عددا من الصينيين الذين كانوا في جيش ملك فرغانـه ، وكان بينهم من يحذق صناعة ، فاقاموا هذه الصناعة في سمرقند ومنها انتقلت الى باقي البلاد العربية .

أبواب بغداد الشرقية (ص٧٨)، واذا نحن تأملنا في صورته المنشورة هناك (شكل ٣٣) وجدنا أنه يزدان بنقش بارز يمثل رجلا جالسا وقابضا بيديه على لساني تنينين مجنحين •

ولم يسلم الخط العربي من أن يتأثر هو الآخر بالفن الصيني، فقد كتبه الفنانون الصينيون بطراز غريب يختلف عن طرزه التي اسلفنا الاشارة اليها ويتجلى لنا ذلك في مثال جميل هو طنفسة من نسيج بلاد التركستان معروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة (شكل ٤٤) تزدان في وسطها بجملة عربية مكتوبة بهذا الطراز نصها : « السلطان ظل الله » •



شكل (٤٤)

متاحف الفن الإسلامي

رأينا في رحلتنا التي قمنا بها من المحيط الى الخليج ، ما خلفه اجدادنا من المسلمين من الابنية وبقى علينا ان نشير الى التحف المختلفة التي كانت موجودة في هذه الابنية •

ولكنا قبل أن نتناول هذه التحف المختلفة ، أو بعبارة أخرى هذه التحف المنقولة كما يسميها عادة رجال الآثار ، ينبغي ان نعرف اين نستطيع أن نجدها ، فالعمائر التي زرناها في رحلتنا ، معظمها ان لم يكن كلها ، خالية اليوم من التحف ، ولكننا نستطيع ان نجد هذه التحف في أحد اماكن ثلاثة : نجدها عند تجار **الآثار** ، او نجدها عند هواة جمع التحف ، او نجدها في المتاحف •

اما تجار الآثار فهم أولئك الذين أتخذوا من التجارة في التحف القديمة مهنة لهم • وهذه التجارة حديثة العهد ، نشأت عندما اتجهت عناية الناس الى دراسة الماضي ، والاهتمام بكل ما وصل الينا من آثاره ، وقد استغل هؤلاء التجار هذا الاتجاه ، فجمعوا من الاسر القديمة ما عندهم من تحف ورثوها عن اجدادهم ، كما أخذوا يغرون خدام المساجد القديمة لكي يعطوهم ما لديهم من طنافس قديمة ، او مصابيح زجاجية ، او أواني نحاسية ، نظير دراهم معدودات ، بل وراحوا يحفرون خفية في المدن الاسلامية القديمة بغية استخراج قطع الخزف والزجاج والعاج والاخشاب والمنسوجات ، ثم أخذوا ينظفون هذه القطع مما علق بها من أوساخ ثم يعرضونها في حوانيتهم لبيعها او يحملونها الى الهواة والمتاحف ليشتريها منهم هؤلاء أو اولئك •

وقد أغرت الاثمان الباهظة التي كانت تدفع ثمنا لهذه القطع الاثرية فريق من التجار على أن يزيفوا بعض التحف الاثرية ، وقد كان التزييف في بعض الاحيان متقنا لدرجة قد يصعب معها تمييز المقلد من الاصيل . وقد اختصت ايران وباريس بتزييف التحف الاسلامية لاسيما المصنوعة من الخزف .

واما الهواة فهم فريق من الناس ، آتاهم الله بسطة في الرزق ، فأقبلوا على اقتناء التحف الاسلامية التي تصادف هوى في نفوسهم ، ولذلك نجد منهم من يعنى بجمع التحف الخزفية ، ومنهم من يعنى بجمع التحف المعدنية ، ومنهم من يعنى بجمع الطنافس وهكذا .

وهؤلاء الهواة موزعون في انحاء أوربا وامريكا ، والمؤلم ان عددهم في البلاد الاسلامية قليل ، والواقع ان هؤلاء الهواة ، او بعبارة اخرى اصحاب المجموعات الخاصة كما نسميهم عادة ، لهم فضل كبير في تيسير دراسة الفن الاسلامي ، وفي الحق ان هؤلاء الهواة هم من اولئك الذين يؤمنون بان الفنون التشكيلية الجميلة ليست على هامش الحياة ـ كما يخيل للكثيرين ـ وانما هي في صميمها ، اذ ان لها قيمة عظيمة ان غاب أدراكها عن اولئك الذين ينظرون اليها نظرة سطحية ، ويظنون انها عبث لا طائل تحته ، فانها واضحة أشد الوضوح لمن نفذ الى صميمها ، وأحس بمدى تأثيرها في الحياة . ويكفي أن نذكر انهم أدركوا ان العناية بها هي الفارق بين الانسان والحيوان ، وانها هي الميزة الواضحة التي تسمو بها حياتنا فوق حياة البهائم ، وان الذي لايعني بها انما يحرم نفسه من لذة روحية ليس الى أنكارها من سبيل .

واذا كانت العناية بالتحف الجميلة واجبا على كل انسان ، فأن اقتناء هـذه التحف أمر لا تتسع له ثروة كل فرد ، ولذلك عنى بها الاغنياء والحكومات . واذا جاز لنا ان نستعير من رجال الفقه الاسلامي بعض اصطلاحاتهم لقلنا ان العناية بالتحف الجميلة فرض عين واجب على كل فرد يرى نفسه انه انسان حقا ، واما جمع هذه التحف ، وبذل المال في سبيل اقتنائها ، ففرض كفاية يؤديه الاغنياء عن مجتمعهم ، وتؤديه الحكومات الراقية عن شعوبها بانشاء المتاحف لكي توفر لسواد الشعب أسباب الدراسة ، والمتعة ، والاستفادة .

والمتاحف الاثرية هي الاماكن التي يعرض فيها كل ما وصل الينا من العصور السابقة من تحف صنعت من المواد المختلفة بقصدر ابراز التاريخ بصورة نابضة بالحياة ، فشتان بين تلك الصورة الباهتة التي تصورها لنا كتب التاريخ عن ماضينا المجيد ، وبين الصورة الرائعة التي تجلوها لنا التحف ، سيما اذا خرجت هذه التحف عن صمتها ، وتحدثت الينا حديثها الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه عن المادة التي صنعت منها ، واليد التي صنعتها ، والفنان الذي رقشها وزخرفها ، والشخص الذي استعملها ، والموضع الذي استقرت فيه قبل أن ترى الشمس من جديد بين جدران المتاحف • والواقع ان المتاحف الأثرية هي خير المعاهد التي يلقن فيها الشعب تاريخه القومي او يزداد به علما • ذلك لان حياتنا في الواقع انما هي استمرار لحياة اسلافنا ، وان دراسة آثار هذا السلف الكريم من شأنها ان تحكم صلتنا بماضينا ، وتوثق روابطنا الثقافية به ، وتزيدنا ايمانا بعظمته • واجلال الماضي هو ـ من غير شك ـ أحسن وسيلة يستوحي بها الشعب ابطاله ، وعظمائه لا في ميادين الحرب والسياسة فحسب بل في ميادين العلم والفن والصناعة •

والامم السابقة ، ومن بينهم اجدادنا من العرب ، لم يعرفوا المتاحف الاثرية بصورتها الحديثة التي تعرف بها اليوم ، ولم يفكروا في انشائها ، لأن دراسة الآثار القديمة من ابنية وتحف لم تخطر على بالهم وبالتالي لم يهدفوا اليها ، فهذه الدراسة ثمرة من ثمرات المدنية الاوربية الحديثة •

ولعل المسلمين في العصور الوسطى كانوا أقرب من غيرهم الى فكرة انشاء المتاحف فحرصوا على اقتناء التحف القديمة ، ووضعوها في مكان معين ، ووضعوا عليها البطاقات التي تكشف عن تاريخها ، وجعلوا لكل نوع منها قاعة خاصة به ، ولكنهم لم يهدفوا من ذلك الى ما نهدف نحن اليه الآن من انشاء المتاحف الأثرية للشعب بقصد اذكاء روح القومية فيه ، ووصل الماضي بالحاضر ، فقد كانت تلك المتاحف القديمة خاصة للملوك والامراء ولا تباح للشعب ، وكان الهدف منها هو الافتخار والمباهاة • ولعل خير مثال يكشف لنا عن هذه الحقيقة هو متحف الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي كان يعيش في القاهرة في القرن الخامس الهجري (١١م) • فالمقريزي يحدثنا في خططه عنه فيقول انه كانت في

خزائن هذا الخليفة اقسام مختلفة عرضت فيها التحف المختلفة التي استطاع ان يحصل عليها ، ففي خزانة الكتب او بتعبيرنا الحديث في معرض « فن الكتاب » كانت لديه على سبيل المثال نسخة من كتاب الخليل بن أحمد بخط يد المؤلف ، ونسخة من تاريخ الطبري بخط يد المؤلف كذلك ، وكان هناك نماذج من خط « ابن مقلة » ، وخط « ابن البواب » وكلاهما كان من مشاهير الخطاطين في العصر العباسي • وكان في هذا المعرض ايضا امثلة من الاقلام التي كان يستعملها هذين الخطاطين •

وفي خزانة الطرائف كؤوس عليها أسم الخليفة العباسي هرون الرشيد • وبيت هذا الخليفة المصنوع من الخز (أي خيمته) الذي مات تحته بمدينة طوس • والحصيرة التي جليت عليها بوران بنت الحسن ابن سهل على الخليفة المأمون • وبيت أرمني أحمر ، منسوج بالذهب ، كان للخليفة المتوكل على الله •

وفي خزائن السلاح كان معلقا سيف الامام عليّ المسمى « ذو الفقار » ، وسيف الحسين بن علي بن ابي طالب • ودرقة حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه • وسيف الامام جعفر الصادق ، وسيف كافور الاخشيدي ، ودرع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله • وقد كانت فوق كل تحفة من هذه التحف الأثرية بطاقة تكشف عنها ، وتبين تاريخها[(١)] •

تُرى متى خطت المتاحف الاثرية خطوتها الاولى نحو رسالتها الحديثة التي نعرفها لها اليوم ؟ لقد كان ذلك في انجلترا ، وفي مدينة اكسفورد بالذات في القرن السابع عشر اذ أباحوا هناك للشعب التفرج على مجموعات التحف القديمة ، فكان لهم بذلك فضل السبق في انشاء المتاحف بمعناها الحديث • [(٢)]

وجاءت الخطوة الثانية في سبيل تحديد رسالة المتاحف في القرن الثامن عشر في عهد الثورة الفرنسية ، عندما هدمت الحواجز الفاصلة بين طبقات المجتمع

---

(١) راجع كتاب المقريزي : الواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ــ جزء اول ص٤٠٨ و٤٠٩ و٤١٤ و٤١٦ و٤١٧ (طبعة بولاق) • وكتاب «كنوز الفاطميين» للمرحوم الاستاذ الدكتور زكي محمد حسن ص ٢٧ و ٦٥ ، من مطبوعات المتحف الاسلامي بالقاهرة سنة ١٩٣٧ •

(٢) راجع كتاب :
Kenyon, Libraries and Museums, London, 1930, p. 54-65.

الفرنسي ، وأصبحت قصور الملوك والاشراف بما حوته من تحف أثرية ، جمعت منذ أستيقظ الاوربيون من سباتهم في تلك الفترة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بعصر النهضة الاوربية ، وأخذوا ينظرون الى التراث الفني لليونان والرومان نظرة اعجاب امتزجت فيها عوامل التقديس مع عوامل التقدير : التقديس التي اكتسبها هذا التراث بحكم القدم ، وعوامل التقدير لأنه من صنع أولئك الذين اتخذوهم لهم قادة في حياتهم الجديدة بعد نهضتهم ، يسيرون على هديهم ، وينسجون على منوالهم ـ أصبحت تلك القصور بما حوته من التحف الأثرية ملكا للشعب ، وأنقلب قصر اللوفر ـ بعد سقوط الملكية الفرنسية ـ الى متحف أثري عظيم [1] .

وبين جدران هذه المتاحف ولد علم الآثار ، ثم خرج هذا العلم من المتاحف ليدرس العمائر القديمة في أماكنها ، ثم اتسعت دائرته فاتجه رجاله الى التنقيب عن آثار الماضي في مظان وجودها ، ثم زادت اتساعا فظهر فيه التخصص اذ انصرف فريق من العلماء الى دراسة آثار ما قبل التاريخ ، وفريق الى دراسة آثار العصور القديمة ، وفريق الى دراسة آثار العصور الوسطى ، وفريق الى دراسة الآثار الاسلامية ، الثابت منها والمنقول ، كما عني هذا الفريق بالحفر سعيا وراء البحث عن تراث المسلمين . وخير شاهد على ذلك ما قام به هؤلاء العلماء من حفائر أثرية كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال : حفائر الاندلس التي كشفت عن مدينة الزهراء ، وحفائر المغرب التي كشفت عن آثار بني حماد ، وحفائر مصر التي كشفت عن الفسطاط ، وحفائر الشام التي كشفت عن القصور الاموية المختلفة ، وحفائر العراق التي كشفت عن سامراء والتي لا تزال تكشف عن البصرة ، والكوفة ، وواسط . وما اخرجوه من مؤلفات قيمة ، وما أقاموه من معارض [2] ومتاحف للفن الاسلامي .

---

(١) راجع بحثا للمؤلف عن المتاحف الاثرية ورسالتها في المجتمع ـ نشر في العدد السادس من السنة الخامسة من مجلة وزارة الشئون الاجتماعية في مصر ـ يونيو سنة ١٩٤٤ .

(٢) لعل أقدم معرض أقيم للفن الاسلامي كان في سنة ١٨٨٥ في مدينة لندن في نادي برلنجتون Burlington . وفي سنة ١٨٩١ في مدينة ڤينا في متحف الفنون التطبيقية للطنافس الاسلامية خاصة . وفي سنة ١٩١٠ في مدينة ميونخ . وفي سنة ١٩١٢ في مدينة باريس في متحف الفنون الزخرفية ، ثم تلت ذلك معارض كثيرة .

وقلما نجد اليوم دولة غربية في أوربا او أمريكا ليس بين متاحفها الاثرية متحفا ـ او جزء من متحف ـ معروض به أمثلة من بدائع الفن الاسلامي • والواقع ان هؤلاء الغربيين الذين توفروا على دراسة الفن الاسلامي ، وتخصصوا فيه ، وأدركوا الدور الذي لعبه في فنون اوربا ـ وسوف نشير الى هذا الدور فيما بعد ـ قد افسحوا لتحف هذا الفن موضعا بارزا في متاحفهم •

ولعله من المفيد هنا ان نذكر في شيء من الايجاز أهم هذه المتاحف الاوربية والامريكية لتكون معروفة لمن يحب ان يواصل دراسة هذا الفن • ولن أتعرض للمتاحف الموجودة في أفريقيا وآسيا الا في اضيق الحدود ، لأن وجود التحف الاسلامية في بلاد هاتين القارتين أمر طبيعي •

ففي الجزائر البريطانية عدة متاحف تنطوي جوانحها على الكثير من التحف الاسلامية الهامة نخص بالذكر منها : المتحف البريطاني ، ومتحف فيكتوريا والبرت ، ومؤسسة برلنجتون في لندن (١) ، ومتحف فتز وليم في كمبردج (٢) ، ومكتبة بودليان في أكسفورد (٣) ، وفي ادنبره المتحف الملكي ، ومكتبة الجامعة (٤) •

وفي الدانمرك في مدينة كوبنهاجن المتحف الاهلي ، ومتحف التاريخ (٥) •

وفي أسبانيا نجد في عاصمتها مدريد ثلاث متاحف في كل منها مجموعات من التحف الاسلامية : هي المتحف الاهلي للآثار ، والمتحف الحربي ، ومتحف دون جوان الذي كان يسمى من قبل متحف ڤالنسيا دي اسما (٦) • ونجد في المتاحف المحلية في برشلونه ، وڤيش ، وسرقسطه ، وطلطيلة ،

---

(1) British Museum, Victoria & Albert Museum, Burlington House, London, (2) Fitzwilliam Museum, Cambridge, (3) Bodleian Library, Oxford. (4) Royal Scottish Museum, University Library, Edinburgh. (5) National Museum, Statens Historisha Museum, Kobnhaven. (6) Museo Arqueologico, Museo Don Juan, Madrid.

وغرناطة ، وقرطبة ، واشبيلية ، والمرية ، قطعا هامة من تلك التحف[1] .

وفي فرنسا توجد عدة متاحف موزعة بين العاصمة وبين مدن أخرى مثل ليون ، وسفر . اما باريس ففيها متاحف عظيمة ، نذكر منها متحف اللوفر ، ومتحف جوبلان ، ومتحف كلوني ، ومتحف الفنون الزخرفية ، ومتحف المكتبة الاهلية [2] ، وفي مدينة ليون نجد متحف الغرفة التجارية حيث نشاهد مجموعة قيمة من المنسوجات الاسلامية [3] ، وفي مدينة سيفر نجد متحفا به أمثلة رائعة من الخزف الاسلامي [4] .

وفي ايطاليا نشاهد أهم التحف الاسلامية معروضة في مدينة فلورنسة في المتحف الاهلي ، وفي متحف بارجللو [5] ، حيث نجد فيهما أمثلة من أروع التحف الاسلامية الزجاجية والعاجية . وفي فيرونا [6] ، وفي فنسيا[7] ، وفي بالرمو[8] متاحف بها قطع هامة من الآثار الاسلامية .

وفي بلجيكا نرى في مدينة بروكسل في المتحف الخمسيني ، ومتحف بوردت دي هال [9] بعض التحف الاسلامية الهامة لاسيما من الزجاج والمنسوجات .

وفي هولندة نجدفي مدينة الهاج متحفا يعد من أحدث المتاحف انشاء ، معروضة به بعض التحف الاسلامية الجميلة [10] .

---

(1) Museo Barcelona, Vich, Saragossa, Toledo Grenada, Cordova, Sevellia, Almeriya. (2) Musée. de Louvre, Musée des Goblins, Musée de Cluuny, Musée des Arts Decoratifs, Bibleotheque national, Paris. (3) Musée de la Chambre de Commerce de Lyons, (4) Musée de La Ceramique, Sevres. (5) Museo Nazionle, Museo Bargello, Florence. (6) Museo Civice, Verona. (7) Museo Correr, Venice. (8) Museo Nazionole, Palermo. (9) Musée du Cinquantenaire, Musée Porte de Hal, Brussels. (10) Musem Gemeante, Hague.

وفي المانيا يستطيع الأنسان ان يجمع بين مشاهدة أمثلة رائعة من العمارة الاسلامية وأمثلة جميلة من التحف المنقولة . اما العمارة فنراها في القسم الاسلامي بمتاحف الدولة في برلين الشرقية [١] ممثلة في واجهة قصر المشتى التي اشرنا اليها من قبل . واما التحف المنقولة فنراها في هذا القسم الاسلامي في برلين الشرقية كما نراها كذلك في برلين الغربية في متحف جديد انشىء بعد الحرب العالمية الثانية وانقسام المانيا الى شرقية وغربية وهو متحف دالم . ومن الاشياء الجميلة التي نراها في القسم الاسلامي في برلين الشرقية تحف مختلفة من الجص والخزف عثر عليها الالمان في الحفائر التي قاموا بها في سامراء . اما متحف دالم فاروع ما فيه مجموعة الطنافس ومجموعة الاقمشة الموجودة معظمها في المكتبة الفنية في برلين الغربية[٢] . وفي غير برلين الشرقية ، وبرلين الغربية نجد للفن الاسلامي في مدينة هانوفر ، وهمبرج ، ودرسلدورف ، وميونخ ، ونورمبرج أقساما في متاحفها [٣] .

وفي النمسا نجد في ڤينا ثلاثة متاحف بكل منها تحفة اسلامية رائعة ، نخص بالذكر منها مجموعة الطنافس الاسلامية التي لا نظير لها في العالم ، والتي نشاهدها متحف الفنون التطبيقية . ومجموعة من الزجاج والبلور الصخري ، والاسلحة نجدها موزعة بين متحف تاريخ الفن ، ومتحف التاريخ الطبيعي . ثم مجموعة قيمة من اوراق البردى العربية ، ومن المخطوطات العربية المصورة نشاهدها في المكتبة الاهلية بهذه المدينة [٤] . وفي مدينة انسبروك نشاهد مثالا جميلا من التحف المعدنية يعد من اروح التحف في متحف فردناندم [٥] .

---

(1) Islamische Kunstabteilung der Staatlichen Museum, Ost Berlin. (2) Dahlem Museum, Dahlem, Kunstbibliothek Am Zoo, West Berlin. (3) Hannover, Hamburg, Dussledorf, Munchen Nuren burg. (4) Osterreich Museum für Kunst und Industries, Kunsth-istorishes Museum, Naturhistorishe. Museum Nationalbibliothek, Wien. (5) Ferdinondeum Museum,Innsbruk.

وفي بلاد المجر نجد أهم التحف الاسلامية في المتحف الاهلي في مدينة بودابست [١] حيث نشاهد بعض الامثلة الجميلة للطنافس الشرقية ، والخزف التركي ، والخزف الايراني .

وفي الجمهورية التركية نشاهد في متاحف اسطنبول ، وانقرة وبروسه وقونية مجموعات قيمة من شتى التحف الاسلامية [٢] ، وأهم هذه المتاحف جميعا متحف طوب قابوسراي ، ومتحف الاوقاف ، ومتحف تشيليني كيوسك [٣] .

وفي بلاد اليونان نجد متحف بناكي [٤] في مدينة أثينا ، وهو يأتي في المحل الثاني بعد متحف الفن الاسلامي بالقاهرة من حيث ما يتضمن من شتى التحف الاسلامية .

وفي بلاد الاتحاد السوفييتي نجد في متحف الارمتاج [٥] في مدينة لينينجراد مجموعة هامة من التحف المعدنية التي ترجمع الى فجر الاسلام ، كما نشاهد أمثلة كثيرة من تحف مختلفة . وفي مدينة موسكو [٦] ، ومدينة كييف [٧] ، وتفليس [٨] ، وسمرقند [٩] ، وطشقند [١٠] ، متاحف محلية بها الكثير من التحف الاسلامية .

وليست المتاحف الاوربية وحدها هي التي نشاهد فيها التحف الاسلامية بل ان في كثير من الكنائس الكبيرة في أوربا لا سيما في ايطاليا ، واسبانيا ، وفرنسا كثير من التحف الاسلامية ضمن كنوزها ، فلقد افتتن المسيحيون في العصور الوسطى بجمال هذه التحف فحافظوا عليها ، وكانت لها في نفوسهم مكانة عظيمة ، ومما زاد في قيمتها في نظرهم انها آتية من الشرق، حيث ولد وترعرع السيد المسيح ، فوضعوها في أعز مكان لديهم ، واحتفظوا فيها بما يعتزون به من مخلفات دينية ، وكأنما شاءت الاقدار ان تبقى لنا هذا التراث الاسلامي محتفظا بروعته لكي نجد فيه شاهدا صادقا على سمو الفن عند اجدادنا من العرب بعد الاسلام . ومن أشهر هذه الكنائس في ايطاليا كتدرائية سان مارك في مدينة ڤينيسيا

---

(1) The Hungarian National Museum, Budabest (2) Ankara, Bursa, Konia (Takyat Al-Mawlawia). (3) Topcapuserai Museum, Ewkaf Museum, Chinili Kiosk Museum, Istambul, (4) Benachi Museum Athens. (5) Hermitage Museum, Leningrad, (6) Museum of Arms and Armour, Moskau. (7) Museum of Art, Kieff. (8) Qaucasian Museum, Teflies. (9) Museum of Antiquities, Samarkand. (10) Museum of Art, Tashkand.

(البندقية) [١] ، وفي فرنسا كنيسة سنت أبت بمدينة أبت [٢] ، وفي اسبانيا كنيسة بنبلونه ، وكنيسة جيرونا [٣] .

ولم يشأ الامريكيون ان يكونوا متخلفين عن الاوربيين في العناية بالفنون الزخرفية الاسلامية ، فوجهوا عنايتهم الى جمع التحف الاسلامية ، وبذلوا في سبيل ذلك المال عن سخاء واضح ، واعدوا لعرض هذه التحف المتاحف العظيمة . ولعل أهم ما ينبغي ان نشير اليه هنا ما نجده في الولايات المتحدة الامريكية في مدينة نيويورك حيث يقوم متحف المتروبوليتان العظيم [٤] ، وخير ما يعرفنا بهذا المتحف ، وبالفنون الزخرفية الاسلامية عامة ذلك الكتاب الذي وضعه باللغة الانجليزية الدكتور ديماند [٥] ، وترجمه الى اللغة العربية الاستاذ احمد عيسى وراجعه الدكتور أحمد فكري ونشرته مؤسسة فرانكلين بالقاهرة ، وما نراه في مدينة واشنطن حيث متحف المنسوجات الذي به مجموعة نفيسة من المنسوجات الاسلامية والطنافس الشرقية [٦] .

ومن المتاحف الامريكية الاخرى التي نجد بها تحفا اسلامية متحف جامعة فيلادلفيا [٧] ، ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن [٨] ، وفي متشجن (آن اربر) يعنى في جامعتها بدراسة الفن الاسلامي ، ويوجد بها متحف للفنون الزخرفية الاسلامية [٩] ، وتصدر عنها أهم المجلات التي تعنى بالفن الاسلامي [١٠] .

وفي كل من مدينة توليدو [١١] (سميت كذلك تشبها باسم مدينة طلطيلة في الاندلس التي اشرنا اليها) وشيكاغو [١٢] ، ودترويت [١٣] ، متاحف نجد بها كذلك تحفا اسلامية جميلة .

---

(1) Cathedral of San Marco, Venice, Italy. (2) Church of st. Anna, Apt, France. (3) Cathedral of Bamblona, Cathedral of Jerona, Spain, (4) Metropolitan Museum of Art, New York. (5) Dimand, A Handbook of Muhammadan Art, New York, 1947. (6) The Textile Museum, Washington. (7) University Museum, Philadelphia, (8) Museum of Fine Arts, Boston (9) Institute for Moslem Art, University of Mishigan, An Arbor.

(١٠) هي مجلة ARS Islamica التي صدر منها ستة عشر جزءا ثم تغير اسمها الى : ARS Orientalis.

(11) Museum of Art, Toledo. (12) Museum of Art Institutue, Chicago. (13) Museum of Art Institute, Detroit.

الفنون الزخرفية الإسلامية

واذا كانت العمائر الدينية التي تعرفنا عليها خلال رحلتنا الطويلة لها طابع يترجم عن الدين الجديد الذي دخل تلك البلاد ، ويتمشى من حيث النقـــط الرئيسية في التصميم العام مع المساجد الاولى في بلاد العرب حيث اشرق الاسلام اول ما اشرق على الوجود ، فالامر ليس كذلك في التحف المنقولة التي سنتحدث عنها الان • اذ الواقع ان هذه التحف وما تزدان به من فن زخرفي قد ظلت فيها التقاليد الفنية القديمة السابقة على الاسلام ، واضحة قوية في العصور التي اعقبت الفتح العربي حتى ليصعب علينا في بعض الاحيان ان نفرق بين ما صنع قبل الفتح العربي وما صنع بعده بقليل •

وقبل ان نمضي في حديثنا للتعرف على هذه التحف المنقولة ، او بعبارة ادق للتعرف على الفنون الزخرفية التي تزين هذه التحف ، نحب ان نقف قليلا عند هذه التسمية التي لم تكن كذلك عند الرعيل الاول من المشتغلين بالفن الاسلامي ، بل كانت تسمى لديهم Minor Arts [1] • وتدعونا هذه التسمية الى التساؤل عن حقيقة مدلولها في هـــذا المجال • ان كلمة Major معناها صغير وهي عكس كلمة Minor التي معناها كبير • فهل كان الباحثون الاوائل – وهم من الغربيين ، وهم ايضا الذين وضعوا أسس دراسة هذا الميراث الفني ، وتتلمذنا عليهم معشر الشرقيين – هل كانوا يفكرون عند استعمالهم لهذه الكلمة في الحجم ، ويعنون بذلك التحف الصغيرة التي لا ترتفع في حجمها الى العمائر الكبيرة ؟ أم أنهم كانوا يقصدون من هذا التعبير التقليل من شأن هذه الفنـــون الزخرفية ، واعتبارها في المحل الثاني من الاهمية بالنسبة للعمارة التي تأتـي في المحل الاول ؟

(1) Christie, Islamic Minor Arts and Their Influence upon European work, Legacy of of Islam, p. 13.

اغلب الظن ان المعنى الاول لم يكن هو المقصود في ذلك الوقت ، وان الباحثين الغربيين كانوا يقصدون المعنى الثاني ، وقد سايرهم في هذا الاتجاه المرحوم الاستاذ الدكتور زكي محمد حسن - وهو ممن كان لهم فضل السبق في الكتابة في الفن الاسلامي باللغة العربية - عندما ترجم عنوان الفصل الذي عقده احد هؤلاء الغربيين في كتاب « تراث الاسلام » عن هذه الفنون بعبارة « الفنون الفرعية »[(١)] .

ومما يؤكد عندي ان المعنى الثاني هو الذي كان مقصودا ، ان الباحثين ، سواء منهم الغريبون او الشرقيون [(٢)] ، قد عدلوا عن استعمال هذا التعبير بعد ان فهموا روح الفن الاسلامي ، وتعمقوا في دراسته ، وأدركوا ان الفنانين المسلمين كانوا ، في معظم الاحيان ، يجمعون بين الصناعة والفن الجميل ، ولا يفرقون بين ما تخرجه ايديهم من ابنية او مصنوعات صغيرة ، يستوي في ذلك عندهم القصر المنيف ، والكوخ الحقير ، والآنية المصنوعة من المعدن والآنيـة المصنوعة من الطين ، كل شيء ينبغي ان ينال حظه من التجميل حتى ولو لم يكن الجزء المزخرف ظاهرا للعيان .

ولكن لماذا اعتبر الباحثون الاوائل الفنون الزخرفية الاسلامية اقل أهمية من العمارة ؟ في اعتقادي ان ذلك راجع الى أنهم نظروا الى هذه الفنون في أول الامر من نفس الزاوية التي كانوا ينظرون منها الى فنونهم التطبيقية ، اي الى التحف المصنوعة من الخزف ، والمعادن ، والخشب والعاج ، والزجاج والمنسوجات ، وهذه كان يقوم بها عادة صناع Artisans ، ومن هنا كانت في المحل الثاني من الاهمية عندهم ، اما المحل الاول فكان لفنون العمارة ، والنحت والتصوير ، وهذه كان يقوم بهـا فنانـــون Artists لهم في الهيئة الاجتماعية مكانة ملحوظة .

المنسوجات الاثرية

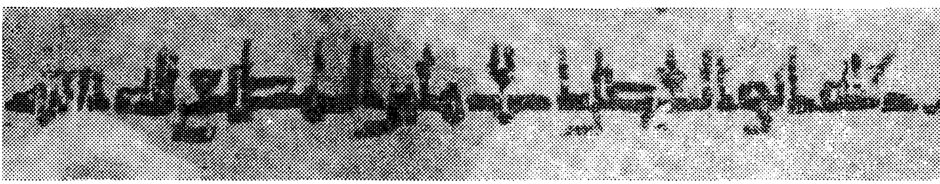
والآن فلننظر في هذه الفنون الزخرفية مبتدأين بالمنسوجات لأن صناعتها من أقدم الصناعات التي نشأت مع الانسان ، وكانت وليدة حاجته الى وقاية نفسه من

(١) ترجم المرحوم الدكتور زكي محمد حسن الفصل المذكور في المرجع السابق بعنوان « الفنون الفرعية » .

(٢) عدل الدكتور زكي عن هذا التعبير وفضل عليه عبارة « الفنـــون الزخرفية » راجع ص ٤٤ من كتاب « الفنون الايرانية في العصر الاســـلامي » ، الطبعة الثانية .

العوامل الجوية •

وقد تدرج فيها في سلم التطور ، فاتخذ ملابسه من ورق الشجر ، ومن جلود الحيوان ، ثم الهمته الطبيعة فنسجها من الحشائش والاغصان ، ثم أهتدى الى عمل الخيوط من الصوف والكتان والحرير والقطن ، ومن تلك الخيوط نسج جميع ما احتاج اليه من المنسوجات • ولقد حرص – عندما نضجت فيه الملكة الفنية – على أن تكون هذه المنسوجات ، الى جانب ما لها من النفع ، اثرا فنيا ، يشعر بالجمال فزينها بالزخارف ورقشها بالالوان •



شكل (٤٥)

ولاتصال المنسوجات بالانسان ، وملازمتها له في كل أدوار حياته ، كانت عناية رجال الآثار بدراستها عظيمة ، لأنها تبين بطريقة نسجها مدى رقي الصناعة ، وتعكس بزخارفها مقدار ما بلغه الانسان من الذوق الفني • وكثيرا ما كانت هذه الدراسة نبراسا أهتدى الباحثون بنوره في سبيل الوقوف على درجة رقي الامم وحضارتها ، ومدى تأثرها بغيرها او تأثيرها فيه •

وقد كان للجو الجاف الذي تمتاز به صحارى مصر الفضل في الابقاء على كثير من المنسوجات الأثرية سواء منها مانسج بايدي ابنائها ، او ما نسج بايدي غيرها من الامم وجاء اليها عن طريق التجارة او الاهداء ، ففي متاحف مصر أمثلة كثيرة من منسوجات العصور السابقة على التاريخ ، وأمثلة من منسوجات العصور القديمة السابقة على الاسلام ، وأمثلة من منسوجات العصور الاسلامية المختلفة ، ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة أمثلة كثيرة من المنسوجات العراقية الاسلامية التي نسجت في بغداد أو في مدينة السلام كما هو منقوش عليها •

وقد كان في تقاليد العرب ، وميولهم ما عاون على تقدم صناعة النسيج على أيديهم في العصور الوسطى ، فكسوة الكعبة ، وعادة منح الخلع ، والميل الى التكثير

من الملابس ، والى اقتناء الفاخر منها اعتقادا بأنها تضفي على لابسهامن الوجاهةمايكبره في أعين الناس ، ويزيد من قيمته عندهم ـ هذه العوامل كان من شأنها ان تمهد السبيل الى الوصول الى درجة من الكمال ، والجمال في هذه الصناعة قلما نجدها ممثلة في ناحية أخرى من نواحي النشاط الفني عند المسلمين •

اما الكعبة فقد عمل العرب ـ قبل الاسلام وبعده ـ على تجميلها بانواع مختلفة من المنسوجات ، وكانوا يكسونها كل عام ، ولا تزال كسوة الكعبة حتى اليوم من التقاليد التي يحرص عليها المسلمون حرصا واضحا •

واما عادة منح الخلع فتقليد عرفته الامم القديمة قبل الاسلام ، واحياه النبي صلوات الله عليه عندما جاء اليه كعب بن زهير بن ابي سلمى تائبا من هجائه له ، ومادحا اياه بقصيدته التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

فخلع عليه النبي بردة كانت عليه [١] ، وقد طلب معاوية ابن ابي سفيان الى كعب ان يبيعها اياه ولكنه رفض ، ولما مات كعب استطاع معاوية ان يشتريها من أولاده بعشرين الف درهم ، وعندما سقطت الخلافة الاموية في الشرق ، استولى العباسيون على هذه الخلعة ولا يعلم اين انتهت •

وقد سار الخلفاء على نهج الرسول الكريم فكانوا يخلعون على الناس في المناسبات المختلفة • وكتب الادب ، والتاريخ حافلة بما يفيد ذلك [٢] •

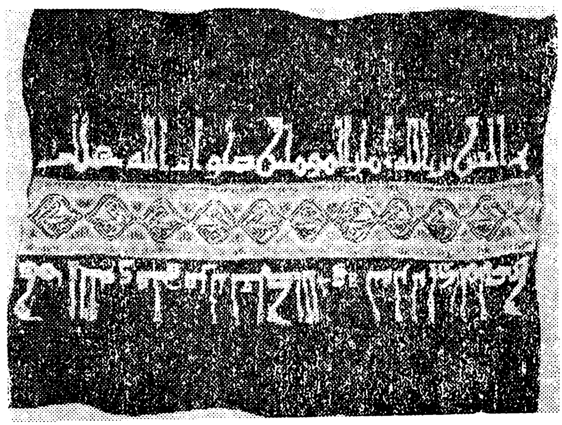
ولقد وصلت الينا خلعة كاملة من عهد الخليفة الفاطمي المستعلى بالله ، لاتزال موجودة حتى اليوم في كنيسة سنت آن بمدينة أبت في جنوب فرنسا ، وطولها ٣١٠ سم وعرضها ١٥٠سم ، ومع كبر حجمها هذا فقد كانت محفوظة بداخل قارورة صغيرة ، وحفظها على هذه الصورة يدل على دقة نسجها ورقتها ، وهي منسوجة من الكتان ومزينة باشرطة من الحرير ، وتتضمن كتابة بالخط الكوفي تشير الى مدينة دمياط (احد المدن الشهيرة بمصر) حيث نسجت في طراز الخاصة ،

---

(١) راجع تاريخ الكامل لابن الاثير جـ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ، وصبح الاعشى للقلقشندي جـ٣ ص ٢٧٤ ٠

(٢) مروج الذهب للمسعودي جـ ٢ ص ٤٦٣ و ٤٢٠ و ٤٧٧ ٠ وخطط المقريزي جـ ١ ص ٣٢١ و ٤٠٧ و ٤٠٩ وجـ ٢ ص ٩٩ و ١٩٨ و ٢٢٧ ٠

كما تشير كذلك الى الخليفة سالف الذكر • وهذه هي الخلعة الوحيدة التي وصلت الينا في حالة تكاد تكون كاملة [١] • ولعله من الطريف ان نذكر ان هذه الخلعة الاسلامية قامت حولها اسطورة جعلت منها شيئا مقدسا عند المسيحيين يتبركون بـه ولاسيما النساء منهم الراغبات في الحمل ، ويقال أن أحدى ملكات النمسا قد حضرت خصلها الى كنيسة سنت آن حيث توجد هذه الخلعة رغبة في التبرك بها [٢] • اما كيف وصلت هذه الخلعة الفاطمية الى هذه الكنيسة فاغلب الظن أنها جاءت مـع أحد الصليبيين من مصر الى فرنسا في العصور الوسطى مع أشياء اخرى •



شكل (٤٦)

والميل الى التكثير من الملابس زاد لدى العرب بعد الفتوحات الاسلاميـة العظيمة التي كان من أثرها تدفق الثروة عليهم ، وجريانها بين أيديهم ، فأقبلوا على المنسوجات يسرفون في اقتنائها ، ويحملوا النساج بذلك على التسابق في اجادة نسجها ، وابتداع الانواع المختلفة منها ، ويكفي ان نذكر أنه في أيام « سليمان

(١) كان مارسيه وفييت اول من درس هذه الخلعة ، وقد درسها المؤلف كذلك ـ انظر كتابه : « الزخرفة المنسوجة في الاقمشة الفاطمية » ـ من مطبوعات المتحف الاسلامي بالقاهرة سنة ٩٤٢ ص ١٣٩ ـ ١٤٥ والمراجع التي يشير اليها •

(٢) راجع تعليقا للمؤلف بالانجليزية عن هذه الاسطورة نشر ضمن مقال له بعنوان :
Some Influences of Arab Art on European Medieval Art, Minbar al Islam, Vol, II, number, 3.

ابن عبدالملك» الخليفة الاموي عمل الوشى الجيد، ولبسه الناس جميعا جبابا ، واردية، وسراويل ، وعمائم وقلانس ، وكان لايدخل عليه رجل من أهل بيته دون ان يكون عليه ثوب من هذا النوع[1] . وفي أيام هشام بن عبدالملك عمل نوع من الخز اقبل الناس جميعا على أستعماله . وفي أيام الخلافة العباسية ابتدع في عهد المتوكل على الله نوع من القماش يسمى « الملحم » ، صنع منه ما يسمى « بالمتوكلية » وهي نوع من الثياب الملحم نهاية في الحسن وجودة الصنع [2] .

وللمنسوجات الاسلامية الاثرية ميزة على جميع المنسوجات القديمة اذ هي في كثير من الاحيان ، تتضمن كتابات عربية بعضها نصوص تاريخية ، وبعضها اشعار جميلـة .

اما الاولى فنجد فيها فيما نجد ، أسم الخليفة (شكل٤٥) ، وتاريخ النسج ، والمكان الذي نسجت فيه . وقد تقترن هذه الكتابة التاريخية بزخارف جميلـة فتصبح قطعة القماش عندئذ وثيقة فنية لها قيمة عظيمة لدى مؤرخي الفن (شكل٤٦).

ومما يستلفت النظر في هذه النصوص التاريخية عبارة كثيرا ما نراها على هذه الاقمشة هي : « طراز الخاصة » او « طراز العامة » . والطراز مؤسسة حكومية تعنى بالاشراف على صناعة المنسوجات التي كانت شبه محتكرة للدولة في ذلـك الوقت . اما « طراز الخاصة » فاغلب الظن انه المصنع الذي ينسج فيه ما يحتـاج اليه الخليفة ، ومن يلوذون به ، من أقمشة ، وما تحتاجه الدولة منها للاستعمال او الاهداء . ولا تزال حتى اليوم في مصر بقية من طراز الخاصة ، تتمثل في « مصلحة الكسوة » وهي مصلحة أو مديرية ـ على حد تعبير أهل العراق ـ تختص بنسج كسوة الكعبة وتنفق عليها الدولة ، وتمدها بكل ما هي في حاجة اليه . واما طراز العامة فهو ـ أغلب الظن ـ الجهة التي تراقب المصانع الاهلية التي تشتغل بالنسيج ، وتضبط اعمالها [3] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) نفس المرجع ص ١٨١ .

(٣) للمؤلف عن « الطراز » ابحاث مختلفة بعضها نشر باللغة العربية ، وبعضها نشر باللغة الانجليزية نذكر منها هنا أ ـ « طراز الاسكندرية » وقد نشر في كتاب مؤتمر الاثار العربية الذي عقد في مدينة دمشق سنة ١٩٤٧ . ب ـ
The Tiraz Institution in Medieval Egypt.
وهو ضمن ابحاث الكتاب الذي اعد بمناسبة بلوغ الاستاذ Creswell الثمانـين من عمره .

واما الاشعار التي كانت تطرز على المنسوجات في العصور الوسطى ، فقد تجلى فيها لون من الادب ، خفيف على القلب ، محبب الى النفس ، يكفي ان نشير هنا الى بعضها لندرك كيف تعاون خيال الشاعر وعذوبة اللفظ مع مهارة النساج في اعطائنا تحفة جميلة ، يسر الخاطر مرآها ، ويشرح الصدر خيالها ، فقد كانت أحدى جواري الرشيد تزين عصابتها بهذا البيت من الشعر :

ظلمتني في الحـــب يـا ظـالم   والله فيمـا بيننا حاكـم[١]

وكان على ستر للخليفة المتوكل على الله هذان البيتان :

ايها اللائم فيهـا لأصرفهـا   أكثرت لو كان يغنى عنك اكثار

ارجع فلست مطاعا ان وشيت بها   لاالقلب سال ولا في حبها عار[٢]

والمواد الاولية التي نسج منها العرب منسوجاتهم هي الصوف ، وهو من أقدم المواد التي استعملها الانسان في النسيج ، وفي العصر الاسلامي ذاعت شهرة مصر في نسج الاقمشة الصوفية ، ويقال ان معاوية ابن ابي سفيان لما كبر كان احساسه بالبرد شديدا ، فوصفت له الاكسية المصرية التي تنسج من صوفها المرعز العسلي ، الغير مصبوغ ، وعمل له عدد منها فما احتاج منها الا الى واحد[٣] .

والكتان من أهم المواد التي استخدمها المسلمون في النسيج ، ومعظم الاقمشة الاسلامية القديمة منسوجة منه ، وقد اطلق العرب عليها اسماء مختلفة منها : القصب والشرب ، والدبيقي وغير ذلك[٤] .

والقطن لم يستعمل بكثرة ولكنه كان معروفا في العصر الاسلامي ، وقد استخدم في نسج قطع كثيرة كشفت عنها الحفائر الاثرية في مصر[٥] .

وللحرير قصة شيقة يرجع تاريخها الى خمسة وعشرين قرنا قبل الميلاد

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج٣ ص ٣٤٢ .

(٢) الوشاء : الظرف والظرفاء ص ١٨٢ . مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٤ .

(٣) خطط المقريزي ج ١ ص ٢٠٤ .

(٤) راجع كتاب الزخرفة المنسوجة في الاقمشة الفاطمية للمؤلف للوقوف على الدور الذي لعبه الكتان في المنسوجات الاسلامية .

(٥) راجع مقال بكر عن « مصر » في دائرة المعارف الاسلامية . ففيه اشارة الى استخدام القطن في المنسوجات الاسلامية .

نرى من المفيد ان نذكرها هنا قبل الكلام عن موقف الاسلام من هذه المادة الجميلة التي كان للمسلمين فضل نشرها • ذلك ان أميرة صينية ـ كما تقول الاسطورة الصينية ـ تدعى (سي لنج تشى) استلفت نظرها ذات يوم ديدان صغيرة كانت تعيش على أوراق شجرة التوت ، فراقبتها ، ولاحظت سلوكها ملاحظة دقيقة ، وهدتها هذه الملاحظة الى طريقة تربية هذه الديدان والى وسيلة استخراج الخيوط من شرانقها ، ولقد كوفئت هذه الاميرة على صنيعها هذا بأن رفعها مواطنوها الى مصاف الآلهة •

وقد حافظ الصينيون على سر انتاج الحرير بعد ان اتقنوا طريقة استخراجه ، وحسنوها • وقد فرضوا عقوبة الموت على من يذيع هذا السر ، ولكن شاءت الاقدار ان يذاع هذا السر على يدي اميرة صينية كما اكتشف من قبل على يد أميرة صينية ايضا ، ذلك ان احدى الاميرات الصينيات تزوجت بحاكم أحدى المدن الايرانية ، وعند خروجها الى مقر زوجها ، خبأت في ثنايا شعرها بويضات دودة القز ، وفي وطنها الجديد فقسمت هذه البويضات ، وتوالدت وانتشرت[1] •

وعندما تبودلت السلع التجارية بين الصين والفرس من جهة ، وبين البلاد الخارجة عنهما من جهة أخرى ، انتشرت المنسوجات الحريرية ، ولكنها كانت غالية الثمن • وتصادف ان حالت الظروف السياسية دون وصول الحرير الى بيزنطه مما حمل الامبراطور جستنيان على محاولة الوصول الى سر هذا النسيج ، وقد وفق في محاولته اذ استطاع راهبان ان ينقلا خلسة ديدان القز من ايران الى بيزنطه وهناك توالدت وكثرت وانتشرت ولم يعد انتاج الحرير سرا ، وقد كان ذلك في سنة٥٥٦م ، وأصبحت بيزنطه منذ ذلك التاريخ من أهم مراكز انتاج الحرير ونسجه•

وقد اسرف رجال هذه الدولة في استعمال المنسوجات الحريرية رجالا ونساء مما أثار غضب المسكين باعنة التقاليد ، وانبرى رجال الكنيسة يعظون الناس لكي لا يقبلوا على هذا اللون من الترف الذي يتجلى فيه الاسراف بابشع صوره ، وهذا أمر لا يقره الدين المسيحي ـ الدين الرسمي للدولة البيزنطية ـ • ولما فشلت عظاتهم في رد الناس عن هذا الترف ، اعلنوها حربا شعواء على جميع اولئك الذين يستعملون الملابس الحريرية مهما كان مركزهم الاجتماعي •

---

(1) Algoud, H., La Soie, Art et Histoire, Paris, 1928.

ولكن هذه الحرب باءت كذلك بالفشل ، وتغلبت روح الترف على الناس فجعلوا نصائح الكنيسة دبر اذانهم ، واسرفوا في اقتناء الملابس الحريرية .

وجاء الاسلام ، وواجهته هذه المشكلة ، فوقف منها موقفا كان من أثـره ان تقدمت صناعة الحرير على أيدي المسلمين ، فهو لم يحرم استعمال الملابس الحريرية كما يدعى كرستي خطأ[١] ، ولكنه نظم استعمال الحرير ، فأباحه من غير قيد او شرط للنساء [٢] ، ورخص للرجال في ارتداء الملابس الحريرية عند الضرورة ، كما رخص ايضا لهم في استعمال الثوب اذا كان به من الحرير قدر أصبعين أو اربع اصابع [٣] . وقد كان من أثر ذلك الترخيص الاخير ان ظهرت طريقة جديدة في زخرفة الاقمشة هي المعروفة باسم « التابستري »[٤] . وقد أكسبت الثوب جمالا ، اذ أصبح منسوجا من الكتان او القطن او الصوف ومزينا باشرطة منسوجة بالحرير في الثوب نفسه ، وتتجلى هذه الطريقة في الصوتين المنشورتين مع هذا الكلام اذا نلاحظ ان شريط الكتابة في القطعة الاولى (شكل٤٥) التي تتضمن أسم الخليفة المطيع لله منسوج بالحرير في قطعة من الكتان . وشريطا الكتابة ، وشريط الزخرفة الواقع بينهما (شكل٤٦) كلها منسوجةبالحرير المختلف الالوان في القطعة نفسها وهي منسوجة من الكتـــان كذلك ، والكتابـــة تتضمن اسم الخليفة الفاطمي العزيـــز بالله .

ولم تكن الرغبة الجامحة في الاستمتاع بما حرمه الله كما يقول ذلـــك المستشرق الذي أشرنا اليه من قبل ، هي التي جعلت المسلمين يعنون بالحرير وانتاجه ويملكون زمام صناعته ، وينشرون هذه الصناعة في مشـــارق الارض ومغاربها ، ويدخلونها في البلاد التي فتحوها ، مثل أسبانيا وصقلية ، ويصبحون بحق زعماء تجارته في العصور الوسطى ، ولكن هذا التنظيم الذي اتى به الاسلام هو الذي جعل للمسلمين هذه المكانة الممتازة في صناعة الحرير وتجارته[٥] .

(1) Christie, Legacy of Islam, p. 133.

(٢) راجع ما ورد من الاحاديث في هذا الصدد في صحيح البخاري ، كتاب اللباس (ب ٣٠) .

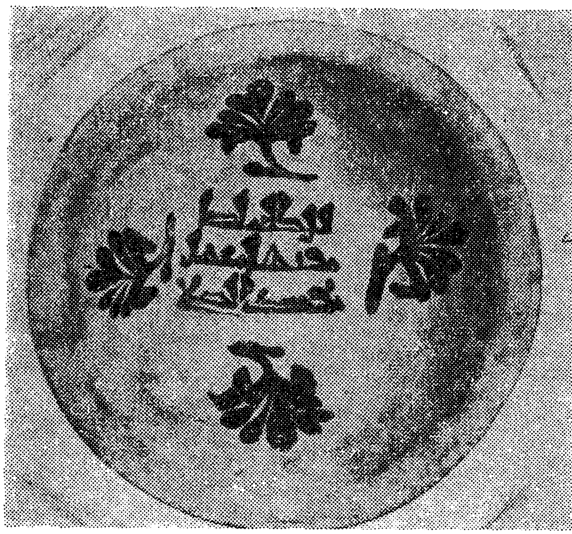
(٣) راجع ما ورد من الاحاديث بشأن اباحته للرجال في كتـــاب الجهاد (ب ٩١) وكتاب اللباس (ب٢٩) .

(٤) تعنى طريقة التابسترى هذه Tapestry استعمال خيوط الحرير في الزخرفة في الثوب اثناء نسجه .

(5) Marzouk, History of Textile Industry in Alexandria, Alexandria University Press, 1955, p. 63.

المصنوعات الفخارية والخزفية

واذا كان الكثير من المنسوجات الاثرية الاسلامية لم يصل الينا ، والذي قدر له ان يرى الشمس من جديد انما جاءنا من بعض الاماكن التي ساهم جوها ، وجفاف تربتها في المحافظة عليها مثل مصر ، فان المصنوعات الفخارية والخزفية الاسلامية[1] قد وصلت الينا من كل الاقطار الاسلامية وبكثرة هائلة ، ذلك لان هذه المصنوعات الفخارية والخزفية لا تبلى .



شكل (٤٧)

ولا ننسى ان الصناعات الفخارية عريقة في القدم مثل المنسوجات ، فهي متصلة بحياة الناس اتصالا وثيقا منذ دب الانسان على ظهر الارض واحتاج الى ما يمسك فيه طعامه وشرابه ، ومادتها الخام ـ التراب والماء ـ موجودة في كل مكان ، ومن هنا كانت عناية علماء الآثار بدراستها عظيمة ، ذلك لانها تعكس تدرج البشرية في سلم الرقي بصورة ملموسة ، واضحة ، فمن فخار ساذج

---

(١) المصنوعات الفخارية هي ما كانت من الطين المحروق فقط Unglazed Pottecy . والمصنوعات الخزفية هي ما كانت من الطين المحروق المغطى بدهان زجاجي Glazed Pottery

عاطل من كل زخرف ، غليظ الشكل الى فخار موزون الأبعاد ، متناسب الأجزاء ، مزخرف بالحز او التخريم او الاضافة او التلوين .

ولقد ورث العرب فيما ورثوه عن الامم السابقة عليهم هذه الصناعة ، ولكنهم لم يقفوا عند حد ما ورثوه ، بل حاولوا ـ كما كان شأنهم دائما ـ ان يطوروا هذا الميراث ،ويرتقوا به الى اقصى ما قدر له من الرقي . وفي المتاحف الاثرية امثلة كثيرة تنطق بهذا الميراث وذلك التطور ، ويكفي ان نذكر الاواني الفخارية الكبيرة (الحباب) التي تجلو لنا مدى التأثير الساساني في عملها وتجلو لنا ايضا مهارة اجدادنا من المسلمين في هذه الناحية . وهي معروضة في متحف القصر العباسي ، وفي دار الآثار العربية ، وفي متحف الآثار الجديد .

والى جانب هذه الاواني الفخارية الكبيرة الحجم صنع اجدادنا من الفخار ايضا اواني صغيرة الحجم يسهل على الناس حملها والتنقل بها من مكان الى مكان تعرف عند الاثريين باسم « أواني الحجاج » او الزمزميات . وفي متحف فيكتوريا والبرت بلندن مثال لها غاية في الجمال يزدان بزخارف هندسية ونباتية ، ولعل أروع ما فيه كتابة عربية نقرأ منها : « الف صحة وعافية » . وفي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة مجموعة كبيرة من التحف الفخارية الصغيرة نذكر منها « شبابيك القلل » التي تنتزع الاعجاب من كل من يراها لجمال زخرفها ودقة صناعتها .

وزخرفة هذه الاواني الفخارية سواء منها ما كان كبير الحجم مثل الجرار ذات الزخارف الرائعة الموجودة في بغداد ، أو صغير الحجم مثل تلك التي نراها في القاهرة ـ تكشف لنا عن نقطة هامة في الفن الاسلامي هي ان هدف الفن عند المسلمين انما هو تجميل الحياة الدنيا في شتى زواياها ، والحرص على ان يلبسوا كل ما تخرجه ايديهم من مصنوعات جمالا زخرفيا ، يشيع في النفس الغبطة ، وفي القلب الرضا والانشراح ، ويشهد لمبدعه بحسن الذوق ، تستوي في ذلك لديهم الآنية المصنوعة للامير من المعدن او المصنوعة للفقير من الطين [1] .

---

(١) يلاحظ ان الفنون السابقة على الاسلام كانت تعنى وتجمل ماله صلة بالاله او بالملوك ، اما الفن الاسلامي فلم يكن في خدمة الدين بل كان في خدمة الدنيا ، لايفرق بين غني وفقير أو حاكم ومحكوم .

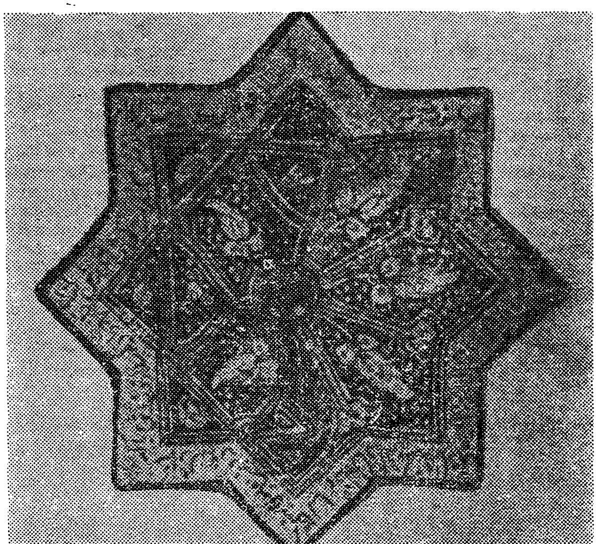
وسارت صناعة الفخار في طريقها المتطور ، وشق على الفخراني ان تكون اوانيه كثيرة السام ، فاندفع يسعي وراء البحث عن وسيلة يقضى بها على هذه المسام ، ويكسب الاواني شكلا اجمل مما هو لها ، وانتهى من تجاربه الى تزجيج الاواني أي دهنها بطبقة زجاجية ، وهكذا ظهر الخزف •



شكل (٤٨)

ولم يبتكر الفخراني المسلم هذه الطريقة ، ولكنه ورثها عمن سبقوه ، فقد كان التزجج معروفا قبل الاسلام ، ولكنه لم يكن شائعا ، وفضل الخزاف المسلم انه اذاعه ، وطور صناعته ، ونشرها في البقاع التي نزلها • وقد قلد في أول الامر خزف بيزنطه ، وخزف ساسان ، وخزف الصين ، واتقن هذا التقليد الى درجة قد يصعب معها التفرقة بين المقلد والاصيل • وكما انه اتقن التقليد فقد اتقن

الابتكار ، اذ أضاف الى انواع الخزف التي كانت معروفة نوعا جديدا لم يكن موجودا من قبل هو الخزف ذو البريق المعدني Lustre Pottery كما اصطلح على تسميته مؤرخو الفن ، وقد كان صاحب الفضل في هذا الابتكار الخزافون العراقيون في عصر الدولة العباسية • وعلى الرغم من ان ابتداع هذا النوع الجديد جاء نتيجة لتقدم صناعة الخزف في العراق في عصر ازدهار الحضارة الاسلامية أيام الدولة العباسية كما يذهب الى ذلك أحد مؤرخي الفن الذي يعتقد ان خزف الصين لعب الدور الهام في هذا الابتداع[١] ، الا اننا نرى ان ما ذهب اليه هـذا المؤرخ لايمثل الحقيقة كلها بل كانت هناك عوامل أخرى لها فعاليتها في ابتكار الخزف ذي البريق المعدني ، ونعني بها بعض النظم والتوجيهات في الديـن الاسلامي • وقد يبدو لاول وهلة ان الصلة مقطوعة بين الدين وبين تطور الصناعة ، ولكننا اذا تذكرنا عناية الدين الاسلامي بالصناعة ، وحرصه على أن تكون متقنة ، محققة لوظيفتها على أحسن وجه ، وان « المحتسب » ومن ورائه « نقابات الحرف »



شكل (٤٩)

(1) Lane, Early Islamic Pottery, p. 10.

قد لعب في هذه الناحية دورا هاما ، سهل علينا ادراك هذه الصلة[١] • على انه كان هناك عامل ديني مباشر نعتقد انه كان من اقوى العوامل في هذا الابتكار ، عامل استمد وجوده من بعض الاحاديث النبوية التي جمعت قبيل هذا العصر ، ودعت الناس الى التقشف ، وحاربت في نفوسهم حب الترف ، فكرهت اليهم استعمال الاواني المتخذة من الذهب او من الفضة [٢] • ولما كان الخزافون كغيرهم من الناس يدركون ان حب الترف كامن في كل نفس ، وانه ليس من اليسير على الاغنياء الاستغناء عن الاواني المصنوعة من الذهب او الفضة ، وان فقهاء الدين يرون تحريم هذه الاواني سواء منها ما كان يستعمل في الأكل او في الشرب او في الطهارة[٣] ــ اتجهوا الى التفكير في السعي وراء ايجاد طريقة صناعية تعطي المادة الخام التي يصنع منها الخزف بريق الذهب ، واخذوا يقومون بالتجارب المختلفة مستفيدين من غير شك بخزف الصين الذي كان يغمر اسواق العراق حينئذ ، حتى اهتدوا آخر الأمر الى ابتكار هذا النوع من الخزف الذي يحقق للاواني جمال الذهب ، واخرجت ايديهم تلك الامثلة الرائعة من التحف الخزفية التي امتزجت فيها دقة الصانع بعبقرية الفنان ، والتي يتمتع من يستعملها بجمال الذهب ورونقه دون خروج على أقوال الفقهاء •

ومن العراق انتشر الخزف ذو البريق المعدني في كافة انحاء العالم الاسلامي وتعلمه الخزافون في مصر ، وفي المغرب ، وفي الاندلس ، وفي ايران وشرق العالم الاسلامي ، وتسربت اسرار صناعته الى أوربا من الاندلس • وقد صنع منه الخزافون

---

(١) سوف نتحدث فيما بعد عن دور « المحتسب » ونقابات الحرف في تقدم المصنوعات الاسلامية •

(٢) نذكر من هذه الاحاديث على سبيل المثال قول النبي صلوات الله عليه • « لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فانها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة » • وقوله ايضا : « الذي يشرب في اناء الفضة انما يجرجر في بطنه نار جهنم » • (راجع صحيح البخارى كتاب الاطعمة (ب ٢٧) وكتاب الاشربة (ب ٢٧) • طبعة بولاق سنة ١٣١٤هـ •

(٣) على الرغم من هذه الاحاديث النبوية ، فقد كان هناك فريق من الناس لم تحترمها بدليل اشارة المراجع التاريخية الى ما كان لدى الخلفاء والامراء من أواني الذهب والفضة ، ويكفى ان نذكر على سبيل المثال كنوز المستنصر بالله الخليفة الفاطمي ــ التي اشار اليها المقريزي في خططه •

المسلمون الاواني المختلفة كما صنعوا منها ايضا «القراميد» او الكاشي كما يسمى في العراق، واقدم مثال لهذه القراميد تلك التي تزين محراب المسجد الجامع في مدينة القيروان بتونس وهي من صنع العراق •

وفي الصور المنشور هنا مثال جميل لصحن قلد به الخزاف العراقي البورسلين الصيني وزينه بالكتابة وبالزخرفة النباتية (شكل ٤٧) • واناء من الخزف ذي البريق المعدني عليه صورة فارس (شكل ٤٨) • وبلاطة نجمية الشكل (كاشى) من هذا النوع (شكل ٤٩) •

التحف الزجاجية

والزجاج كان معروفا لدى القدماء، وورث العرب طرق عمله، وطرق صناعة التحف منه، واضفوا على هذه التحف جمالا لم يكن لامثالها من قبل، فمنذ اهتدى الانسان الى عمل الزجاج في العصور القديمة لم تتغير طريقة صنعه او طريقة زخرفته، حتى جاء المسلمون، وساروا في أول أمرهم على النهج القديم الذي كان مألوفا قبلهم، واستخدموا نفس الاساليب التي كانت معروفة على عهدهم، ولكنهم كانوا أكثر اقبالا ممن سبقهم على استعماله، لعنايتهم الكبيرة بالعطور الطيبة جريا على سنة نبيهم الكريم الذي كان يعنى بالطيب عناية خاصة، وتمشيا مع توجيه فقهاء المسلمين الذين حضوا على التطيب • كما انهم أيضا اشتغلوا كثيرا بالعلوم الكيميائية، الأمر الذي جعل حاجتهم شديدة الى الاواني الزجاجية لاستخدامها في عمل التجارب الكيميائية، ونقل السوائل من وعاء الى وعاء • هذا الى ان الزجاج في حد ذاته قد استهواهم برونقه ونقائه، ويكفي ان نثبت هنا فقرة جاءت في كتاب مطالع البدور في منازل السرور للغزولي ــ أحد كتاب العصور الوسطى ــ اذ يقول : « فالشراب فيه (اي في الزجاج) احسن منه في كل جوهر، لا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقل في اليد ••• فقدور الزجاج اطيب من قدور الحجارة، وهي لا تصدأ، ولا تندى، ولا يتخللها وسخ • وان اتسخت فالماء وحده لها جلاء، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة، ومن كرع فيه بشرب فانما يكرع في اناء وماء وهواء وضياء » •

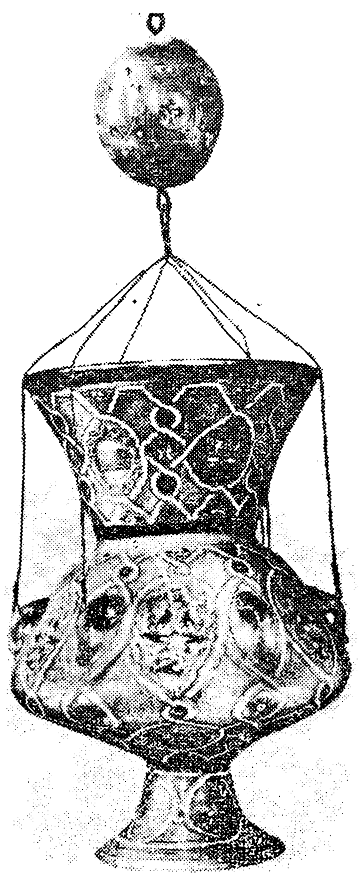
وقد أمدتنا الحفائر الاثرية التي قامت في المدن الاسلامية القديمة، كما أمدتنا المساجد التي لم يعبث باثاثها عابث ــ بامثلة كثيرة من التحف الزجاجية التي صنعها اجدادنا في العصور الوسطى معظمها قطع صغيرة من أواني كبيرة،

واقلها تحف كاملة ، وبعضها يدل على أننا في العصور الوسطى أحسنا تقليد القدماء في هذه الصناعة ، وبعضها ينطق باننا تفوقنا على القدماء فيها ، فابتكرنا طرقا جديدة في زخرفة الزجاج لم تكن معروفة من قبل منها طريقة التذهيب ، وطريقة الترصيع بالمينا •

أما طريقة التذهيب فقد عرفت لاول مرة في مصر في العصر الفاطمي ، اذ أشار المقريزي في خططه الى ما كان في خزائن الخلفاء الفاطميين من الاواني الزجاجية المموهة بالذهب ، وامدتنا حفائر مدينة الفسطاط بقطع كثيرة من هذا النوع معروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة •

وأما طريقة الترصيع بالمينا فهي من الطرق التي حذقها اهل العراق في مدينة الرقة ، ثم ذاعت في اجزاء أخرى من العالم الاسلامي مثل حلب ودمشق والقاهرة •

وقد كشفت الحفائر الاثرية في مدينة الرقة عن قطع كثير من الزجاج مزينة بهذه الطريقة من أهمها » كوب (أو على الاصح جزء من كوب) ، معروض في متحف «تشيليني كيوسك» في أسطنبول يزدان بزخارف مختلفة من بينها صور آدمية لها طابع خاص امتازت به مدينة الرقة • ولقد نافست حلب ودمشق مدينة الرقة في هذه الصناعة وأصبحت لهما شهرة واسعة فيها بعد ان غمرا اسواق الشرق والغرب بما صنعته أيديهم من هذه التحف الزجاجية المموهة بالمينا • وعرفت مصر ايضا هذه الطريقة في زخرفة الزجاج ، وكشفت حفائر الفسطاط فيها عن قطع صغيرة كثيرة ترجع ــ على أساس زخارفها ــ الى العصر الايوبي ، والمملوكي •



شكل (٥٠)

وقد ابدعت من الزجاج المموه بالمينا تحفا جميلة رائعة وصل الينا منها لحسن

انحظ ـ عدد ليس بالقليل ونعني به تلك المصابيح الزجاجية التي كانت تستعمل في المساجد والمدافن والقصور • وهي تعرف عادة بأسم « المشكاوات » [1] •

ولكن تُرى ما هي هذه الطريقة التي ابتكرها اجدادنا في العصور الوسطى لزخرفة التحف الزجاجية ويطلق عليها عادة « التمويه بالمينا » ؟

تتلخص هذه الطريقة في رسم الزخارف المختلفة من عناصر نباتية ، وهندسية ، وحيوانية ، وكتابية على جدران الاواني الزجاجية بمادة مكونة من أكاسيد مختلفة ، وقطع صغيرة من الزجاج تسحق معا ثم تخلط بمادة زيتية ، ويتحول هذا المزيج الى سائل بواسطة التسخين الى درجة معينة حتى يصبح صالحا للرسم به • وتختلف الوان هذا السائل باختلاف الاكاسيد التي تستعمل فيه : فأكسيد النحاس مثلا يعطي اللون الاحمر ، وغيره من الاكاسيد يعطي الوانا أخرى وهكذا • وترسم بهذا السائل الزخارف على الأواني ، ويلاحظ انه بعد ان يجف تبدو الرسوم وهي بارزة بروزا خفيفا على سطح الاواني • والصورة المنشورة هنا (شكل ٥٠) تمثل واحدا من هذه المصابيح الملونة موجودة في المتحف الاسلامي بالقاهرة ، ويبدو فيه التمويه بالمينا واضحا • وقد تعلم منا الايطاليون هذه الطريقة وقلدوا بعض المصابيح الزجاجية وزينوها بهذه الطريقة مستعملين العناصر الزخرفية الاسلامية ، ووصلت الينا أمثلة مقلدة معروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، ولكنهم لم يحذقوا هذا التقليد ، ونظرة عابرة الى هذه المصابيح المقلدة كافية لأن تكشف عن زيفها •

التحف المعدنية

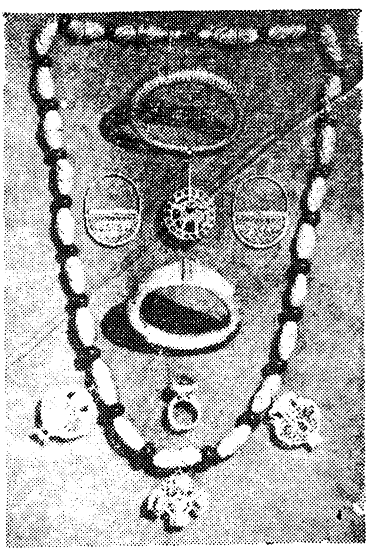
والتحف المعدنية ، بصفة عامة ، سواء ما كان منها سابق على الاسلام او لاحق له ، قليلة للغاية اذا ما قيست بغيرها من التحف ، ذلك لأنها عادة تصهر

---

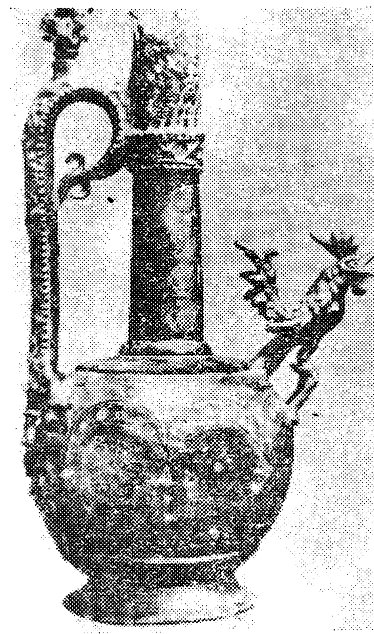
(١) المشكاة في اللغة تعني كل كوة غير نافذة او كل ما يوضع فيه ، او عليه المصباح • واغلب الظن ان اطلاق كلمة « المشكاوات » على المصابيح الزجاجية انما جاء من الآية الكريمة التي نراها منقوشة على معظم هذه المصابيح وهي : **«مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب دري ••»** وهذه الآية صريحة في ان المشكاة ليست المصباح ، وهذا هو ما نجده في هذه المصابيح الزجاجية ، اذ المصباح الذي ينبعث منه النور موجود داخل هذا الجسم الزجاجي •

ويعاد تشكيلها عبر العصور ، ومن هنا كان من الصعب ان نجد منها سلسلة متماسكة الحلقات ، تمثل التطور في صنعها خلال عصور الانسانية المختلفة ، بل كثيرا ما تعترضنا حلقات مفقودة نستعين بخيالنا على تصورها •

ومنذ أهتدى الانسان الى المعادن ، واستخرجها من باطن الارض ، وعرف طريقة استخلاصها مما علق بها من شوائب ، وولّد من بعضها البعض معـــادن جديدة مثل البرونز الذي هو خليط من النحاس الاحمر والزنك ، والفولاذ الذي هو من الحديد المخلوط ببعض المواد ، أخذ يستخدمها الانسان في مصنوعاته المختلفة من أسلحة ، وحلى ، وأواني شتى •



شكل (٥٢)



شكل (٥١)

وعرف العرب قبل الاسلام وبعده مختلف انواع المعادن ، واتخذوا منها السلع المتباينة ، وأرتقوا بصناعتها كدأبهم في كل صنعة يرثونها عن الاولين • ولكن الذي يؤسف له ان الامثلة التي وصلت الينا منها قليلة للسبب الذي اوضحناه من قبل • على أن ما افلت من هذه الامثلة من الانصهار ، او ساعدت عوامـــل

مختلفة على أن تشق طريقها الينا ، كاف لكي يعطينا فكرة واضحة عن أثر اجدادنا من المسلمين في هذه الصناعة ٠

ففي مجال الاسلحة نلاحظ ان العرب قد أبدعوا في صناعة السيوف ، والتروس ، والخوذات ، والدروع ٠

واذا قصرنا كلامنا هنا على السيوف وحدها رأينا ان كتب الادب ، وكتب التاريخ قد افاضت في وصف السيوف ، وعددت اسماءها ، ويكفينا نحن ان نذكر واحدا منها ، له مكانته المرموقة بين السيوف جميعا هو « ذو الفقار » (١) سيف النبي صلوات الله عليه ، الذي غنمه في موقعة بدر ، وقد كان لهذا السيف في نفس الرسول الكريم مكانة ممتازة دون باقي سيوفه الكثيرة التي ذكرت كتب السيرة اسماءها ، فكان لايفارقه في حرب من حروبه ٠ وقد انتقل هذا السيف بعد وفاة النبي الى الامام عليّ كرم الله وجهه ، ثم صار بعده الى بنيه (٢) ٠

وقد وصلت الينا أمثلة من السيوف الاسلامية ، تنم بطريقة صنعها وزخرفتها عن مدى تقدم المسلمين في هذا الميدان ، وهي موزعة بين المتاحف المختلفة نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة : واحد في أسطنبول ، وواحد في مدريد ، وواحد في القاهرة ٠

اما الاول فمعروض في متحف طوب قابوسراي في أسطنبول ، وهو ينسب الى الخليفة الاموي معاوية ابن ابي سفيان ، ولكنه توجد على أحد وجهيه كتابة منقوشة تتضمن اسماء معاوية ، عمر بن عبدالعزيز ، هارون الرشيد ٠ وعلى الوجه الآخر أسم السلطان قايتباي (أحد سلاطين المماليك في مصر) ٠ ووجود هذه الاسماء المختلفة على هذا السيف يمكن ان يفسر بانه قد وجد طريقه الى هؤلاء الخلفاء والسلاطين بعد معاوية عن سبيل الوراثة او الشراء (٣) ٠

وأما السيف الثاني فمعروض في المتحف الحربي في مدينة مدريد ، وهو

---

(١) سمي بهذا الاسم بسبب حزوز في وسطه أشبه ما تكون بفقرات العمود الفقرى ٠

(٢) من اراد أن يدرس في شيء من التوسع موضوع السيف الاسلامي يمكنه ان يرجع الى البحث القيم الذي وضعه الدكتور عبدالرحمن زكي بعنوان : « السيف في العالم الاسلامي » ــ وقد نشرته بالقاهرة مؤسسة المطبوعات الحديثة ٠

(٣) انظر الصفحات رقم ٧ ، ٨ ، ١٢٤ ، ١٨٣ و (شكل ١٨ و ١٩) من المرجع السابق ٠

معروف بأنه سيف ابي عبدالله آخر ملوك غرناطة في الاندلس ، ويزدان بنقوش وكتابات عربية [١] •

وأما السيف الثالث فمعروض في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، وعليه كتابة عربية تتضمن أسم السلطان الغوري آخر سلاطين المماليك في مصر [٢] •

وفي مجال الحلي نلاحظ ان الحلى الاسلامية لاتكاد تختلف كثيرا في شكلها عن الحلى القديمة ، وهي كذلك قريبة الشبه جدا من الحلى التي تستعملها النساء في عصرنا الحاضر ، ولا عجب في ذلك فالتطور في الحلى بطيء للغاية •

وقد تفنن المسلمون في صياغة الحلى ، وابدعوا في تشكيلها ابداعا ينتزع الاعجاب من كل من يراها فرصعوها بالاحجار الكريمة ، وبالمينا ، وزينوهـــا بالحفر والتخريم •

وقد وصلت الينا امثلة قليلة منها موزعة على المتاحف والمجموعات الخاصة نذكر منها على سبيل المثال المجموعة التي عثر عليها في حفائر الفسطاط والمنشورة صورتها هنا (شكل ٥٢) •

ولعل خير وسيلة نستعرض بها باقي ما وصل الينا من تحف معدنية ان نتناولها من حيث وظيفتها التي كانت تستخدم فيها ، فنذكر ما كان شائعا منها في المدارس والمكتبات ، وما كان مستعملا في المنازل والقصور ، ونختم استعراضنا هذا ، بالكلام على وسائل الاضاءة •

اما التحف المعدنية التي كانت مستعملة بكثرة في المدارس والمكتبات فنذكر منها المحابر ، وصناديق المصاحف ، والاسطرلابات •

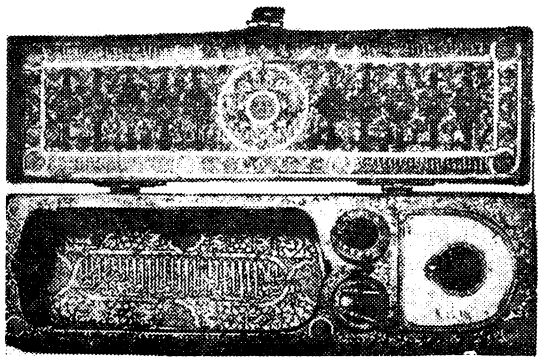
والمقصود بالمحبرة او الدواة ذلك الصندوق المقسم الى اقسام مختلفة منها ما توضع فيه الاقلام ، ومنها ما يوضع فيه الحبر ، ومنها ما يوضع فيه الرمل الذي يستخدم لتجفيف الكتابة ومنها ما يوضع به النشا الذي يستعمل في اللصق • وقد كانت المحابر من الزم ما يحتاج اليه النساخ في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة في الشرق • وقد وصلت الينا منها أمثلة جميلة نذكر واحدة منها معروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة تحمل أسم السلطان منصور محمد

(١) انظر ص ٨٦ و ٨٧ و (شكل ٧ ، ٨) من المرجع السابق •

(٢) انظر ص ١٢٦ من المرجع السابق •

حفيد السلطان المشهور الناصر محمد بن قلاوون[١] ، وهي تعد من أروع ما انتجه الصناع المسلمون من النحاس المكفت بالفضة [٢] (شكل ٥٣) •

وصناديق المصاحف كانت عادة تصنع من الخشب الذي يصفح بالنحاس المزخرف بشتى أنواع الزخارف من حفر وتكفيت[٣] • ومن أروع أمثلتها صندوق موجود في مكتبة الجامعة الازهرية بالقاهرة ، يحمل كتابة تاريخية تتضمن تاريخ صنعه سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) وأسم صانعه ، ويتجلى فيه جمال فن التكفيت[٤] بالذهب وبالفضة بصورة رائعة •



شكل (٥٣)

والاسطرلابات[٥] هي الآت فلكية اخترعها قدماء اليونان ، وحسنها المسلمون في العصور الوسطى ، وعنوا بصنعها لاهتمامهم بعلوم الفلك نظرا للارتباط الوثيق بين الظواهر الفلكية واحكام الشريعة الاسلامية ، فهي تستخدم في تحديد اوقات الصلاة ، وتعيين مكان القبلة ، وتقدير عرض الانهار وعمق البحار [٦] ومن

(١) راجع عن تاريخ هذا السلطان العظيم كتابا للمؤلف بعنوان « الناصر محمد بن قلاوون » من سلسلة اعلام العرب التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بالقاهرة (رقم ٢٨) •

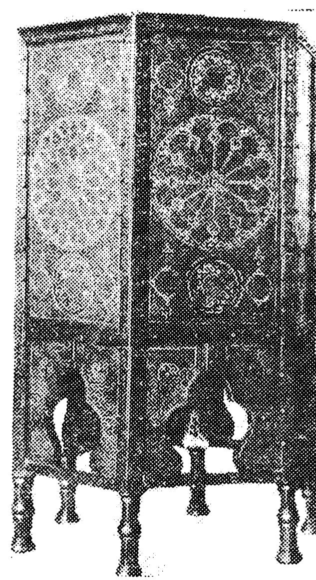
(٢) ، (٣) ، (٤) سوف نشرح المقصود بالنحاس المكفت ، ونتحدث عن فن التكفيت في ختام الكلام على التحف المعدنية •

(٥) انظر صورة الاسطرلاب في كتاب « الفن الاسلامي في العصر الايوبي » للمؤلف ص ٦٥ •

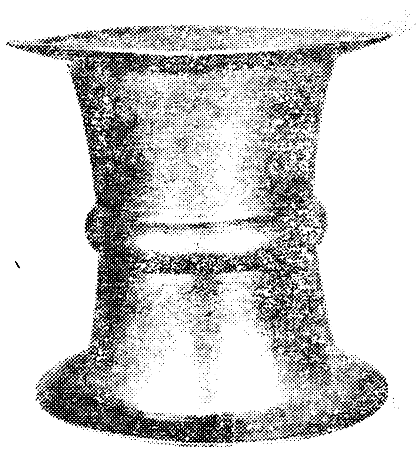
(٦) هناك بحث قيم عن الاسطرلاب للاستاذ احمد مختار صبري ، منشور في مجلة كلية الهندسة بجامعة القاهرة في سنة ١٩٤٧ •

أحسن امثلتها اسطرلاب من النحاس مزين بزخارف محزوزة ومكفتة بالفضة تمثل صوراً آدمية وحيوانية وهو معروض في المتحف البريطاني في لندن وعليه كتابة نصها : « صنعة عبدالكريم المصري الاسطرلابي بمصر ، الفلكي الاشرفي الملكي المعزى الشهابي في سنة خلج عفا الله عنه » . ويستلفت النظر في هذا النص كلمة « خلج » التي قد يستعصى على كثير من الناس فهمها ، ولكن المشتغلين بالآثار الاسلامية يعرفون انها تمثل تاريخ صناعة هذا الاسطرلاب ، وقد كتب هذا التاريخ بحساب الجمل ، وهو يعني سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م)[١] .

اما التحف المعدنية التي كانت أكثر ما تستعمل في المنازل والقصور فنذكر منها الموائد (شكل ٥٤ ، ٥٥) ، والصواني ، والاباريق (شكل ٥١) ، والمواقد ،



شكل (٥٤)



شكل (٥٥)

---

(١) حساب الجمل يكون على النحو الآتي :

أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤ ، هـ = ٥ ، و = ٦ ، ز = ٧ ، ح = ٨ ، ط = ٩ ، ي = ١٠ ، ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠ ، ص = ٦٠ ، ع = ٧٠ ، ف = ٨٠ ، س = ٩٠ ، ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠ ، ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ذ = ٧٠٠ ، ض = ٨٠٠ ، ظ = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠ .

والاهوان ، والمباخر (شكل ٥٨) ، والمزهريات ، والمرايا ، والطاسات ، والعلب ، والاواني •

والموائد كانت تعرف عادة بأسم الكراسي [١] ، وقد كانت على نوعين : موائد مرتفعة توضع عليها عادة ادوات الاضاءة ، وموائد منخفضة توضع عليها عادة الصواني التي يقدم عليها الطعام ، والاولى كانت تصنع من النحاس ، وفي بعض الاحيان من الخشب • والثانية كانت كذلك من النحاس ، وفي بعض الاحيان من الخزف • ومن أروع امثلة الاولى ما نراه في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، وهي على هيئةمنشور مسدس الاضلاع ، ومصنوعة من النحاس المكفت بالفضة ، ومزينة بالتخريم وعليها كتابات تاريخية تتضمن القاب السلطان الملوكي الناصر محمد بن قلاوون ، ونرى صورتها هنا (شكل٥٤) • والمائدة الصغيرة من أحسن أمثلتها مانراه كذلك في المتحف السالف الذكر ، وهي على هيئة اسطوانة ، قطر فتحتها العليا والسفلى أوسع من قطرها في الوسط ، وهي تحمل اسم السلطان أحمد بن السلطان الناصر السالف الذكر ، ولها صورة منشورة مع هذا الكلام (شكل ٥٥) •

والصواني التي وصلت الينا بعضها مصنوع من الفضة مثل الصينية المعروضة في متحف الفنون الجميلة في بوسطن وهي تزدان بزخارف نباتية وكتابة عربية باسم السلطان الب ارسلان[٢] • ومنها ما هو مصنوع من البرونز ومنأروع امثلتها واحدةمعروضة فيمتحف (فردناندم) بأنسبروك في النمسا وتزدان بزخارف منزلة بالمينا المتعددة الالوان بين صور آدمية ، وطيور ، وحيوانات ، وزخارف نباتية وهي تحمل اسم أحد سلاطين بني ارتق (ركنالدولة داود بنارتق) الذي كان يحكم في آمد ، وحصن كيفا بشمال العراقحواليسنة٥٤٣هـ(١١٤٤م)• وفي متحف المتروبوليتان في مدينة نيويورك ، صينية تحمل كتابة تتضمن

---

(١) هذه الموائد او الكراسي ــ كما هي معروفة عند الاثريين لا تزال موجودة في الارياف وتسمى عادة « كرسى عشاء » وقد كانت شائعة قبل ان تغزونا الحضارة الاوربية باثاثها ، ويصبح في منازل الكثيرين منا غرف خاصة للطعام ، بها الموائد الكبيرة التي توضع حولها الكراسي المعدة للجلوس •

(٢) انظر صورتها في الشكل رقم ٤٥٩ من اطلس الفنون الزخرفية الاسلامية للمرحوم الدكتور زكي حسن •

أسم احد سلاطين اليمن ، وما يفيد انها صنعت في القاهرة على يدي حسين بن احمد ابن حسين الموصلي • واشتغال هذا الصانع الموصلي الاصل في القاهرة يذكرنا بما وقع لمدينة الموصل ـ تلك المدينة التي برعت في فن تكفيت المعادن ـ من كارثة الغزو المغولي الذي دفع بكثير من صناع المعادن فيها الى الهجرة ، وقد قصدوا فيما قصدوا مصر للعمل فيها ، وقد نقلوا معهم اساليبهم الفنية في صناعة التحف المعدنية •

والاباريق من أحسن ما اشتهرت الموصل بصنعه ، ومن أروعها ابريق من النحاس الاصفر معروض في متحف المتروبوليتان ، وهو يمثل أسلوب مدرسة الموصل على أحسن وجه ، فيزدان سطحه بزخارف غاية في الدقة والجمال نشهد فيها مناظر الصيد واللهو ، كما ان به كتابات عربية تتضمن اسم الصانع وتاريخ الصنع وهو سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦) • ولقد وصلت الينا ايضا اباريق مصنوعة من الفضة ترجع الى أوائل العصر الاسلامي وهي معروضة في متحف الارمتاج بمدينة لينيجراد في الاتحاد السوفييتي • وأباريق من البرونز ، ترجع كذلك الى أوائل العصر الاسلامي من أهمها واحد معروض في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ينسب الى مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الاموية في دمشق (شكل ٥١) •

ولم يصل الينا من المواقد ، والاهوان ، والمباخر ، والمزهريات ، والمرايا الا امثلة قليلة • ولعل المرايا تحتاج من بين هذه التحف الى وقفة قليلة عندها نظرا لاختلافها عن المرايا التي نستعملها الآن ، فقد كانت من المعدن المصقول ، وكانت عادة تسبك او بعبارة اخرى تصب في القالب لكي تبدو فيها الزخارف البارزة ، ومن أحسن امثلتها واحدة معروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة تحمل تاريخ صنعها سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) ، وتزدان بصور الابراج الفلكية •

أما الاواني المعدنية الاخرى فتختلف في اشكالها ، فمنها الصحون المسطحة او العميقة ذات الجوانب ، ومنها الطشتيات(١) • ومعظم هذه الاواني مصنوع من البرونز ، أو النحاس ، والقليل النادر منها مصنوع من الفضة ، وأهم ما يستلفت النظر

---

(١) الطشتيات أواني من النحاس مستديرة الشكل ، فتحتها اضيق من قاعها ولذلك تكون منبعجة من أسفل ، وفي بعض الاحيان يكون قطر الفوهة وقطر القاع متساويين وتكون جدرانها قائمة وشفتها العليا منحنية الى الخارج •

في هذه الاواني الاسلامية ان بعضها قد اكتسب صفة دينية مسيحية ، مثل « طشتية تعميد القديس لويس » وهي معروضة في متحف اللوفر وتحمل اسم صانعها العربي . ونسبتها الى القديس لويس يفسر بان هذه التحف الاسلامية عندما وجدت طريقها الى أوربا في العصور الوسطى أثارت في نفوس الاوربيين دهشة عظيمة عندما تأملوها وقارنوا بينها وبين ما كانت تنتجه مصانعهم فآثروا ان يستخدموا هذه التحف الاسلاميةفي اعز شيء عندهموهو مايتصل بعقيدتهم، والتعميد من اسرار الديانة المسيحية ، ومن هنا استخدمت هذه الطشتيةلهذا الغرض . وبعض هذه الاواني المعدنية يزدان بصور دينية مسيحية مستمدة من حياة السيد المسيح ، ومن اروع التحف المعدنية التي يتجلى فيها ذلك طشت معروض في متحف فرير في واشنجطن يزدان فيما يزدان به بصورة البشارة ، وصورة العذراء والطفل ، وصورة الهروب الى مصر ، وصورة احياء الابرص ، وصورة الدخول الى أورشليم ،وصورة العشاء الرباني . وقد أثارت هذه الصور نقاش علماء الآثار الاسلامية . هل صنع هذا الطشت صناع من العرب لكي يقدم الى عظيم من عظماء المسيحيين في الشرق ، أم صنعه صناع من العرب لكي يصدر الى الغرب المسيحي ، ام صنعه صناع من مسيحي الغرب الذين تعلموا صناعة التحف المعدنية في الشرق ؟ اسئلة كثيرة لانملك لها جوابا قاطعا ولكننا نرجح ان مثل هذه الاواني قد صنعها صناع من المسلمين في الشرق ، ولا يتعارض هذا مع الصور المسيحية التي على هذه الاواني لانه ليس فيها ما يتنافر مع عقيدة المسلمين عن السيد المسيح ، وعن المسيحية ، بل كل ما وصل الينا من تحف معدنية من هذا القبيل صورها تتفق وتاريخ السيد المسيح كما جاء في القرآن الكريم ، والى الآن لم يعثر على تحفة معدنية من العصر الاسلامي عليها صور تمثل السيد المسيح مصلوبا ، الامر الذي لا يؤمن به المسلمون .

اما وسائل الاضاءة المصنوعة من المعدن فاهمها المسارج ، والشمعدانات (شكل ٥٦) والثريات (شكل ٥٧) . والمسارج كان معظمها يصنع من الخزف والقليل منها يصنع من المعدن ، ولم تتغير أشكالها كثيرا عما كانت عليه قبل الاسلام. وأما الشمعدانات الاسلامية فلها اشكال مختلفة ، ولكن أكثرها شيوعا ما كان مكونا من قاعدة على هيئة هرم ناقص ، وفي وسطها من أعلى عمود قصير اسطواني

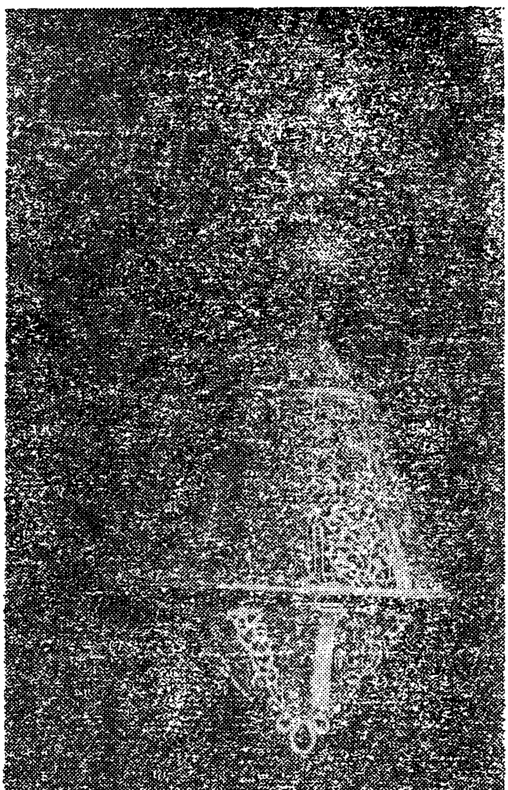
ينتهي من أعلى بموضع الشمعة ، ومن أحسن أمثلة هذه الشمعدانات واحد معروض في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة مصنوع من النحاس ومكفت بالفضة يعرف بشمعدان « ابن فتوح » وهو يزدان بصور من الحياة الاجتماعية من مناظر طرب



شكل (٥٦)

ورقص وصيد ، وبه كتابات عربية تتضمن اسم الشخص الذي نقشه وهو ابن فتوح الموصلي (شكل ٥٦) .

واما الثريات وهي تعرف كذلك بالتنانير (جمع تنور) فان متحف الفن الاسلامي بالقاهرة يفخر بحيازة أكبر مجموعة منها ، وهي تجلو للناظر جمال فن صناعة البرنز في أروع صورها ، ومعظمها يجمع بين الزخرفة والكتابة التاريخية التي ترجعها الى عصر المماليك • ومن أجمل الثريات الاسلامية واحدة معروضة في متحف الآثار بمدينة مدريد (شكل **٥٧**) اصلها من مسجد الحمراء ـ الذي زال من الوجود ـ وهي تزدان بزخارف نباتية مفرغة ، وكتابة عربية تشير الى أنها صنعت بأمر السلطان محمد الثالث سنة **٧٠٥**هـ (**١٣٠٥**م) •



شكل (٥٧)

وفي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة مجموعة مختلفة الاشكال من الفوانيس المعدنية التي كانت مستعملة في المنازل والقصور •

وقبل ان نختم الكلام على التحف المعدنية نحب ان نشير الى كلمة تردد ذكرها في ثنايا هذا البحث هي « التكفيت » او التنزيل ، وهي طريقة من طرق زخرفة التحف المعدنية تتلخص في ان تحفر الزخارف على سطح الآنية المراد زخرفتها حفراً عميقا ثم يملأ هذا الجزء المحفور بالفضة او الذهب ، او المينا او النحاس الاحمر • ولقد كان لايران ، في فجر الاسلام ، فضل زخرفة اقدم تحفة



شكل (٥٩)



شكل (٥٨)

أسلامية بهذه الطريقة ، اذ وصلت الينا منها بعض الاباريق البرنزية وبها تكفيت بسيط بالنحاس الاحمر ، وتعد تلك الاباريق المكفتة باكورة انتاج الفن الاسلامي في صناعة التكفيت • ثم تقدمت ايران في هذه الصناعة ووصلت منها أروع تحفة اسلامية من البرنز • صنعت في مدينة هراة بايران (شكل **٥٩**) ، وكفتت الزخارف فيها بالنحاس الاحمر وبالفضة ، وتضمنت زخارف شتى من مناظر الرقص ، والطرب ، والصيد ، والشراب ، كما تضمنت ايضا كتابات بالخط الكوفي ، والخط النسخي ، ورد فيها اسم الصانع « محمد بن عبدالواحد » ، وأسم المكفت « حاجب مسعود بن احمد النقاش » ، وتاريخ الصنع سنة **٥٥٧**هـ **(١١٦٣م)** • ولعل اهم

ما يستلفت النظر في هذه التحفة[1] هو الاسراف في خلق الزخارف من الحروف العربية فقد شاءت عبقرية الفنان ان يجعل رؤوس الحروف على هيئة الرؤوس الآدمية والحيوانية •

ويعرض لنا الآن سؤال هو هل طريقة التكفيت هذه من ابتكار المسلمين أم هي موروثة عن الامم السابقة على الاسلام ؟

والجواب على هذا السؤال اجابة جامعة مانعة ـ كما يقول رجال المنطق ـ أمر من الصعوبة بمكان ، ذلك لأن العادة قد جرت بصهر الاواني المعدنية كلما تقادم بها العهد لكي تصب في اشكال جديدة ، تتمشى مع روح العصر ، ولم يفلت من ذلك الا القليل • ويقول المقريزي انه في عصره (أي في القرن الخامس عشر الميلادي) كان بعض الناس يشترون النحاس المكفت ، ويأخذون الكفت منه طلبا للفائدة ، ولا يبعد ان هذه الطريقة التي يشير اليها المقريزي قد اتبعت ايضا قبل عصره وفقدنا بسببها أمثلة كثيرة كانت تساعدنا على الاجابة على هذا السؤال • ولكن الذي لا شك فيه ان الشرق في العصور القديمة قد عرف طريقة التكفيت ، وان المسلمين قد استعملوا هذه الطريقة على قلة في أول الامر ، وكان تكفيتهم بسيطا غير معقد ، ثم ارتقوا بهذه الصناعة فظهرت واضحة جلية في مقلمة معروضة في متحف الارمتاج بمدينة لينيجراد وتحمل كتابة عربية وفارسية تتضمن تاريخ صنعها ٥٤٢هـ (١١٤٨م) ، ثم زاد هذا الرقي والتقدم حتى ظهر بصورته الرائعة في سطل هراة السالف الذكر • وعلى أساس هذين المثالين المؤرخين نستطيع ان نقول ان التكفيت في العصر الاسلامي انما عرف أول ما عرف في ايران ، ومنها

---

(١) اطلق ديماند على هذه التحفة اسم Kettle ، وترجمها الاستاذ أحمد عيسى بكلمة « تنكة » • وترجمها الدكتور احمد موسى في الكتاب الذي ترجمه عن كونل بعنوان « الفن الاسلامي » بكلمة « قدر » ، وكلا الكلمتين فيهما لبس ، فالتنكة في مفهومنا شيء غير هذه التحفة ، وكذلك القدر ، ولعل أقرب تعبير صحيح عن هذه التحفة هو كلمة « سطل » •

انتشر في انحاء شتى من العالم الاسلامي ، ولقد كانت الموصل من البلاد التي هاجر اليها كثير من صناع المعادن في ايران على أثر غارة المغول عليها ، فنفخوا في هذه الصناعة من روحهم فتقدمت في الموصل تقدما منعدم النظير ، ثم امتدت غارات المغول الى الموصل نفسها فهاجر صناع المعادن منها ــ كما ذكرنا من قبل ــ الى شمال الشام ، والى مصر ، ونشروا فيها أسرار هذه الصناعة •

وليس من المستبعد ان يكون للدين الاسلامي أثر في تقدم فن التكفيت وانتشاره فتلك الاحاديث النبوية التي كرهت الناس في استعمال الاواني المتخذة من الذهب او الفضة والتي اشرنا اليها من قبل [1] جعلت الصناع يجدون في طريقة التكفيت ما يحقق الجمال الفني الذي يهدفون اليه في مصنوعاتهم ، فالواقع ان هذه الطريقة تضفي جمالا رائعا على الاواني المعدنية لا يتحقق لها اذا كانت مصنوعة من الذهب الخالص او الفضة الخالصة •

وقد كان للتكفيت سوق خاصة به في القاهرة في العصور الوسطى ، اشار اليها المقريزي في خططه قائلا : « ويشتمل (سوق الكفتيين) على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة ، وكان لهذا الصنف من الاعمال بديار مصر رواج عظيم » • ولا يزال الى اليوم بالقاهرة في خان الخليلي ، سوق للتكفيت يستطيع ان يشاهد فيه الانسان طريقة هذه الصناعة التي لم تعد لها نفس القوة التي كانت عليها يوم كان للناس في الاواني المكفتة رغبة عظيمة •

التحف المصنوعة من الخشب والعاج

وقد وصلت الينا من العصور الوسطى تحف مصنوعة من الخشب ، وتحف مصنوعة من الخشب ومطعمة بالعاج ، وتحف مصنوعة من العاج وحده •

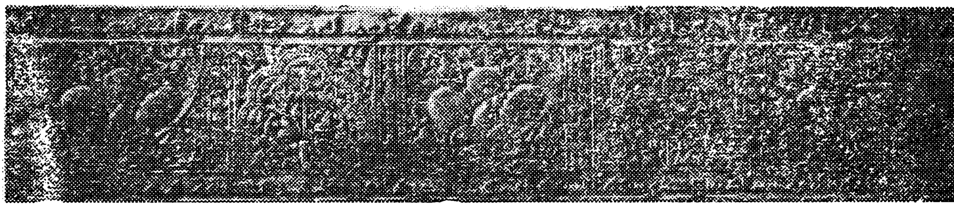
اما الخشب فقد سرنا في زخرفته على نفس النهج الذي كان مألوفا من قبل عند البيزنطيين والساسان فزينه اجدادنا بالتلوين ، وبالحفر ، وبالتطعيم ثم ابتكروا

---

(١) انظر ص ١٣٠ والهامش رقم ٢ من تلك الصفحة من هذا الكتاب •

طريقة التجميع ، وطريقة الخرط .

اما التلوين فلا يحتاج منا الى شرح . واما الحفر فقد كان قبل الاسلام عميقا ، واستمر كذلك في العصور الاسلامية السابقة على تأسيس سامراء . وفيما بقى لنا من اخشاب قديمة في مسجد عمرو بالفسطاط ، وفي منبر المسجد الجامع بالقيروان الذي يرجع الى عصر هارون الرشيد ويعد من أروع التحف الخشبية التي وصلت الينا من صناعة بغداد[1] . كما يتجلى لنا هذا الحفر العميق ايضا



شكل (٦٠)

في قطع كثيرة : بعضها عثر عليه في حفائر الفسطاط ونراها في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة (شكل ٦٠) ، وبعضها عثر عليه في مدينة تكريت بالعراق وهي معروضة في متحف المتروبوليتان بنيويورك . ثم ابتكر اجدادنا طريقة جديدة في الحفر على الخشب هي طريقة الحفر المائل التي ظهرت اول ما ظهرت في سامراء ، ثم انتشرت وذاعت في أرجاء العالم الاسلامي ووصلت الينا منها امثلة كثيرة نذكر منها بابا معروضا في متحف المتروبوليتان عثر عليه في تكريت ، وقطع كثيرة اظهرتها حفائر الفسطاط ومعروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة (شكل ٦١) . على ان طريقة الحفر المائل هذه لم يكتب لها الاستمرار ، وعاد النجارون مرة اخرى الى الطريقة القديمة ، طريقة الحفر العميق . ولقد تقدمت هذه الطريقة تقدما عظيما على ايدي النجارين المسلمين في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر بعد الميلاد ، وعنى هؤلاء النجارون اكثر

---

(١) انظر صورة هذا المنبر في ص ٤٢ شكل ١٢ من هذا الكتاب ويلاحظ ان المنبر مصنوع من خشب الساج المستورد من العراق واغلب الظن ان الذين عملوا زخرفة بعض حشواته نجارون حضروا من العراق .

ما عنوا بالزخارف الهندسية والنجمية التي اتقنوها اتقانا ينتزع الاعجاب من كل من يراها ، ويكفي للتدليل على ذلك ان نشير الى تابوت الامام الشافعي (في مسجده بالقاهرة) ، وتابوت الامام الحسين بالمتحف الاسلامي بالقاهرة ، [1] والمنبر الموجود في مسجد ابن طولون والذي يرجع الى أواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر .


شكل (٦١)

واما التطعيم فهو أشبه ما يكون بالتكفيت على المعادن الذي اشرنا اليه من قبل [2] وهو يكون بالعاج ، وبالعظم ، وبالابنوس ، وبالقصدير ، وبالصدف ، وبانواع غالية من الخشب ، وقد كان معروفا قبل الاسلام ، وورث المسلمون طريقته عن الامم القديمة ، وحسنوا فيها حتى بلغت على ايديهم درجة عالية من التقدم تشهد بها تلك التحف التي وصلت الينا والمعروضة في المتاحف المختلفة ، ولا تزال صناعته قائمة في مصر والشام ، وزيارة واحدة الى خان الخليلي بالقاهرة تكفي لاثبات ان تقاليد اجدادنا في هذه الصناعة لاتزال حية ، يرعاها ابناؤهم بدقة فائقة ، ولا تقل دمشق اتقانا لهذه الصناعة عن القاهرة .

واما التجميع والتعشيق[3] فيتجلى لنا في تحف كثيرة نذكر منها على سبيل المثال تابوت الامام الشافعي الذي اشرنا اليه اذ نلاحظ ان جوانبه الاربعة مغطاة بحشوات منقوشة بزخارف نباتية دقيقة الصنع ، وهذه الحشوات تكوّن في تجمعها معا وتآلفها اشكالا هندسية من نجوم ومثلثات ، والاجزاء الحابسة لهذه الحشوات

---

(١) انظرة صورة تابوت الامام الحسين وتابوت الامام الشافعي في كتاب « الفن الاسلامي في العصر الايوبي » للمؤلف ص ٢٤ و ٣١ .

(٢) انظر ص ١٤٥ ، ١٤٦ من هذا الكتاب .

(٣) طريقة التجميع والتعشيق هي المعروفة بالانجليزية باسم Panelling وقد ظهرت لاول مرة ، في الغالب ، في العصر الفاطمي ، ثم نضجت وتقدمت في العصر الايوبي وكان هذا ازهى عصورها .

(السدايب) محلاة هي الاخرى بخطوط متوازية زادت هذا التابوت جمالا على جماله • وهذه الطريقة لم تظهر الا منذ القرن العاشر الميلادي ، واغلب الظن انها من ابتكار النجارين المسلمين اذ لم تصل الينا ـ على قدر ما وسعه علمي ـ من العصور السابقة على الاسلام تحف خشبية مزينة بهذه الطريقة • وقد كانت الحشوات في أول الأمر كبيرة الحجم ، ثم اخذت تصغر بالتدريج حتى اصبحت الحشوة الواحدة لاتتجاوز مساحتها سنتيمترا مربعا ان لم يكن أقل من ذلك ، بعد ان كان بعضها تزيد مساحته على ستمائة سنتمترا •

واغلب الظن ان الدافع الى ابتكار هذه الطريقة يتلخص في عاملين : جو معظم البلاد الاسلامية الذي يميل الى الحرارة ، وفقر معظم هذه البلاد في الانواع الجيدة من الخشب •

اما عامل الجو فقد جعل النجار يفكر في طريقة يتفادى بها تشوه الخشب بالتمدد او التقلص بسبب اختلاف الفصول • وقد وجد ان طريقة الحشوات هذه هي خير مايعاونه على تفادى هذا التشويه • ولا ننسى انه يمكن التغلب على تأثر الخشب بالجو اذا ما ترك الخشب قبل نجارته مدة طويلة لكي يكون جفافه تاما فلا يتأثر بالبرد او بالحر بعد تشكيله • وقد ادرك القدماء ذلك فكانوا يتركونه مدة طويلة قبل الاقدام على اتخاذ التحف منه • اما في العصور الوسطى بعد ان زاد عدد السكان عما كان عليه من قبل ، واصبحت الحاجة ماسة الى كثير من المصنوعات الخشبية فلم يعد هناك متسع من الوقت لتجفيف الخشب وجعله صالحا للنجارة ، وعندما لاحظ نجارو العصور الوسطى في الشرق ما ترتب على استعمال الخشب قبل جفافه لجأوا الى فكرة الحشوات التي استطاعوا بواسطتها ان يتركوا فراغا صغيرا يسمح بالتمدد ويحول دون التقوس وبالتالي دون التشويه •

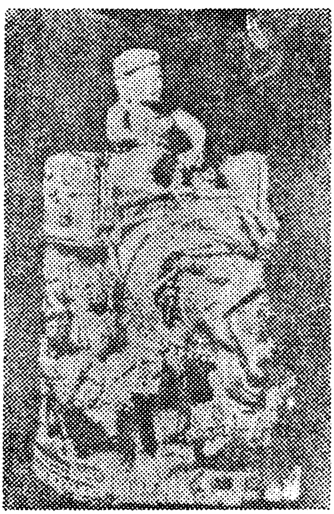
واما عامل الفقر في الاخشاب الجيدة في معظم البلاد الاسلامية فقد حمل النجارين على التدقيق في استعمال الخشب ، وعدم التفريط في اي قطعة منه مهما صغر حجمها فظهرت بذلك طريقة التجميع التي تغلب بها النجار على هذه المشكلة والتي ترتب عليها جمالا فنيا ترتاح الى رؤيته النفس •

وقد ابتكر النجارون المسلمون في العصور الوسطى طريقة اخرى في صناعة الاخشاب هي طريقة الخرط التي تتجلى فيما يعرف بالمشربيات التي كانت ولاتزال تزين واجهات كثير من منازلنا القديمة ، والتي كانت متلائمة مع جو بلادنا الحار فهي تساعد على دخول الضوء اللطيف ، ومرور النسيم العليل فتوفر بذلك في داخل المنازل جوا مناسبا في بلاد اشتهرت بشمسها الساطعة ومناخها الحار •

على ان هذه المشربيات كانت تعاون كذلك على تحقيق بعض اهداف المجتمع الاسلامي في تلك العصور التي كانت تقضي بفرض الحجاب الشديد على النساء ولا تبيح سفورهن ، فهي تمكن النساء من رؤية من بالطريق وتحول دون ان يراهن احد من الخارج •



شكل (٦٢)



شكل (٦٣)

واذا كان العاج قد استعمل في تطعيم التحف الخشبية كما رأينا فقد صنعت منه كذلك تحف جميلة رائعة ، وصل الينا منها امثلة جميلة من صناديق وعلب ، وابواق وقطع شطرنج (شكل ٦٣) •

اما الصناديق والعلب [1] فقد وصل الينا منها عدد ليس بالقليل : من الاندلس وصقلية ، ولعل من أروعها تلك العلبة الاسطوانية الشكل ، ذات الغطاء المقبب

(١) تعرف هذه الصناديق في الكتب الاوربية باسم Caskets ، اما العلب الاسطوانية فتعرف باسم : Cylindrical Pyxides

المعروضة في متحف اللوفر بباريس ، وهي تكشف لنا بزخارفها عن حياة البلاط في الخلافة الأموية بشكل رائع اخاذ ، فنرى عليها مجالس الانس والشراب ، ومناظر الصيد ، وفي اسفل الغطاء المقبب نقرأ نصا عربيا بالخط الكوفي يتضمن اسم المغيرة ابن الخليفة الاندلسي عبدالرحمن الناصر ، كما يتضمن ايضا تاريخ صنعها وهو سنة ٣٥٧هـ (٩٦٧م) • وترى رسم هذه العلبة مع هذا الكلام [١] (شكل٦٢)•

الطنـافس

الطنافس هي الابسطة ذات الخمل ، ولسنا نعرف بالضبط متى اهتدى الانسان الى صنعها ، ولكن أغلب الظن ان اول من اهتدى اليها هم القبائل الرحل النازلة في المنطقة الممتدة من الصين شرقا حتى آسيا الصغرى غربا ، فقد نسجوها على أنوالهـم البدوية ، واتخذوا منها فراشا لأرض خيامهم وستارا لهذه الخيام ، ودثارا يمنحهم الدفء ويقيهم خطر البرد ، كما جعلوا منها سلعة يقايضون بها في الاسواق على ما يحتاجون اليه من مصنوعات وحاجيات شتى •



شكل (٦٤)

وعندما استقر بعض هذه القبائل في المدن ، واخذوا يزاولون هذه الصناعة التي حذقوها ، واستخدامهم الامراء والاغنياء في قصورهم لعمل طنافس خاصة بهم ، وامدوهم بأحسن انواع المواد الخام التي تفتقر اليها هذه الصناعة ، وعهدوا الى أمهر الرسامين والمزخرفين بوضع التصميمات والعناصر الزخرفية واعداد الالوان التي يمكـن استخدامها في عمل هذه الطنافس ــ ظهرت انواع جديدة من هذه الطنافس تعد

(١) راجع بحثا للمؤلف بعنوان « صفحات من الفن الاسلامي في الاندلس » ــ التحف المصنوعة من العاج • نشر في مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة في الجزء الثاني من المجلد ١٧ سنة ١٩٥٥ •

كل منها بحق تحفة فنية بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى : فيها ما يثير التفكير والتأمل ، وفيها ما يشيع الغبطة في النفس ، وفيها ما يغري الانسان على حيازتها استدامة لما تبعثه فيه من نشوة وانشراح •

ولا نستطيع ان ندرك قيمة هذه التحف على الوجه الاكمل الا اذا عرفنا شيئا عن موادها الخام وعن طريقة صنعها •

اما المواد الخام فهي الصوف أو الحرير [١] لعمل الخمل والكتان والقطن لعمل الخيوط التي تعقد عليها العقد المختلفة • والصوف هو الشائع في هذه الصناعة ، ويستعمل الحرير في الاحوال النادرة • ويمر الصوف بمراحل عدة لكي يصبح صالحا للاستعمال فتزال عنه المواد الدهنية بعد جزه ، حتى يصير أكثر تقبلا للاصباغ ، ويمشط ويفرز بحسب الوانه الطبيعية ، ويندف ثم يغزل (اي يحول الى خيوط) ثم ينقع في الماء الدافيء ويغسل جيدا ثم يصبغ • والصباغة من أهم العمليات في صناعة الطنافس •

وقد كانت الالوان في العصور الوسطى قليلة محدودة لا تكاد تخرج عن الازرق الذي كان يؤخذ من نبات النيلة ، والاحمر الذي كان يؤخذ اما من جذور نبات الفوة او من حشرة القرمز التي تعيش على أشجار البلوط وكانت هذه الاشجار منتشرة في الاقاليم المطلة على البحر الابيض المتوسط ، والاصفر الذي كان يؤخذ من ثمار شجيرات صغيرة تكثر في منطقة الاناضول ، كما كان يؤخذ كذلك من جذور شجر الكركم ومن زهرة نبات الزعفران ، واللون القهوائي او البني وكان يؤخذ من نبات الحنة (وعندئذ يميل الى الحمرة) او من نبات العفص (وعندئذ يميل الى السواد) • ومن مزج هذه الالوان بعضها ببعض تتألف معظم الالوان الاخرى ، وقد كان اجدادنا يستعملون في تثبيت هذه الالوان قشر الرمان او التمر هندي او الليمون الحامض (النومي الحامض) أو حجر الشب •

هذه هي الالوان التي كان يستعملها اجدادنا في العصور الوسطى وتلك هي مصادرها ، اما الآن فقد دخلت الكيمياء في صناعة الاصباغ ، ولعبت مادة الأنلين في تكوينها دورا رئيسيا ، وهذه المادة تؤذي الصوف ، وتجعله سريع التآكل فضلا

---

(١) اجود انواع الصوف هو ما جاء من المناطق الباردة الجبلية فانه يكون ناعما ، طويل الشعرة مصقولا

عن عدم ثباتها كثبات الالوان التي كان يستعملها اجدادنا • ومن هنا تتجلى لنـــا ميزة رئيسية في الطنافس القديمة تتفوق بها على الطنافس التي تصنع في الوقت الحاضر • وقد اقبل صناع الطنافس في عصرنا الحديث على استعمال الالـــوان الكيميائية لسهولة الحصول عليها ، ولم يفطنوا الى ما لها من اضرار الا بعد فوات الوقت ، ونسيان اسرار التلوين القديمة ، تلك الاسرار التي لم تكن تدون في كتب بل كانت تحفظ في الرءوس ويتناقلها الابن عن أبيه شفويا وعمليا •



شكل (٦٥)

اما طريقة الصناعة فتتجلى فيها البساطة ، ولا عجب فقد نشأت بين القبائـــل الرحل ، ويتكون النول الذي كانت ولا تزال تنسج هذه الطنافس عليه ، من عارضتين من الخشب متوازيتين ، تمد بينهما خيوط السدى او بعبارة اخرى الخيوط الطولية ، وطول هاتين العارضتين هو عرض الطنفسة ، اما طول الطنفسة فتابع لرغبة النساج يحدده وفق هواه وطبقا للرسم الذي بين يديه •

وتعقد خصل الصوف او الحرير عقدا على خيوط السدى هذه ، وتختار الوانها بحسب الرسم المنشور امام الناسج ، فاذا تم عقد الخصل في صف او بعض صف دفعه

النساج بالمشط الى أسفل لكي ينضم الى العقد الاخرى السابق عملها ، ثم يشد عليه بخيطين او أكثر من خيوط اللحمة او بعبارة أخرى من الخيوط العرضية التي تجري أفقية في محاذاة عارضتي النول، ثم يعود النساج سيرته الاولى ، يعقد الخصل على خيوط السدى ، ويشد عليها بعد عقدها بخيوط اللحمة •

وقد أختلف نوع العقدة في الطنافس باختلاف البلاد التي كانت تنتجها ، ومعرفة هذه العقد ضروري لأنه يساعد ـ في أحيان كثيرة ـ على معرفة مصدر الطنفسة • وهذه العقد على ثلاثة أنواع : العقدة التركية وتسمى جوردز Goerdes وقد استمدت أسمها هذا من مكان في الاناضول اشتهر بعمل الطنافس ، وفيها تلتف الخصلة حول خيطين متجاورين من خيوط السدى بحيث تجمع بينهما من أعلى ، ثم يدور طرفاها وراء هذين الخيطين ، ثم يجتمعان فينفذان بينهما صاعدين متلامسين الى وجه الطنفسة • والعقدة الفارسية وتسمى سنّا Senna وقد أستمدت اسمها من قرية في غرب ايران اشتهرت بصناعة الطنافس ، وفيها تلتف الخصلة حول خيط واحد من خيوط السدى ، ولا تلتف حول جاره بل تحتضنه من تحته ، وفي كلتا الحالين من التفاف واحتضان ينتهي طرفاها الى وجه الطنفسة • والعقدة الاسبانية Spanish وفيها تلتف خصلة الصوف حول خيط واحدة من خيوط السدى، ويخرج طرفاها الى سطح الطنفسة بعد ان يمر احدهما فوق الآخر •

ودراسة الطنافس الشرقية من الناحية الفنية والاثرية لم تبدأ الا منذ عهد ليس بالبعيد ، فقد ظلت رهينة الجهل ، اسيرة الاهمال زمنا طويلا ، حتى اذا أهـّل القرن الماضي ارتفعت الغشاوة عن العيون ، فاذا هذه الطنافس تجذب بروعتها التفات علماء الآثار من الغربيين ، وتستهوي بجمالها مؤرخي الفن منهم ، وتأسر بسحرها اغنياءهم فيقبلون على أقتنائها من أسواق الشرق ، ويبحثون عنها في مظان وجودها ، ويجمعونها من الكنائس الاوربية والاديرة وبعض المساجد القديمة في الشرق • وانتقلوا من مرحلة الجمع هذه الى مرحلة العرض ، فأقاموا لها المعارض الخاصة ، ونظموا لها قاعات كبيرة في متاحفهم ، ولا تزال حتى اليوم متاحف برلين وفينا ولندن ونيويورك وواشنطن وميونخ وميلان واسطنبول والقاهرة وطهران وغير هذه مما لم نذكره غنية بالطنافس الشرقية التي نسجها اجدادنا في العصور الوسطى •

وما كاد القرن الماضي يؤذن بالرحيل ، حتى بدأ علماء الآثار الاسلاميــة يدرسون هذا التراث الفني دراسة موضوعية عميقة ، وبذلوا جهدهم في سبيل الكشف عن أصله وتاريخه ، فراجعوا كتب التاريخ والرحلات شرقيها وغربيها ، وراجعوا السجلات التي كانت تحصى فيها التحف الفنية في القصور والكنائس ، وخرجوا بذلك بحصيلة من المعلومات المفيدة التي انارت لهم سبيل البحث .

ولاحظوا اثناء دراستهم ان كثيرا من اللوحات الاوربية تتضمن صـــورا للطنافس الشرقية قد رسمت فوق العروش ، او مفروشة على الارض تحت اقدام العذراء او الملوك والامراء ، او منشورة من النوافذ والشرفات ، او مبسوطة على مذابح الكنائس والموائد . ولما كانت هذه اللوحات الاوربية معروفـــة التاريـخ فقد ساعدت ـ بهذه الصور ـ على تحديد عصور هذه الطنافس تحديدا تقريبيا ، والقت اضواء على هذه الدراسة [١] .

ولم تكن اللوحات الاوربية وحدها هي التي ازدانت بصور الطنافس الشرقية بل ظهرت رسوم هذه الطنافس كذلك في صور بعض المخطوطات الاسلامية وكانت هادية لمؤرخي الفن الاسلامي في ابحاثهم بما تضمنته من النصوص الادبية والتاريخية التي جاءت في تلك المخطوطات .

على أننا لا ينبغي ان نغالي في قيمة تلك المعلومات التي نستمدها من هــذه اللوحات الاوربية او تلك الصور الاسلامية ، فهي معلومات لايمكن ان تسمو الى مرتبة اليقين ، ولا نستطيع ان نطمئن اليها الاطمئنان كله لاننا لانعرف على التحقيق ان كان رسامو هذه اللوحا توالصور صادقين في نقل صور الطنافس ، او متخيلين ومتصرفين في هذه الصور ، او كونوا رسمها من اشكال عدة طنافس رأوها فياماكن متعددة .

وقد أشتهرت بلاد كثيرة من العالم الاسلامي بنسج الطنافس في العصــور الوسطى نذكر منها الهند وايران ، والقوقاز ، وتركيا ، ومصر ، والاندلس .

---

(١) احدث ما كتب في هذا الموضوع كتاب الدكتور اردمان Erdmann وهو آخر كتاب له قبل وفاته في سبتمبر سنة ١٩٦٤ وعنوانه :
Europa und Orientteppich, Brlin, 1962.

ومع هذا الكلام صورة لجزء من طنفسة شرقية قوقازية عثر عليه في كنيسة في وسط ايطاليا وهو الآن معروض في متحف برلين (شكل ٦٤) • وقد ظهرت صورتها في لوحة شهيرة من اللوحات الاوربية • [١]

والصورة الثانية (شكل ٦٥) تمثل لوحة اوربية كانت في برلين للمصــور رافالينو دل جاربو Raffaelino del Garbo نرى فيها صورة طنفسة شرقيــة مفروشة على الارض •

فــن الكتــاب

المقصود بفن الكتاب هو فن اخراج الكتاب ، فلا يدور البحث في هذه الكلمة حول ما تنطوي عليه صفحات الكتاب من دين او علم او أدب أو تاريخ او فن ، بل يدور حول المادة التي كان يصنع منها الكتاب العربي في العصور الوسطى ، وحول الخط الذي دونت به نصوصه ، وحول الصور التي استخدمت لتوضيح تلك النصوص او لتزيينها ، وحول التذهيب الذي لعب دور في تجميله ، وحول التجليد الذي أبتكر لحفظ كيان الكتاب •

والخطوة الاولى في سبيل نشأة الكتاب هي اللغة التي ابتدعها الانسان ليتفاهم بها مع بني جنسه ، ولن نتحدث هنا عن نشأة اللغات فهذا خارج عن موضوعنا •

والخطوة الثانية جاءت عندما أخذ الانسان يدون تلك اللغة التي ابتدعها ، وقد تحدثنا من قبل على نشأة الخط الذي دون العرب به لغتهم[٢] ، وبقي ان نشير الى المواد المختلفة التي استخدمت للكتابة عليها ، وهذه المواد الكثيرة تبدأ بالواح الطين المجفف وتنتهي بالورق الذي نستعمله الآن في كتبنا • واعظم مجموعة من الكتب الطينية او بعبارة ادق من الالواح الطينية هي المجموعة المعروضة في المتحف البريطاني وقد عثر عليها في مدينة نينوى (بالقرب من الموصل الحالية) بعد ان ظلت مدفونة في بطن الثرى نحوا من ٢٥٠٠ سنة ، وهي تتناول مواضيع

(١) انظر الصورة رقم ٨ من كتاب اردمان سالف الذكر •
(٢) انظر ص ١٨ و ١٩ والشكل رقم (١) من هذا الكتاب •

مختلفة ، دينية وعلمية وادبية ، ويطلق عليها اسم مكتبة « آشور بانيبال » لأنها جمعت ونسقت بأمره وكان ذلك في القرن السابع قبل الميلاد •

وبين الطين والورق كتب اجدادنا على الحجر ، والخشب ، وعلى العظم والجلد ، وعلى الكتان والبردي والرق • واذا اردنا ان نتخيل الآن شكل أول كتاب عربي عند اجدادنا المسلمين وهو القرآن الكريم لكانت صورته الاولى هي وعاء خاص او مكان معين به مجموعة من قطع الحجر والعظم والجلد وقحوف النخل • واذا كانت معظم هذه المواد التي كتب عليها اجدادنا معروفة لنا ولا تحتاج الى ايضاح فان البردى والرق والورق منها تتطلب ان نقف عند كل منها قليلا لنعرف شيئا عنها •

اما البردي فنبات مائي كان ينمو قديما في مستنقعات مصر السفلى بكثرة ، وقد اهتدى الكهنة المصريون في العصر الفرعوني الى طريقة جعلوه بها من أهم المواد التي تستخدم للكتابة عليها في العصور القديمة ، وظل كذلك في العصور الوسطى • وعندما فتح العرب مصر لم يحدثوا اي تغيير في صناعته ، وظلت مصانعه تشتغل بانتاجه كما كان الحال من قبل ، وحتى الطراز الذي كان يدمغ عليه والذي كان يتضمن ـ كما يقول البلاذري في فتوح البلدان ـ اسم المسيح منسوبا الى الربوبية ورسم الصليب ـ هذا الطراز لم يتغير الا عندما تنبه له الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ، وأمر باستبداله بعبارة تترجم عن الدين الاسلامي هي : « بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله وحده محمد رسول الله » • وأمر ان يكون ذلك باللغتين العربية واليونانية •

وقد تغير شكل الكتاب من الصورة البدائية التي تخيلنا عليها أول كتاب عربي الى صورة « ملف » او بعبارة اخرى الى شريط طويل من البرديات قد لصقت بعضها الى بعض في شكل طولي ثم تلف على بعضها ، وكانت العرب تسمي هذا الملف بالدرج ، واصبح الكتاب حينئذ سهل الحمل ، مقبول الشكل • والواقع ان البردي قد أمتاز عن المواد الاخرى التي استعملت للكتابة عليها (ما عدا الورق) ، فالمادة التي كان يصنع منها متوفرة ، ومستقلة في وجودها عن غيرها ، ولا يستلزم الحصول عليها التضحية بسواها كما هو الحال في العظم ، والجلد والرق التي

لايمكن الحصول عليها الا بعد قتل الحيوانات التي تمدنا بها • هذا الى ان البردي كان على انواع مختلفة منه الخشن الرخيص الثمن الذي يستطيع الفقراء الحصول عليه في يسر ، ومنه المصقول الفاخر الغالي الثمن الذي يقبل على شرائه الاغنياء ، وهكذا نجد انه كان يرضي الاذواق المختلفة ، والطبقات الاجتماعية المتباينة •

واهتدى الانسان الى استعمال الرق في الكتابة ، واغلب الظن ان هذا الاهتداء جاء عن طريق التطور الطبيعي ، فلقد كان جلد الحيوان يستعمل في الكتابة عليه ، والرق ما هو الا جلد معدة بعض الحيوانات مثل الماعز والعجل والغزال • وقد اشتهرت بصنعه مدينة « برجامن » في آسيا الصغرى ويربط بعض العلماء بين اسم هذه المدينة Pergamon وبين الكلمة الاوربية التي يسمى بهــا الرق وهي Parchment (١)

والرق اغلى ثمنا من البردي لأن الحصول عليه يتطلب التضحية ببعــض الحيوانات ، وقد كان من أثر ذلك أن أصبح استعماله أقل بكثير من البردى ، وكان من أثره ايضا ان لجأ بعض الناس الى محو النصوص القديمة لكي يكتبوا بدلها نصوصا جديدة ولا شك ان هذا التصرف الذي دفعت اليه الرغبة في الاقتصاد قد فقدنا بسببه كثيرا من النصوص التي كان يمكن ان تفيد في اعطائنا صورة واضحة عن حياة اجدادنا •

وفي متاحف البلاد المختلفة وفي المكتبات العامة أمثلة كثيرة من الرقوق التي تتضمن نصوصا دينية وادبية وتاريخية ، نذكر منها على سبيل المثال ما نراه في دار الكتب المصرية ، وفي متحف الفن الاسلامي ومتحف قصر المنيل بالقاهرة •

وتغير شكل الكتاب مع استعمال الرق فقد اصبح صحائف تجمع بعضهــا الى بعض ، وبدا في نفس الشكل الذي نراه عليه الآن • واصبح القرآن الكريم مجموعة من الصحف ، وقصة اخت عمر بن الخطاب وزوجها عندما دخل عليهما

---

(١) هناك قصة تروى في صدد اهتداء أهل برجامن الى استعمال الرق في الكتابة ــ لانعرف مداها من الصحة ــ هي انه وقع بين ملك هذه المدينة وبين أحد ملوك البطالسة في مصر شيء من التحاسد والنفور مما حمل الملك المصري على منــع تصدير البردى الى برجامن الامر الذي حمل ملك هذه المدينة على مداومة التفكير فيما يحل محل البردى فاهتدى الى الرق •

عمر وكانا يقرأن شيئاً من القرآن مكتوبا في صحيفة ، خير دليل على ذلك •
وبعد انتقال الرسول الكريم الى الرفيق الاعلى اتجهت عناية خليفته الاول ابي بكر الصديق الى ايجاد أصل مكتوب للقرآن في حالة منظمة ، سهلة التناول فكتب في مجموعة من الصحف ـ كانت اغلب الظن من الرق ـ وعهد بذلك الى زيد بن ثابت الذي قام بها على احسن وجه فهو من كتاب الوحي ، وهو ايضا من حفاظ القرآن ، فكان بذلك من اقدر الناس على القيام باعباء هذه المهمة على الوجه الاكمل ، وقد سمي القرآن منذ ذلك الوقت بالمصحف ، وأصبح هذا المصحف الذي نسخه زيد هو الاصل المحفوظ لهذا الكتاب الكريم • وقد كان هذا المصحف عند ابي بكر ، ثم صار الى عمر بن الخطاب ، ثم صار الى حفصة ابنة عمر ، وزوج الرسول صلوات الله عليه ، ثم أصبح في دار الدولة ، وكتبت منه النسخ المختلفة التي وزعت على المدن الكبرى •

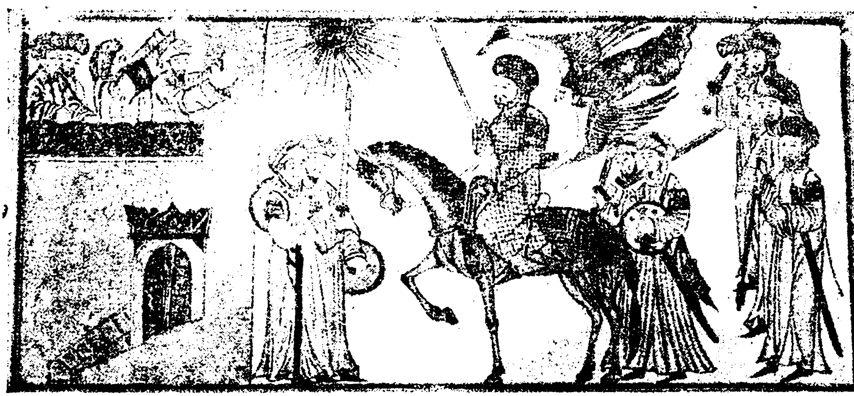
وعندما عرف العرب الورق[1] أصبحت موارد الثقافة سهلة ميسورة لأنه كان عاملا هاما في تطوير الطباعة ونضوجها • وقد حذقوا فن تزيين الكتب بالصور منذ أوائل عصر الخلافة العباسية عندما ترجم عبدالله بن المقفع كتاب «كيلة ودمنة» الى اللغة العربية واشار في مقدمته الى مايفيد انه كان يزدان بالصور ، فهو يقول ان في «اظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والالوان انس لقلوب الملوك » • وقد شاع التصوير في الكتب بانتشار الورق ، وتجلت فيه عبقرية المصور المسلم بصورة رائعة ، بل لعل الكتب هي المجال الوحيد الذي تجلت فيه مقدرته في هذه الناحية من نواحي الفن •

واذا كانت النسخة الاصلية المصورة من كتاب « كليلة ودمنة » لم تصل الينا فقد وصل الينا مخطوطات كثيرة مصورة ، منسوخة عن هذا الاصل •

على ان هذا الكتاب ليس وحده من كتب الادب الذي عني به المصورون بل هناك كتب اخرى كثيرة بعضها في الادب العربي مثل كتاب الاغاني ومقامات

(١) راجع ص ١٠٠ و ص ٢٠٦ من هذا الكتاب •

الحريري ، وبعضها في الادب الفارسي مثل المنظومات الخمس للشاعر الايراني نظامي والبستان للشاعر الايراني سعدي الشيرازي ، وكتب تجمع بين الادب والتاريخ مثل الشاهنامة للفردوسي ، وكتب في التاريخ وحده مثل «جامع التواريخ» لرشيد الدين ، والآثار الباقية للبيروني ، وكتب في النبات ، والحيوان ، وعلم الحيل او علم الميكانيكا كما نسميه اليوم ، مثل كتاب « الحيل الجامع مع العلم والعمل » للجزري - كلها حظيت بعناية المصورين المسلمين فزينوا صفحاتها بالصور الجميلة ، وفي اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية للمرحوم الدكتور زكي محمد حسن أمثلة كثيرة من صور هذه المخطوطات نراها من شكل ٨٥٤ الى ما يقرب من نهاية الاشكال •



شكل (٦٦)

وقد حرصنا على ان نعطي القاريء مثالا من هذا التصوير كما ظهر في مخطوط جامع التواريخ لرشيد الدين الموجود في مكتبة الجمعية الآسيوية الملكية في لندن اذ نرى رسما يمثل النبي صلوات الله عليه ، على جواده وهو يحاصر بني النضير (شكل ٦٦) • وفي مخطوطه المنظومات الخمسة ، للشاعر الايراني نظامي ، الموجودة في المتحف البريطاني حيث نرى صورة تمثل النبي صلوات الله عليه ، وهو راكب فوق البراق ، وامامه سيدنا جبريل يقود الركب في السموات ، وقد حرص الفنان هنا على عدم رسم تقاطيع وجه النبي عليه الصلاة والسلام ، ورسم هالة من نور

تحيط برأسه الشريف (شكل ٦٧) •

ونحب ان نوضح هنا ان هذه الصور ليست لها اي معنى ديني انما هي صور تاريخية تمثل النبي في بعض فترات حياته•

وعندما انتقل الكتاب من صورة الدرج او ملف البردي الى صورة صحائف الرق، او صحائف الورق ، كان من الطبيعي ان تمس الحاجة الى غلاف يمسك هذه الصحائف بعضها الى بعض حتى يحفظهامن الضياع او التلف ، وهكذا غلفت الكتب ، واخذ الكتاب شكله النهائي الذي هو عليه الآن •



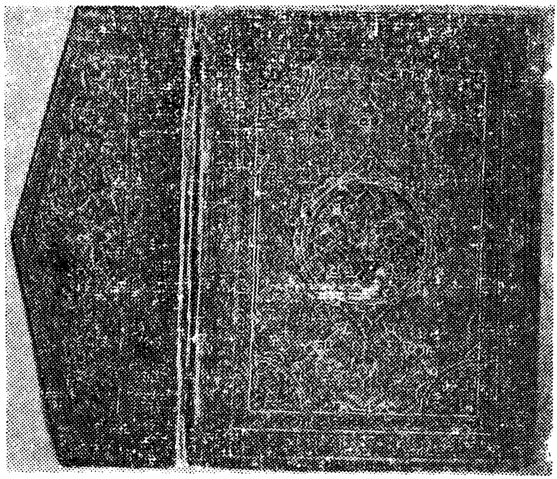
شكل (٦٧)

ولقد كان غلاف الكتاب في أول الامر يصنع من برديات قديمة استنفدت اغراضها ، واستغنى عنها فالصقت بعضها الى بعض بحيث اصبحت سميكة اشبهماتكون بالورق المقوى المعروف عندنا اليوم باسم « الكرتون » • وكثيرا ما كانت هذه البرديات القديمة تتضمن معلومات تاريخية ، واجتماعية قيمة تفيد في تصوير حياة اجدادنا في العصور الوسطى • ومن هنا اتجه بعض علماء البردى الى هذه الغلافات البردية ، واخذوا ينزعون بعضها عن بعض في حرص شديد وحذر حتى لاتتمزق فتخرج سليمة حافظة لكيانها ، ولكل ما هو مدون عليها من معلومات تكشف عن الصورة الحقيقية للعصر الذي كتبت فيه •

واستعملت بدلا من الواح البردي السالفة الذكر ، الواح من الخشب لنفس الغرض ، ومست يد الفن بعصاها السحرية هذه الالواح الخشبية فزينت باشرطة من الذهب او الفضة ، او زينت بصفائح من هذين المعدنين النفيسين ، ورصعت هذه الشرائح في بعض الاحيان بالاحجار الكريمة • وقد كان طبيعيا ان تضيع معظم هذه الغلافات لطمع الناس في ذهبها وفضتها واحجارها النفيسة ، على أنه

قد وصلت الينا منها امثلة قليلة معروضة في بعض المتاحف •

وكما استعملت صفائح الذهب والفضة في تغطية الالواح الخشبية والالواح البردية ، كذلك استخدمت شرائح الجلد لهذا الغرض ، وكانت هذه الخطوة هي بداية فن تجليد الكتب الذي لم يتغير كثيرا منذ ذلك الوقت حتى الآن • وهذه الشرائح الجلدية التي استعملت في تغطية الواح الخشب او الواح البردى لم تترك عاطلة من الزخرفة بل عنى الفنانون بزخرفتها ، وتفننوا في ذلك تفننا مدهشا ، معجزا في بعض الاحيان •



شكل (٦٨)

ولقد كانت مصر قبل الاسلام ، اسبق الامم في اتقان فن تجليد المخطوطات ، بل ليس من المستبعد ان تكون هي التي ابتكرت هذا الفن ، وكانت المخطوطات القبطية مصدر الوحي للمجلدين في الامم الاخرى • وورث العرب من اقباط مصر هذا الفن ، وساروا به الى الامام خطوات واسعة ، وكان لهم فضل ابتكار طرق كثيرة لزخرفة جلود الكتب والباسها حلة قشيبة من الجمال الفني •

والعناصر الزخرفية التي استعملها المجلدون المسلمون في عملهم كثيرة : من أهمها الرسوم الهندسية لاسيما الاشكال النجمية ، والزخارف النباتية ، والمناظر الطبيعية ، والصور الحيوانية بل والصور الادمية في حالات قليلة جدا •

وكثيرا ما كانت تتوسط غلاف الكتاب صُرة او (جامة كما اصطلح على تسميتها مؤرخو الفن الاسلامي) مملوءة بالارابسك (١) •

وقد يحتل كل ركن من اركان غلاف المخطوط ربع هذه الصرة او زخرفا قريبا في شكله منها ، فيبدو الغلاف كأنه احدى الطنافس الشرقية الجميلة (٢) ويلاحظ ان بعض الابواب الخشبية المصفحة بالنحاس التي نشاهدها في كثير من العمائر الاسلامية قد أستمدت تصميمها من غلافات بعض المخطوطات الاسلامية المزينة بالطريقة سالفة الذكر •

والواقع ان المزخرفين والمصورين كانوا أكبر عون للمجلدين في تطوير صناعتهم ، فكثيرا ما كانوا يمدونهم بشتى النماذج من الزخارف التي تلبس اعمالهم ثوبا من الجمال الفني •

وتبدو لنا في جلود المخطوطات الاسلامية ظاهرة لم تكن معروفة قبل الاسلام هي «اللسان» الذي كان يطوي لحماية الاطراف الامامية للمخطوط ، ولقد اخذ المجلدون الاوربيون في العصور الوسطى هذا اللسان عن المجلدين المسلمين ، كما أخذوا عنهم ايضا الكثير من الزخارف الاسلامية ، وبعض الطرق التي كان يتبعها المجلد المسلم في زخرفة كتابه ، ولا تزال الامثلة الكثيرة التي تنطق بما اسداه الشرق الى الغرب في هذا المجال معروضة في متاحف اوربا وامريكا •

ولم تكن العناية بزخرفة باطن غلافات المخطوطات والسنتها بأقل من العناية بزخرفة اجزائها الظاهرة للعيان ، فقد بذل المجلدون المسلمون جهدا واضحا في سبيل تزيين هذه الجلود من الداخل حتى بدت قطعا من الفن تملأ اقطار العين بجمال رونقها • وفي الحقيقة ان تزيين هذه الاجزاء الخفية في تلك الجلود (او غيرها من المنتجات الفنية الاسلامية) ليكشف لنا عن ميزة امتاز بها الفنان المسلم

---

(١) سوف نتحدث عن هذا النوع من الزخرفة الاسلامية فيما بعد

(٢) راجع ما كتبناه عن الطنافس الشرقية في ص ١٠٣ ـ ١٠٤ من هذا الكتاب •

في العصور الوسطى عن غيره من الفنانين ، ذلك انه لم يهدف من وراء التجميل الى ارضاء الناظر الى عمله بقدر ما كان يهدف الى ارضاء حاسة الجمال في نفسه ، والا فلم يكن هناك ما يبرر الجهد الذي بذله في تزيين اجزاء لا تقع تحت النظر مباشرة •

والمتاحف على أختلاف اماكنها ، والمكتبات العامة ، كلها غنية بامثلة كثيرة من جلود المخطوطات التي تنطق بمدى عناية اجدادنا بالكتاب •

بقي أمر واحد نختم به حديثنا عن فن الكتاب ، ذلك هو التذهيب الذي لعب دورا هاما في هذا الفن ، والمقصود به استعمال مداد الذهب او ماء الذهب كما يسمى احيانا[1] في الكتابة ، وفي الزخرفة • ويبدو أن اجدادنا من المسلمين الاوائل قد تحرجوا من كتابة القرآن الكريم بهذا المداد نظرا لما في ذلك من الاسراف ، والبعد عن البساطة والتقشف ، ولذلك نراهم قد اقتصروا في استخدام ماء الذهب على رسم الفواصل بين الآيات او بين السور ، وعلى رسم بعض الزخارف في أول المصحف وفي آخره ، وفي هوامش بعض الصفحات • ومع ذلك فقد وصلت الينا مصاحف مكتوبة كلها بماء الذهب من أهمها مصحف السلطان قلاوون المعروض في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ولكن مثل هذه المصاحف قليلة جدا اذا ما قورنت بالمصاحف المكتوبة بالمداد الاسود • واذا كان المذهبون قد وجدوا حرجا في كتابة القرآن بمداد الذهب فأن كثيرا من المخطوطات الاخرى قد كتب بهذا المداد دون تردد •

ولقد تجلت براعة المذهب اروع ما تجلت في الصفحتين الاولى والثانية من المصحف الشريف وكذلك في الصفحة او الصفحتين الأخيرتين منه ، اذ استخدم الذهب مع الالوان المختلفة لاسيما اللون الازرق بمهارة فائقة تنتزع الاعجاب من كل من يراها ، فهذه الصفحات في الحقيقة لوحات فنية يتوفر فيها كل ما ينبغي ان يتوفر في أي عمل فني : فيها فكرة ، والوان ، وتوازن ، وانسجام •

---

(١) مداد الذهب ـ كما يقول صاحب صبح الاعشى ـ هو محلول مكون من برادة الذهب ، والماء ، والصمغ ، وعصير الليمون (النومي الحامض) •

عوامل نضوج الفن الإسلامي

بعض النظم الاسلامية والفن

ولقد عاون الدين الاسلامي بما تضمنـــه في بعض نظمه من توجيهـات ، على نضوج الفن الاسلامي ، وبلوغه درجة عالية من الكمال • ولعل أهم هذه النظم هي الحج ، والوقف ، والحسبة ، فكل منها كان له أثر واضح في هذا النضوج •

اما **الحج** فهو ــ كما نعرف ــ أحد الاصول الخمسة التي بني عليها الاسلام ، وهو فرض على كل مسلم يستطيع القيام به دون ارهاق ، اي أنه أمر للاغنياء والقادرين بأن يسافروا الى مكة • ولقد كان من أثر هذا النظام ان التقى المسلمون من شتى اقطار الارض بعضهم ببعض ، وكان لهذا اللقاء والاختلاط اثر كبير في نضوج الحضارة الاسلامية ، اذ كان هؤلاء الحجاج يتبادلون السلع المختلفةالمصنوعة من القماش او المعدن او غيرهما من المواد مع بعضهم البعض عن طريـــق الاهداء ، او التبادل ، او البيع ، او الشراء • وقد يجتمع رجال الصناعة بعضهم ببعض ، ويتجاذبون اطراف الحديث فيما يتصل باعمالهم في بلادهم • وينتهي موسم الحج ، ويعود كل الى بلده حاملا معه افكارا جديدة ، وطرقا في الصناعة جديدة ، وقد يحمل معه تحفا جديدة ، فيؤثر كل ذلك في منتجاته المحلية ويكون عاملا مساعدا من عوامل التطور •

واما **الوقف** فنظام نشأ في الاسلام استنادا الى احاديث عدة تروى عن النبي صلوات الله عليه من اشهرها ذلك الحديث الذي ملخصه ان عمر بن الخطاب أصاب ارضا بخيبر ، فأتى النبي يستأمره فيها ، فقال له ، عليه الصلاة والسلام ، ان شئت حبست أصلها ، وتصدقت بريعها [1] • ومنذ ذلك الوقت ونظام الوقف قائم ، وقد اتسعت اغراضه وتنوعت تنوعا يدل على مدى عناية المسلمين في العصور

---

(١) راجع صحيح البخاري : كتاب الشروط ب ١٩ ، كتاب الوصايـــا ب ٢٢ و ٢٨ •

الوسطى بالشؤون الاجتماعية (٢) • فهناك اعيان حبست على المدارس ، وعلى الذين وهبوا حياتهم للعلم او للدين ، واعيان حبست على المساجد لدوام عمرانها وادائها لوظيفتها ، واعيان حبست على الخوانق ونزلائها • ولقد كان حرص السلاطين والامراء على الا يعبث احد بالاعيان التي يحبسونها ، او يغير فيها ، يدفعهم الى ان يسجلوا هذه الاعيان على واجهات عمائرهم ، كما فعل السلطان الأشراف برسباى – احد سلاطين المماليك في مصر – اذ سجل على واجهة الخانقاه التي انشأها (في صحراء قايتباي) الاعيان التي اوقفها عليها •

ولنظام الوقف – الى جانب ما يؤديه للمجتمع من حسنات – فائدة كبيرة في تطور الفن الاسلامي ونضوجه ، فنحن ندين له بالكثير مما وصل الينا من روائع العمائر او روائع التحف الاسلامية ، ويكفي ان نذكر ان أكثر من نصف معروضات المتحف الاسلامي بالقاهرة ، ومعظم معروضات متحف دار الكتب المصرية بالقاهرة ، اعيان موقوفة على المساجد والمدارس وما اليها ولولا نظام الوقف ماوصلت الينا • وندين لهذا النظام بناحيتين لهما أهميتهما في الدراسات الأثرية والدراسات اللغوية ، فمن الناحية الطبغرافية نستطيع على هدى ما جاء في الوقفيات تحديد كثير من المواضع في داخل المدن الاسلامية القديمة سواء ما قامت فيه

---

(١) هناك اعيان اوقفها المسلمون على المستشفيات ، ولرصف الطرقات وتعديلها ، ولفكاك الاسرى ، ولابناء السبيل ، وللمعاونة على القيام باداء فريضة الحج ، ولتجهيز البنات الفقراء الى ازواجهن ، ولاعارة الحلى الذهبية والزينة لكل عروس فقيرة حتى تبدو ليلة زفافها الى عريسها الفقير في اكمل صورة ، ولمن يغضبن من الزوجات اللائي ليست لهن اسر يلجأن اليها او تكون اسرهن في بلاد بعيدة فيؤسس لهن دار ، جميع موظفيها من النساء ، يقدم لهن الطعام والشراب حتى لايتعرضن لاخطار المجتمع • وعلى رأس هذه الدار مرشدة تعالج اسباب الغضب ، وتهيء نفوس الزوجات لعودة العلاقة الطيبة بينهن وبين ازواجهن • ومن اطرف انواع الاوقاف ماذكره ابن بطوطة في رحلته عن «اوقاف الاواني» اذ يقول انه كان ذات يوم يسير في بعض ازقة دمشق فرأى مملوكا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ، فتكسرت واجتمع عليه الناس ، وقال له بعضهم : اجمع شقفها واحمله معك لصاحب اوقاف الاواني ، فجمعه الصبي ، وذهب به اليه ، واراه اياه ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن • ويعلق ابن بطوطة على ذلك بقوله ان هذا من أحسن الاعمال فان سيد هذا المملوك لابد ان يضربه وينهره فينكسر قلبه ، ومن اجل هذا عمل هذا الوقف جبرا للقلوب •

العمائر الموقوفة او ما جاورها ، او كان قريبا منها • ومن الناحية اللغوية نجد في هذه الوقفيات التي كتبت في العصور الوسطى ، معينا من المصطلحات الفنية في العمارة والصناعة مما كان يستعمله اجدادنا ، وما نحتاج نحن اليه اليوم في ابحاثنا الاثرية حتى يساعدنا على الاستغناء عن المصطلحات الاوربية التي نضطر الى استعمالها او ترجمتها الى الفاظ عربية قد لا تؤدي المعنى المطلوب اداء دقيقا • وقد اقبل فريق من المستشرقين على دراسة هذه الوقفيات ، كما سار على دربهم بعض الزملاء من الاساتذة العرب [1] •

فنظام الوقف في الحقيقة قد ضمن استمرار نشاط الصناع والفنانين ، كما ضمن اضطراد حركة التطور في الفنون المختلفة لأن من أهم أصوله عمارة الاعيان المحبوسة لضمان بقائها ، ودوام استغلالها ان كانت مما يستغل ، او دوام عمرانها ان كانت من المنشات العامة دينية او دنيوية ، وقد ترتب على ذلك وصول الكثير من هذه الاعيان الينا ، واتاحة الفرصة لنا لدراستها ، وابراز نواحي العظمة فيها من جوانبها المختلفة ، وتأييد بعض ما جاء في كتب التاريخ والرحلات من وصف لهذه الاعيان •

والحسبة وظيفة اوجدها الاسلام عندما رأى ان الانسان لاغنى له في حياته عن التعاون مع غيره ، وادرك انه لكي يستقيم امر الجماعة لابد من ايجاد سلطة تلزم كل انسان حده ، ولا تترك مجالا لمن تحدثه نفسه بالشر ان يعبث بمصالح الناس ، ارضاء لشهوة جامحة او نزوة طارئة • وقد استمدت هذه الوظيفة وجودها من آيات قرآنية نجدها مفصلة في كثير من كتب الحسبة [2] •

وأول من أوجد هذه الوظيفة في الاسلام هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، المحتسب الاول الذي كان اول من اشرف بنفسه على الاسواق ، وعاين المكاييل ، والموازين ، وأمر باماطة الاذى عن الطريق •

---

(١) راجع ابحاث الدكتور عبداللطيف ابراهيم ـ استاذ علم الوثائق في كلية الاداب بجامعة القاهرة ـ عن هذا الموضوع في مجلة كلية الاداب ـ جامعة القاهرة ـ عن مجموعة الوثائق المملوكية ، وذلك اعتبارا من المجلد الثامن عشر الجزء الثالث عشر سنة ١٩٥٩ وما بعده ٠

(٢) راجع عن كتب الحسبة ، على سبيل المثال ، كتاب الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشر الدكتور الباز العريني استاذ تاريخ العصور الوسطى في جامعة القاهرة ٠ وقد طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٤٦ ٠

على أن اعمال المحتسب لم تقف عند الحد الذي وقف عنده عمر بن الخطاب، بل اتسعت دائرتها حتى شملت جميع ما يتصل بحياة الناس الدنيوية ، وحياتهم الدينية ، وأصبح قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر •

ويهمنا من هذا النظام ــ في بحثنا هذا ــ انه قد تدخل في شئون جميع الصناعات ورسم للصناع بارشاد شيوخ الصناعة [1] السبيل السوي الذي ينبغي عليهم ان يسلكوه حتى يأمنوا عقاب المحتسب في الدنيا ، وغضب الله في الاخرة •

والواقع انه كان لنظام الحسبة أثر لاينكر في تحسين المنتجات الصناعية ، والعمل على رفع مستواها والعناية باخراجها في أحسن صورة ممكنة ، فبلغت في ظل هذا النظام الغاية القصوى من الرقي ، وسمت ــ في بعض الاحيان ــ عن دائرة الصناعة المألوفة الى مستوى الفن الجميل ، واصبحت تحفا تقتنى لجمالها •

ولكي يكون هذا التطور واضحا في الاذهان نضرب له مثلا بالآنية التي تصنع من الطين لكي نمسك فيها طعامنا او شرابنا ، فهي تظل وسيلة تستخدم في

---

(١) كان الصناع ينتظمون في نقابات (تشبه النقابات الحديثة) تحمي حقوقهم وتشرف على تأدية واجباتهم على الوجه الاكمل ، وكان لهذه « الاصناف » ــ كما يسميها الجاحظ في رسائله ــ تقاليد ونظم يحترمها الجميع وتؤيدها الدولة بنفوذها ، وقد ازدهر هذا النظام في ظل الاسلام ازدهارا عظيما ، وساهم بأوفر نصيب في تقدم الصناعة ، اذ كان رئيس كل حرفة او شيخ الصنعة (كما رأينا اسمه منقوشا على بعض قطع الخزف التي كشفت عنها حفائر الفسطاط) هو المهيمن على افراد مهنته ، والموجه لهم في فنهم ، وكانت تعينه الحكومة عادة او تعترف به ، ويليه الاستاذ (وهو يعرف في القاهرة باسم المعلم) ويليه الصانع وهو ممن حذقوا المهنة واصبح يمارسها مستقلا ، ويليه المبتديء او الصبي وهو الذي يتدرب على أيدى الصناع • وكانت اسرار الصناعة تدرس عمليا وتلقن شفويا بين جدران المصانع • وكان لهذه « الاصناف » تقاليد وعرف تستمد قوتها من الحكومة ، وتدور حول حماية الصانع والمستهلك على السواء ، فتحقق للاول سهولة الحصول على المواد الخام ، وتمنع الاحتكار الذي يضر بالعمل ، وتسعى لرفع مستوى الصانع الاجتماعي ، كما تضمن للثاني جودة المصنوع واتقان الصناعة واتباع الاساليب المقررة لها اي التي يقررها شيوخ الصناعة ، وتضرب بيد من حديد على الغش والتدليس• وموظف الدولة المشرف على هذه النقابات هو المحتسب الذي اشرنا اليه • راجع في هذا الموضوع بحثا قيما للاستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري رئيس جامعة بغداد منشور في العدد الاول من مجلة كلية الاداب في تلك الجامعة سنة ١٩٥٩ والمراجع التي يشير اليها •

هذا الامر ما لم يتقن الانسان صنعها ، ويتفنن في زخرفتها ، ويبذل الوسع في تجميل شكلها ، وتنسيق الوانها ، فاذا ما وصلت الى الكمال في ذلك او قاربته ، غادرت موائد الطعام لكي تتصدر قاعات الاستقبال او جدران المتاحف متخذة مكانها بين التحف الجميلة ، وعندئذ تتغير نظرتنا اليها ، وننسى وظيفتها الاولى ، ولا نذكر منها الا انها شيئاً جميلا ، يعطينا التأمل في محاسنه نشوة لاتعدلها نشوة •

موقف الاسلام من فن الخط

ولقد خص الاسلام فن الخط برعايته لأنه وثيق الصلة بالدين ، اذ هو الوسيلة الوحيدة التي يكتب بها كلام الله عز وجل • ولعل ازدياد عناية رجال الفن من المسلمين بهذه الوسيلة راجع الى ان الله قد أقسم بالقلم في كتابه العزيز اذ يقول : « **ن والقلم وما يسطرون** » ، كما شرف قدر الخط عندما نسب تعليمه الى نفسه اذ يقول سبحانه : « **اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » •

ويشير ابن خلدون في مقدمته الى ان علماء التصوف الاسلامي ينسبون الى الحروف العربية اسرارا خفية ، فهي ــ كما يدعون ــ تجلب الخير والبركة ، وقد انعكست هذه العقيدة على كثير مما أخرجه الفنانون المسلمون من مصنوعات وما شيدوه من عمائر ، اذ زينت هذه وتلك بالآيات القرانية وبالعبارات الدينية ، او بجمل مختلفة من صيغ الدعاء والمدح • وقد ترتب على ذلك ان أصبح الخط العربي مضروبا مشتركا في جميع فروع الفن الاسلامي : نراه على جدران المساجد والقصور كما نراه على الخزف والخشب ، والعاج والزجاج ، والاقمشة والطنافس ، والمعادن •

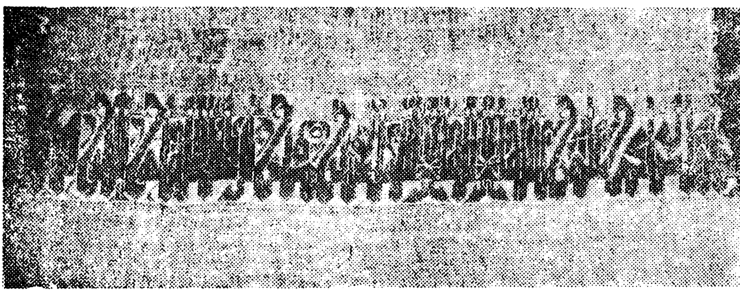
ولقد سبق لنا ان تحدثنا عن نشأة الخط العربي [١] ، واشرنا الى الخط الكوفي [٢] والى الخط اللين [٣] ، والان نتناول الخط من ناحيته الفنية •

---

(١) راجع ص ١٨ من هذا الكتاب •
(٢) انظر الشكل رقم ٢ ص ٢١ من هذا الكتاب •
(٣) انظر العامود الثالث من الشكل رقم ١ ص ١٨ من هذا الكتاب •

والواقع ان الفنان المسلم لم تتجل عبقريته في ناحية من نواحي الفن بقدر ما تجلت في الخط الذي اتخذ منه عنصرا زخرفيا ابتكره ذهنه الخلاق ، ولم يستوح فيه فنا من فنون الامم السابقة عليه ، ولا استلهم عنصرا من عناصر الزخرفة التي كانت معروفة للدول التي خالطها منذ اخضعها لسلطانه ، بل ابتدع هذا العنصر الزخرفي فاتقن الابتداع ، وابتكره فاجاد واحسن الابتكار ، وأطلق العنان لخياله فلم يخذله خياله الخصب •

ولم يتبوأ الخط العربي تلك المكانة السامية في الفن طفرة واحدة ، بل أخذ سبيله اليها مرحلة مرحلة حتى وصل اوج الكمال •



شكل (٦٩)

وتمشيا مع سنة التطور والارتقاء أخذ الفنان المسلم يدرك ما في الحروف العربية مما يصلح لأن يكون اساسا لزخارف جميلة : فرءوس الحروف ، وسيقانها ، واقواسها ، ومداتها ، وخطوطها الرأسية ، وخطوطها الافقية ، كل هذه اوحت له بعناصر زخرفية شتى ما كاد يرسمها حتى بعثت في نفسه شعورا من أرتياح المتفنن الى أثره الجميل ، فاندفع في هذا التيار يبتكر الزخارف الخطية غير عابيء بما تفرضه عليه أصول الخط من المستلزمات ، ولا آبه بما يسببه للقاريء – في بعض الاحيان – من الاعنات ، بل كل همه ان يرضى الفن لا العلم ، فتارة يجعل الحروف متجمعة متكاثفة (شكل٦٩) [١] ، وطورا يرسمها متباعدة ، متناسقة ، وتارة اخرى يريك من التنوع الجميل بين الحروف القائمة ، والحروف المستديرة ما ينتزع الاعجاب منك ، ويرغمك على ان تقر له بالنبوغ الفني •

---

(١) النص الموجود في قطعة القماش هذه الموجودة في المتحف الاسلامي بالقاهرة هو : الامام الحاكم بأمر الله لا اله الا الله الخير معين ان شاء والتوفيق بالله•

وصور الخط العربي لم تتنوع على العمائر والتحف المنقولة كما تنوعت في المخطوطات ، ومن هنا آثرنا ان نقصر كلامنا على المخطوطات وحدها دون غيرها من التحف المنقولة او الثابتة التي تجلى فيها فن الخط .

ولقد ساهم كثير من الخطاطين في تطوير هذا الفن نختار منهم ثلاثة كان لهم فضل عظيم في هذا التطور هم : « ابن مقلة » و « ابن البواب » و « ياقوت الرومي » وقد عاشوا جميعا في بغداد .

اما « ابن مقلة » فهو الوزير العباسي الذي كان يعيش في بغداد في القرن الثالث الهجري ، وقد كان اول من صنع للخط مقاييس تضبط بها اشكال الحروف من مدات وقوائم [١] .

واما « ابن البواب » فقد ظهر بعد « ابن مقلة » بقرنين من الزمان ، ولمع اسمه في بغداد في القرن الخامس بعد الهجرة ، واستطاع بمهارته ان يخطو بفن الخط نحو الجمال الفني خطوات واسعة فلم يعد اهتمام الخطاطين في عصره قاصرا على مراعاة نسب الحروف بعضها الى بعضها كما كان الحال في عهد « ابن مقلة » بل اصبح الجمال الفني هو الهدف الذي يهدف اليه كل خطاط ، وقد ابتدع « ابن البواب » نوعا جديدا من الخط يعرف باسم « الخط الريحاني » [٢] وهو يمتاز بتداخل بعض حروفه بعضها في بعض باوضاع متناسبة ، متناسقة ، لاسيما حرفي الالف واللام فانهما كانا اشبه ما يكونان بعيدان الريحان ، ومن هنا جاءت تسميته بهذا الاسم . وقد وصل لنا مصحف بخط يد هذا الخطاط موجود في مجموعة خاصة [٣] .

و « ياقوت الرومي » الذي اشتهر ايضا باسم « ياقوت المستعصمي » نسبة الى الخليفة العباسى المستعصم بالله الذي كان يعيش في بغداد في القرن السابع الهجري ، والذي قرب هذا الخطاط اليه وشمله برعايته . وقد حذق فن الخط ،

---

(١) راجع تاريخ هذا الخطاط في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) انظر عبارة « متاحف الفن الاسلامي » المنشورة في ص ١٠٣ من هذا الكتاب وهي من خط الخطاط القدير محمد هاشم استاذ الخط في معهد الفنون الجميلة في بغداد .

(٣) راجع تاريخ هذا الخطاط في مقدمة كتاب :
Rice, The Unique Ibn Al Bawwab Manuscript in The Chester Beatty Library, Dublin, 1955.

واتقنه ، وجوده حتى استحق عن جدارة لقب « قبلة الكتاب » • وفي متحف دار الكتب المصرية بالقاهرة أمثلة متعددة من خطه [١] •

والواقع ان هذا المتحف هو اهم المتاحف جميعا لدراسة الخط العربي في شتى صوره ، وفي مختلف عصوره • ولعل اروع ما فيه هو تلك المصاحف التي ترجع الى القرنين الثامن والتاسع بعد الهجرة ، او بعبارة اخرى الى عصر المماليك • وهذه المصاحف كانت موقوفة على العمائر الدينية التي شيدها سلاطين المماليك وامرائهم ، وقد كانت في الاصل موضوعة في تلك العمائر ، ولما ظهرت العناية بالفن الاسلامي ، واخذ هواة هذا الفن والمعنيين بأمره يبحثون عن التحف الاسلامية في مظان وجودها ، خشي اولو الامر في مصر ان تمتد الايدي الى هذه المصاحف بسوء فتسرق باكملها ، او تسرق جلوها ، او يؤخذ منها بعض صفحاتها فأمروا بنقلها الى هذا المتحف صيانة لها من التلف ، وحفظا لها من السرقة ومن التسرب خارج البلاد •

ومهما حاول الانسان ان يكون دقيقا في وصف جمال هذه المصاحف فلن يبلغ من الاجادة ما يريد ، ولن يغنى هذا الوصف ـ مهما بلغت دقته ـ عن مشاهدة هذه الروائع الفنية التي ابدعها اجدادنا من المسلمين في العصور الوسطى ، والتي تعد بحق من اروع التحف التي تترجم ترجمة صادقة عن جمال الفن الاسلامي وسموه لاسيما في هذا المجال •

وقليل من المصاحف المعروضة في هذا المتحف مكتوب بالخط الكوفي [٢] • ومعظمها مكتوب بخط النسخ ، ولكن عددا ليس بالقليل منها مكتوب بخط مشتق من خط النسخ هو المعروف بخط الطومار ، وهو اشبه ما يكون في رسمه بخط الثلث المعروف بيننا الآن •

ولكن لماذا سمي هذا الخط بهذا الاسم ؟ يجيب القلقشندي في كتابه صبح الاعشى على هذا السؤال بقوله ان العرب كانت تكتب على الدرج ، اي

---

(١) راجع تاريخ هذا الخطاط في دائرة المعارف الاسلامية •

(٢) انظر مثال من الخط الكوفي العراقي في الشكل رقم ٨٣٣ من اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية للمرحوم الاستاذ الدكتور زكي محمد حسن ـ من مطبوعات كلية الاداب والعلوم ببغداد •

الملف المتخذ من البردي او الورق ، وكان هذا الملف يتكون عادة من عشرين جزءا ملصق بعضها ببعض ، وكان سدس هذا الدرج يسمى بالطومار ، وكان يكتب عليه بخط كبير سمي بخط الطومار • وقد تولد من هذا الخط ، خط آخر اصغر منه عرف بخط الثلث[1] (اي ثلث الطومار) •

وقد ابتدع الفرس نوعين من الخط يعرف اولهما بخط التعليق وهو الذي نسميه في تعبيرنا الحديث باسم الخط الفارسي [2] • ويقول ابن النديم في كتابه « الفهرست » ان هذا الخط مشتق من خط آخر لم يذكر اسمه • واقدم مثال وصل الينا بخط التعليق يرجع الى سنة ٤٠١هـ (١٠١٠م) [3] • واهم ما يستلفت النظر في هذا الخط هو ليونته ، واستدارة حروفه واستلقاؤها •

اما الخط الثاني الذي ابتدعه الفرس فهو « النستعليق » وهو يجمع بين جمال خط النسخ وخط التعليق السالفي الذكر ، ومن هنا جاءت تسميته بهذا الاسم • وهو يمتاز بان حروفه قد قويت فيها الاستدارة ، وزادت الليونة ، وتجلت الاناقة بصورة جذابة • وقد بدأ يشق طريقه في الوجود منذ نهاية القرن الثامن الهجري [4] • ويدين هذا الخط في وجوده ، وفي تطوره الى خطاط ايراني اسمه « مير علي التبريزي » الذي كان يعمل في بلاط « تيمورلنك» • وقد خلع عليه أهل عصره لقب « قدوة الكتاب » •

ومن القصص الطريفة التي تروى عن هذا الخطاط انه رأى ذات يوم في نومه الامام « عليّ » كرم الله وجهه ، وقد طلب اليه الامام ان ينظر الى طير الاوز

---

(١) انظر عبارة « الفنون الزخرفية الاسلامية » المنشورة في ص ١١٥ من هذا الكتاب وهي من خط الاستاذ محمد هاشم سالف الذكر •

(٢) انظر عبارة « عوامل نضوج الفن الاسلامي » المنشورة في ص ١٦٥ من هذا الكتاب وهي من خط الاستاذ محمد هاشم •

(٣) انظر بحث في المجلة الملكية الاسيوية عن هذا المثال بعنوان :
Margoliouth, Early Documents in the Persian Language, Journ. Royal Asiatic Socy., 1910.

(٤) انظر مثالا من هذا الخط في اطلس الفنون الزخرفية سالف الذكر في الشكل رقم ٨٤٦ •

ويطيل النظر اليه • واستيقظ « مير علي » من نومه وهذه الرؤية تتراءى له في يقظته ، وتملأ عليه شعاب نفسه ، واخذ بالفعل يستجيب لتوجيه الامام علي ، واطال النظر الى هذا الطائر ، وتأمل في خلقته ، واستوحى من اجزاء جسمه اشكالا يطبقها في رسم الحروف العربية •

وسار ابنه « عبدالله » على نفس النهج الذي سار عليه ابوه من قبل ، فجود هذا الخط وحسنه ، وتخرج على يديه خطاطان مشهوران « جعفر التبريزي » الذي عهد اليه بالاشراف على اربعين نساخا كانوا يعملون عند الامير « باى سنقر » وثانيهما هو « اظهر التبريزي » الذي نعت باستاذ الاساتذة ، واليه يرجع الفضل في نشر خط النستعليق في اقاليم الشرق الادنى وايران ، اذ كان كثير التنقل بين بلاد هذه الاقاليم ، فزار بغداد ، ودمشق ، وحلب ، وبيت المقدس ، وهراة ، وكرمان ، ويزد ، واصفهان ، وشيراز •

ومن تلاميذ « اظهر التبريزي » خطاط مشهور هو « سلطان علي المشهدي » الذي كان يعمل في مدينة هراة في اواخر القرن التاسع واوائل القرن العاشر بعد الهجرة •

وكما ساهم الفرس في تجويد الخط العربي كذلك كان للاتراك العثمانيين نصيب وفير في ذلك ، فقد ابتدعوا انواعا جديدة منه نذكر منها خط الرقعة [1] ، والخط الديواني [2] الذي اعتمد في صورته على « الخط الريحاني » الذي اشرنا اليه من قبل ، ولقد سمي كذلك لانه كان الخط المستعمل في كتابة الوثائق الرسمية في البلاط العثماني • ونلاحظ ان صورته معقدة للغاية ، ومن هنا كان يحتاج في تعلمه ، واتقانه الى وقت طويل وجهد كبير من المران ، ولعل هذا التعقيد كان مقصودا لذاته حتى يصعب تزوير الوثائق الرسمية التي كانت تكتب به عادة •

ويضيق المقام هنا عن ان نشير الى كل من اشتهر من الخطاطين المسلمين ، ويمكن لمن يحب ان يزداد في هذا الموضوع علما ان يرجع الى كتاب

---

(١) انظر عبارة « اثر الفن الاسلامي في اوربا » المنشورة في ص ١٩٧ من هذا الكتاب وهي من خط الاستاذ محمد هاشم سالف الذكر •

(٢) انظر عبارة « العمائر الاسلامية القائمة » المنشورة في ص ٢٥ من هذا الكتاب وهي من خط الاستاذ محمد هاشم سالف الذكر •

المستشرق الفرنسي هيوارت الذي طبع في باريس سنة **١٩٠٨** فقد تضمن الكثير من الحقائق التاريخية التي تلقي اضواء باهرة على هذا الموضوع (١) •



شكل (٧٠)

على ان الخطاطين المسلمين لم يقفوا عند حد تجويد الخط ، وابداع صور مختلفة له ، ولكنهم ولدوا من الحروف والكلمات رسوما زخرفية لها جمال رائق ، فجعلوا بعضها على صورة الطيور (شكل **٧٠**) ، وبعضها على هيئة السفينة ، وبعضها على شكل وجه آدمي وهكذا •

وتعتبر الطغراء من هذه الصور الجميلة التي ابتكرها الخطاطون المسلمون ، ولا نعرف في الواقع متى ابتكرت بالضبط ، ولكن لاشك انها كانت معروفة قبل سنة **٥١٥**هـ (**١١٢١**م) لان ابن‌خلكان يقول في تاريخه ان الحسين بن علي الذي كان وزيرا في مدينة اربيل (في شمال العراق) كان يعرف بالطغرائي لانه كان يكتب الطغراء •

والكلمة نفسها تركية الاصل « طغراغ » ، وهي تقابل كلمة « نيشان » الفارسية الاصل ، وكلمة « توقيع » العربية • ويحدثنا المقريزي في خططه عن الطغراء فيقول ان المنشورات كانت تطغر بالسواد بالقلم الغليظ ، وتتضمن اسم السلطان والقابه • ويضيف القلقشندي في كتابه صبح الاعشى الى ما تقدم انه كان للطغراء رجل ينفرد بعملها ، فاذا كتب الكاتب منشورا اخذ من تلك الطغراوات واحدة والصقها فيما كتب •

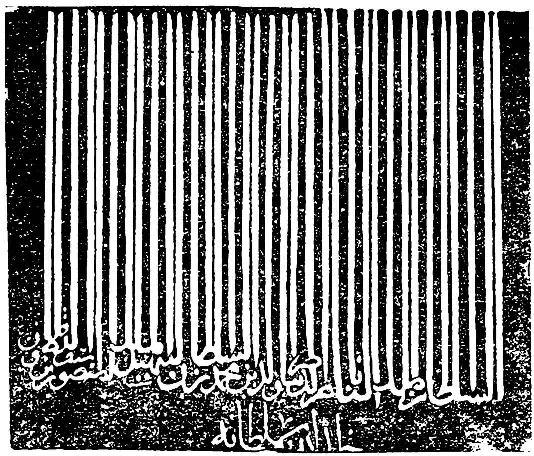
وقد أمدنا القلقشندي في كتابه سالف الذكر بصورتين جميلتين للطغراء المملوكية واحدة منها باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد نشرنا صورتها

---

(١) Huart, Les Calligraphes et Les Miniaturistes de L'Orient Musulman, Paris, 1908.

مع هذا الكلام (شكل ٧١) والاخرى باسم السلطان شعبان بن حسين •

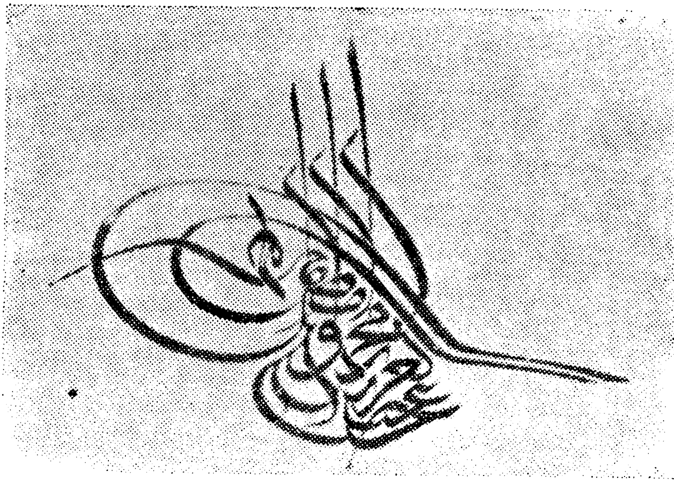
وقد بطل استعمال الطغراء بعد انتهاء حكم السلطان شعبان سالف الذكر ، ويعلل المؤرخون ذلك بان الناس قد تنبهوا الى ان الطغراء كانت تثبت عادة في المنشورات فوق البسملة ، ومعنى هذا ان اسم السلطان يسبق اسم الله وهذا غير جائز •



شكل (٧١)

على ان الدور العظيم الذي لعبته الطغراء كان لدى الاتراك العثمانيين ، فقد توسعوا في استخدامها ، واتخذوا منها شعارا لهم ، فوضعت على الوثائق المكتوبة ، وعلى السفن الحربية ، وعلى العمائر ، وعلى العملة ، وعلى طوابع البريد ، واصبحت تعرف حينئذ باسم « الطرة » (شكل ٧٢) •

ولظهور الطغراء لدى الاتراك العثمانيين قصة طريفة رددها عدد من المؤرخين الاوربيين نذكر منهم هامر (Hammer)، وانجل (Engel) ولين بول (Lane - Poole) ونحن نلخص هنا هذه القصة عن هذا المؤرخ الاخير كما جاءت في كتابه تركيا (Turkey) ، ولا نستطيع ان نؤيد هذه القصة او ننفيها فلسنا نملك من الوثائق ما يساعدنا على ذلك •



شكل (٧٢)

وملخص القصة ان السلطان مراد الاول كان في حرب مع اعدائه ، وانتهت الحرب بعقد معاهدة بين الطرفين ، وكتبت المعاهدة ، وقرئت على السلطان ، ثم قدمت له ليوقع عليها ، ولكنه كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، فاضطر ان يبصم على المعاهدة بطريقة خاصة اذ دهن يده اليسرى بالحبر ثم طوى ابهامه ومد اصابعه الثلاثة الى اعلى وترك خنصره منفرجا قليلا ثم ضغط بيده على المعاهدة فظهرت صورة قريبة من صور الطغراء التركية ، وتناول كاتبه هذه المعاهدة وكتب داخل الصورة اسم السلطان واسم ابيه ولقب خان وعبارة « عز نصره » •

وسواء صحت هذه القصة او لم تصح فالطغراء لاتخرج عن كونها نوع من تلك الصور الزخرفية التي ابتكرها الخطاط المسلم •

موقف الاسلام من فن الزخرفة

حبب الاسلام الى الفنانين ان يستعملوا الزخارف النباتية ، والزخارف الهندسية ، فقد روى البخاري بسنده عن سعيد بن ابي الحسن حديثا جاء فيه : « كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما اذ اتاه رجل فقال : يا ابن عباس اني انسان انما اعيش من صنعة يدي ، واني أصنع هذه التصاوير • فقال ابن عباس لا أحدثك

الا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سمعته يقول مَنْ صور صورة فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ ابدا • فربا الرجل ربوة ، واصفر وجهه • فقال (ابن عباس) ويحك ! ان ابيت الا ان تصنع ، فعليك بهذا الشجر ، وكل شيء ليس فيه روح » (١) •

وفي هذا الحديث النبوي توجيهات ثلاثة للفنان : الاول ان يمتنع عن التصوير ، والثاني ان يعنى برسم الشجر ، او بتعبيرنا الحديث برسم الزخارف النباتية ، والثالث ان يعني برسم ماليس فيه روح او بعبارة اخرى برسم الزخارف الهندسية ، والمناظر الطبيعية ، وما الى ذلك مما لاحياة فيه •

اما التوجيه الاول فيتصل بموضوع التصوير الذي سنتحدث عنه فيما بعد ، واما التوجيهان الثاني والثالث فقد اثمرا احسن الثمار ، وكان من ورائهما ان اصبح للفن الاسلامي طابع خاص يمتاز به عن الفنون الاخرى ، فالزخارف النباتية بلغت على يديه درجة سامية من الجمال الفنى ، وابتكر فيها صورة جديدة لم تكن معروفة من قبل هي « الارابسك » • والزخارف الهندسية تفوق فيها تفوقا منعدم النظير ، وتجاوز في ابداعها الحد الذي وصلت اليه الفنون التي سبقته او الفنون التي لحقت به •

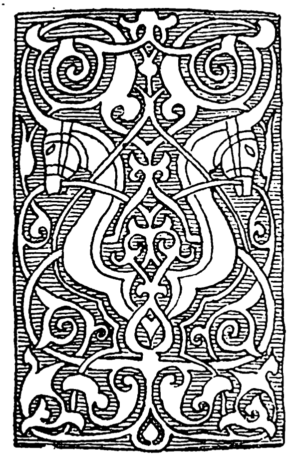
و «الارابسك» (٢) هي تلك الزخرفة التي تنم باسمها عن أصلها العربي ، فقد أطلق مؤرخو الفن من الاوربيين هذه الكلمة على نوع من الزخارف النباتية ابتدعه الفنان المسلم ، حقا انه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجده بين يديه من وحدات في الفنون السابقة على الاسلام ، الا انه رتب هذه الوحدات ترتيبا غير مسبوق ولاءم بينها بطريقة مبتكرة ، ونسق بين اجزائها تنسيقا جعلها تبدو كأنها شيء جديد اخترع لاول مرة وما هي في حقيقتها كذلك ، لقد جمع هذه الوحدات الموروثة معا ثم صهرها في بوتقته ، ومزجها بفلسفته وسلط عليها اشعة عبقريته فخرجت من بين يديه شيئاً جديدا لا يخفى عليك اصله ولكنك لاتستطيع ان تنكر عليه شخصيته القوية الواضحة • انه لم يبتكر وحدات نباتية او حيوانية

(١) صحيح البخارى : كتاب البيوع ب ١٠٤ •

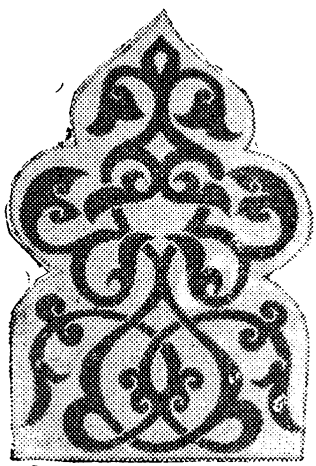
(٢) احدث ما كتب عن «الارابسك» نجده في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الاسلامية مادة «ارابسك» Arabesque التي كتبها المرحوم الاستاذ «كونل» Kuhnel

بل رسم الازهار ، والاشجار، والاوراق ، والسيقان ، والطيور ، والحيوان بعد ان جورها تحويرا كادت ان تفقد معه شخصيتها كوحدات نباتية او حيوانية ، ولكنها وان بعدت عن الطبيعة فلا يزال لها جمال فني يدل على سعة خيال مبدعها ، وصفاء قريحته •

لقد وصفت « الارابسك » بانها لغة الفن الاسلامي كما وصفت الصور الآدمية بأنها لغة الفنون الاوربية ، والواقع ان الانسان لايستطيع ان يفهم هذه اللغة ، ولا يتذوق جمالها الفني الا اذا ادرك الفكرة الكامنة وراءها (١) ، الفكرة التي آمن بها الفنان المسلم ايمانا عميقا فأوحت اليه بهذا النوع من الزخرف ، لقد تعلم



شكل (٧٣)



شكل (٧٤)

من القرآن الكريم ان « **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام** » • فهذا العالم المتغير ، المتطور ، مآله الى الفناء المحتوم بينما الحق سبحانه وتعالى هو وحده الباقي الذي لا يلحق به فناء او زوال ، فلماذا يحاول هو ان يخلد بفنه

(١) راجع في هذا الموضوع بحثا بالفرنسية للعلامة ماسينون :

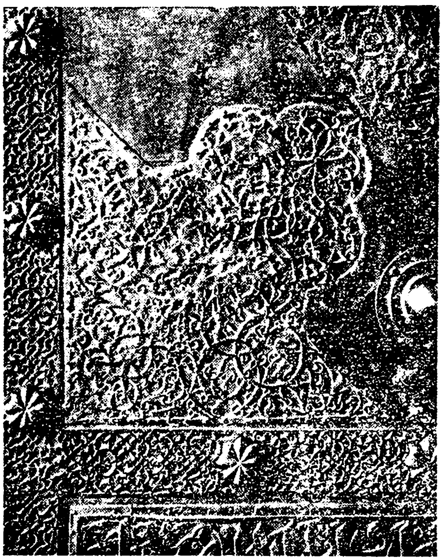
Massignon, Les methodes de realisation artistique des peuples de L'Islam, Syria Vol. 1.

وراجع بحثا بالانجليزية للدكتور لام نشر في الجزء الثالث من مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة عنوانه :

Lamm, The Spirit of Muslim Art.

وراجع للمؤلف كتاب « الاسلام والفنون الجميلة » • القاهرة سنة ١٩٤٢ •

ما هو محكوم عليه بالفناء ؟ لماذا يصور الوحدات الزخرفية كما هي في الطبيعة ما دامت هذه الصور ستزول يوما ما ؟ لماذا لا يعبث بهذه الوحدات ويعطيها خلال عبثه هذا ، صورا جديدة ، ويكون من اجزائها رسما يخضعه لاصول الجمال الفني ؟ لقد فقدت الزخارف النباتية والحيوانية في هذا الاتجاه الجديد مظهرها الطبيعي الذي كانت تعيش به في الوجود ، ولكنها لم تفقد قدرتها على أن تكون مصدرا لصور زخرفية جديدة تشيع الغبطة في النفس • ان الذين ظنوا ان هذا التنسيق ، والتحوير ، والبعد عن الطبيعة التي نلحظها في « الارابسك » هي ناتجة عن ضعف في قوة ملاحظة الفنان المسلم ، او عن عجز في قدرته على الرسم ، جد مخطئون في ظنهم ، انهم لم يفهموا الروح الكامنة وراءها ، انها في الحقيقة ناتجة عن اتجاه جديد آمن به الفنان المسلم ، اتجاه لم يكن موجودا من قبل وهو ان



شكل (٧٥)

الفن لم يعد لخدمة الدين ـ كما كان الحال قبل الاسلام ـ ولكنه ينبغي ان يكون لخدمة الدنيا ، ان رسالته هي ان يخفف عنا بعض متاعب الحياة ، فيكون لنا مهربا نلجأ اليه كلما اثقلت كواهلنا اعباء السعي وراء لقمة العيش، فينقلنا بالوانه ، وزخارفه، واشكاله ، الى عالم السحر والجمال ، الى عالم ننسى بين يديه همومنا ، ونستمتع تحت سمائه بالهدوء والغبطة والانشراح • لقد اندفع الفنان وراء خياله وهو يرسم «الارابسك» ولكنه اخضع هذا الخيال الى التوازن ، والتقابل، والتماثل، وهي من الاسس الرئيسية التي يقوم عليها فن الزخرفة فخرجت « الارابسك » من بين يديه رائعة ، تشدنا الى الوقوف عندها كلما وقع النظر عليها • وللشاعر الالماني الشهير «جوته» مقطوعة شعرية وصف بها الشعر العربي، وكأنما كان يصف بها الارابسك ولا عجب فكلاهما نابع من مصدر واحد هو الروح العربية ، ونرى من المفيد ان

نثبتها هنا ، اذ يقول في وصفه للشعر العربي : « انت لانهاية لك وهذا هو سر عظمتك

وانت لا بداية لك وهذه هي ميزتك

فاغنيتك دوارة كقبة السماء

ونهايتك وبدايتك متشابهتان

والوسط يقود الى النهاية التي هي البداية نفسها

انك لمتكامل »[١]

ونجد في هذه الصفحات بعض الصور التي تعطينا عن الارابسك فكرة واضحة ، واحدة منها تمثلها على قطعة من الخشب الفاطمي معروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة (شكل ٧٣) ، وواحدة تمثلها على تحفة من الخزف التركي نراها في أحد مساجد قونية (شكل ٧٤) والثالثة تمثلها على جزء من لوح من البرنز يكسو احد الابواب المملوكية المعروضة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، واذا انت نظرت اليها رأيتها على هيئة فروع نباتية متشابكة ، فاذا امعنت النظر في هذه الفروع وجدتها صور حيوانات ، وطيور ، قد أتصل بعضها ببعض في شكل رائع جميل (شكل ٧٥) .

ولكن كيف كانت تسمى « الارابسك » عند اجدادنا في العصور الوسطى ؟ ان هذا الاسم اطلقه عليها مؤرخو الفن من الاوربيين فكيف كان يعبر عنها اجدادنا ؟ ان الاسبان يعبرون عن هذا الزخرف بكلمة Ataurique وهي كلمة مشتقة في الغالب من الكلمة العربية « التوريق » وليس من المستبعد ان تكون هذه الكلمة العربية هي التي كانت تطلق على « الارابسك » . والواقع ان كلمة التوريق تعبر عن هذا الزخرف اصدق تعبير[٢] .

---

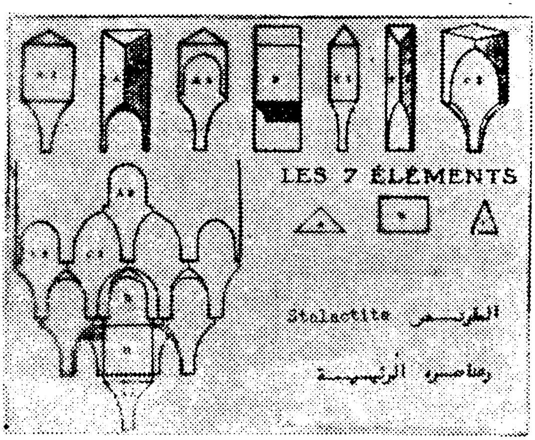
(١) راجع الاصل الالماني في كتاب :

Hunke, S., ALLAHS Sonne Uber Dem Abendland.

والترجمة العربية للاستاذين فاروق بيضون وكمال دسوقي التي نشرت تحت عنوان: « شمس العرب تسطع على الغرب » ص ٤٨٠ ــ من منشورات دار المكتب التجاري في بيروت سنة ١٩٦٤ .

(٢) اطلق المرحوم الدكتور بشر فارس على هذه الزخرفة اسم « الرقش » في كتابه « سر الزخرفة الاسلامية » ، وهو من مطبوعات المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٢ . ولكننا نعتقد ان كلمة « التوريق » اصدق في التعبير عن هذا النوع من الزخرف .

ومن ابرز انواع الزخارف الاسلامية التي « ليس فيها روح » كما جاء في الحديث النبوي سالف الذكر [1] ، الزخرفة المعروفة باسم «المقرنصات» وهي كذلك تعد من ابرز خصائص الفن الاسلامي، والكلمة اغلب الظن مأخوذة من الكلمة العربية «مقرفص» اي جالس القرفصاء ، ذلك لان هذا النوع من الزخرف يعرف في بلاد المغرب باسم « المقرفص » او « المقربص » • ويطلق على هذه الظاهرة الزخرفية في اللغات الاوربية كلمة Stalactite التي تعنى في الاصل الرواسب الكلسية المخروطية الشكل التي تتدلى من أسقف بعض الكهوف (مثل مغارة قديشه في لبنـان) •



شكل (٧٦)

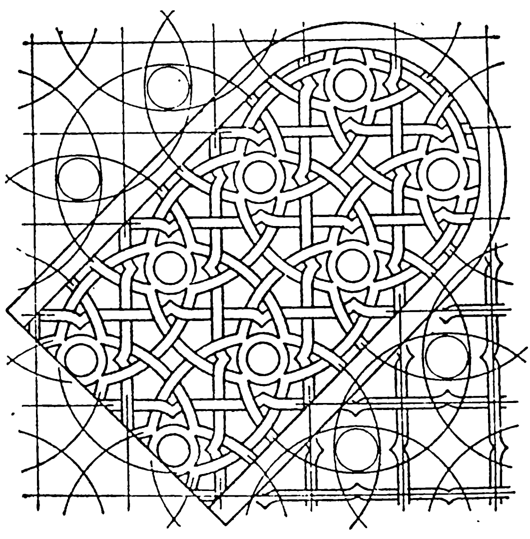
وهذه الكلمة الاوربية في الواقع غير دقيقة في التعبير عن الصور المختلفـة المتعددة لهذا النوع من الزخرف اذ هي لا تصدق الا على صورة واحدة منه • ولكن الكلمة شاعت الآن بين المشتغلين بالاثار الاسلامية من الاوربيين للدلالة على جميع صور هذا العنصر الزخرفي •

وأصل المقرنص في الفن الاسلامي هو الكوة التي تقام فوق الزوايا الاربع لغرفة مربعة يراد تسقيفها بالقبة ، وبواسطة تلك الكوى الاربع يستطيع البناء ان يوجد سطحا يمكن للقبة ان تستقر عليه ، وقد ورث العرب هذه الطريقة عن الامم السابقة عليهم ، واستخدموها في عمائرهم ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يصبروا

---

(١) انظر ص ١٧٩ ، ١٨٠ من هذا الكتاب •

طويلا على سذاجتها ، بل ما كاد يتهذب ذوقهم ، وترتقي ملكتهم الفنية حتى أخذوا يعدلون في شكل تلك الكوى ، ويعقدون في مظهرها ، فقسموها الى كوى صغيرة متعددة وتفننوا في وضع هذه الكوى الصغيرة ، وفي تنسيقها ، وفي تزيينها حتى بدت قطعا من الفن الجميل ، كلما تأملت فيها غمرتك بلذة روحية ، وزادتك يقينا بعظمة الفن الاسلامي • وقد شاء لهم خصبهم الفني الا يقفوا بها عند حد استعمالها تحت القباب ، بل اتخذوا منها وسيلة لتزيين الفتحات من ابواب ونوافذ ، وتزيين العقود ، والمداخل ، والاركان ، والزوايا ، وكل مكان في البناء صالح لاستعمال هذا العنصر الزخرفي ، ويعتبر قصر الحمراء في الاندلس خير مثال يتجلى فيه جمال هذا النوع بصوره المختلفة ، وفي الرسم الوارد هنا (شكل ٧٦) نرى العناصر السبعة التي يستعين بها الفنان على تكوين هذا الزخرف كما أننا نشاهده كاملا في الاشكال رقم ٧ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٧ من هذا الكتاب •



شكل (٧٧)

وقد بعث الفنان المسلم في الزخارف الهندسية روحا جديدة ، فبدت في ثوب من الجمال الفني لم يكن لها من قبل ، انه لم يخترع اشكالا هندسية ولكنه بالغ في تقسيم هذه الاشكال المعروفة ، وخرّج منها زخارف شتى تدل على براعته في علم الهندسة ، ومن احسن ما يكشف لنا عن هذه العبقرية التحليل الذي اوضحه لنا كرزول (في كتابه عن العمارة الاسلامية) للزخارف الهندسية في احد شبابيك المسجد الجامع بمدينة دمشق (شكل ٧٧) •

موقف الاسلام من فن النحت

المقصود بفن النحت هو فن صناعة التماثيل ، وللاسلام من هذا الفن موقف يختلف عن موقفه من فن الزخرفة ، فهو لم يشجع هذا الفن ، ولم يكن له توجيه فيه ، ولكنه ايضا لم يحرمه كما يظن بعض الناس خطأ •

وإذا نحن استعرضنا اعمال الفنانين المسلمين في العصور الوسطى ، وجدنا انهم لم يقبلوا على فن النحت اقبالهم على الفنون الاخرى ، وإذا نحن قارنا بين الامثلة القليلة من منتجات هذا الفن عندهم وبين ما انتجته الفنون الاخرى في هذا المجال رأينا ن النحاتين المسلمين لم يصلوا في فنهم الى الدرجة التي سما اليها النحاتون المتقدمون الذين سبقوهم الى الوجود ، او الى الدرجة التي ارتفع لها النحاتون الذين لحقوا بهم لاسيما في عصر النهضة الاوربية من حيث اتقان النحت ودقة نسب الاجزاء – في الشيء المنحوت – بعضها الى بعض •



شكل (٧٨)

وقد يتبادر الى الذهن ان في قصور الفنانين المسلمين في هذا المجال ما يعد مأخذا على الفن الاسلامي ، ودليلا على تأخر المبدعين له ، ولكن الواقع غير ذلك ، اذ ليس فيه ما يزري بمكانة هذا الفن بين الفنون الاخرى ، لان لكل فن بيئته التي نشأ فيها ، والعوامل التي تحكمت في نشأته ، والمصادر التي أستمد منها عناصره الاولية • فاليونان القدماء مثلا نشأوا في بيئة يتوفر فيها الرخام ، فاتخذوا منه

مادة لاعمالهم الفنية ، وقد تخيلوا الهتهم على هيئة الانسان فنحتوا من الرخام تماثيل لهذه الالهة ، وافرغوا جهدهم في نحتها ، فخرجت من بين ايديهم رائعة ، جميلة ، متناسقة الابعاد ، موزونة الاجزاء ، حتى انها تعتبر الى اليوم من المثل العليا في فن النحت . اما العرب فلم تكن في بيئتهم الصحراوية التي نشأوا فيها ، ولم يكن في حياتهم الفكرية ما يشجع على نحت التماثيل كما كان الحال عند اليونان .

وقبيل ظهور الاسلام كان يسود البلاد المحيطة بالعرب فنان هما الفن البيزنطي ، والفن الساساني كما عرفنا من قبل . ولم يكن كلاهما يعنى بعمل التماثيل عناية الفراعنة او اليونان او الرومان بها ، ذلك لان البيزنطيين كانوا يدينون بالمسيحية وهي لا تحتاج في عبادتها الى تماثيل ، والساسانيين كانوا يعبدون النار وهي كذلك عبادة لا تحتاج الى تماثيل [١] .

ولما جاء الاسلام ، وخرج العرب من جزيرتهم ، وقضوا على دولة الساسانيين واضعفوا دولة البيزنطيين ، وشاهدوا في بلاد هاتين الدولتين الاثار الفنية المختلفة ، وتأثروا بحضارتيهما ـ لم يتجهوا مثلهما الى صناعة التماثيل لان الاسلام هو كذلك لايحتاج في عبادته الى تماثيل .

ولقد نص هذا الدين صراحة في كتابه العزيز على ان التماثيل التي تصنع لكي تعبد من دون الله رجس من عمل الشيطان على المسلمين ان يجتنبوه [٢] .

وتعرضت الاحاديث النبوية لهذا الموضوع [٣] وان كانت لم تذكر صراحة كلمة التماثيل ، ولكنها عبرت عنها بالصور ، والصور اذا كانت مجسمة فهي في

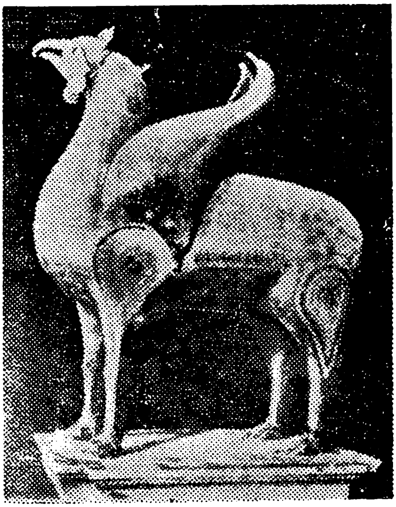
---

(١) التماثيل هي ما كانت لها الابعاد الثلاثة (الطول والعرض والسمك) وكانت في الوقت ذاته مستقلة في وجودها عن غيرها . وعبارةفن النحت Sculpture التي نستعملها هنا هي تسمية اصطلاحية وليست لغوية ، وارجو الا يلتبس في ذهن القاريء هذا الفن بفن الحفر البارز relief الذي حذقه الفرس في العصر الساساني قبل الاسلام فتركوا في «نقش رستم» مثلا ، صورا بارزة محفورة في الحجر .

(٢) يقول الله تعالى في سورة المائدة : « **انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** » . وقد فسرت كلمة « الانصاب » بانها التماثيل التي تعبد من دون الله .

(٣) راجع « مفتاح كنوز السنة » تأليف « فنسك » وتعريب محمد فؤاد عبدالباقي ، للوقوف على جميع الاحاديث التي وردت بشأن التصوير في ص ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ .

الغالب تماثيل مخروطة • وقد توعدت هذه الاحاديث بالعقاب كل من يصنع هذه التماثيل ، وبينت أثم من يستعملها او يبيعها • ولم تفرق بين التماثيل التي تصنع للعبادة [١] ، والتي حرمها القرآن كما ذكرنا ، وبين التماثيل التي تصنع لغير ذلك من اغراض شتى ، وقد يكون ذلك مقصود لذاته ايثارا لسلامة العقيدة ، وبعداً عن مواطن الشبهات •



شكل (٧٩)

وقد أدرك اجدادنا ان هذا التحريم أو الكراهية الواردة في الاحاديث انما تنصب على ما يتخذ من هذه التماثيل للعبادة وذلك تمشيا مع ما جاء في القرآن الكريم ، وأخذاً مما عرف عن النبي صلوات الله عليه ، من انه دخل على السيدة عائشة رضي الله عنها ووجدها تلعب « بالبنات » اي بتماثيل على هيئة البنات ، فلم ينكر عليها ذلك [٢] • ومن هنا وجدنا من الفنانين المسلمين من اشتغل بعمل التماثيل لتزيين القصور ، ولكي يلعب بها الاطفال ، ولغير ذلك من الاغراض ، وقد نحتوها من الحجر ، ومن الخشب ، ومن المعدن ، ومن الشمع ، بل ومن السكر ايضا • وكتب الادب والتاريخ مليئة بالامثلة ، ويضيق المقام هنا عن ان نذكر كل هذه الامثلة او بعضها ، انما يكفي ان نثبت هنا صورة لتمثال من الجص يمثل رجلا واقفا كشفت عنه حفائر مديرية الاثار الفلسطينية في قصر هشام بخربة المفجر (شكل ٧٨) ، وتمثال آخر من البرونز يمثل حيوانا خرافيا ، خرج من البلاد الاسلامية الى ايطاليا في عصر لا نعرفه وهو الان في مدينة « بيزا » ويزدان بكتابات كوفية تثبت أصله الاسلامي (شكل ٧٩) •

---

(١) كانت بعض اصنام العرب على هيئة تماثيل مثل « هبل » الذي كان على صورة الانسان ، ومثل « ودّ » الذي كان تمثالا لرجل كاعظم ما تكون الرجال (راجع ص ٢٨ و ٥٦) من كتاب الاصنام « لابن الكلبي »

(٢) راجع كتاب التصوير عند العرب للمرحوم احمد تيمور باشا _ نشر وتعليق المرحوم الدكتور زكي محمد حسن ص ٨٢ ٠ القاهرة سنة ١٩٤٢ ٠

موقف الاسلام من فن التصوير

وما ذكرناه عن موقف الاسلام من فن النحت [١] نقوله كذلك عن فن التصوير ، فالاسلام لم يشجع هذا الفن ، ولم يكن له فيه توجيه ، وهو ايضا لم ينه عنه او يحرمه في كتابه العزيز ، واذا كان القرآن قد حرم صراحة «الانصاب» اي التماثيل التي تعبد من دون الله كما اوضحنا من قبل [٢] فانه لم يرد به نص صريح او غير صريح يحرم به التصوير •

ولكن الاحاديث النبوية قد تناولت موضوع التصوير ــ كما اشرنا من قبل ــ من زوايا متعددة ، ولا يتسع المجال هنا لكي نفصل القول فيها [٣] ويكفي ان نقول انها لم تجمع فيه على حكم واحد ، بل نجد ان بينها مايترخص في التصوير ولا يجد فيه بأسا اذا كان على الفُرُش ، وبعضها يبيح تصوير ماليس فيه روح ، وبعضها يلعن المصور وبائع الصور ، وبعضها يتسامح في صور الكائنات الحية اذا كان فيها ما يحول دون حياتها اذا ما قدر ونفخت فيها الروح • وقد فسر الفقهاء هذه الاحاديث تفسيرا ابرز ما فيه ان مزاولة هذا الفن ، او العناية به يحوم حولها الشك ، ويحف بها عدم الاطمئنان •

واذا كانت النية الحسنة ، والدوافع الطيبة هي التي أملت من غير شك هذا التفسير الا انه قد ترتب عليه ان المصور ــ مع ما في فنه من مهارة عظيمة وما لهذا الفن من أثر في المجتمع ــ لم يبلغ من المنزلة الرفيعة في المجتمع الاسلامي ما بلغه الخطاط المسلم مثلا او ما بلغه زميله الاوربي في المجتمع الاوربي • وقد انعكس هذا التفسير ايضا على المجتمع الاسلامي نفسه ــ ولا ننسى ان روح الدين كانت قوية جدا في النفوس في ذلك الحين ــ فلم يعن الناس ، الا قليلا ، باقتناء الصور ، او المحافظة على ما كان موجودا منها ، بل لعلنا على العكس نلاحظ ان بعض الحكام

---

(١) انظر ص ١٨٦ــ١٨٨ من هذا الكتاب •

(٢) انظر ص ١٨٧ من هذا الكتاب •

(٣) من شاء الوقوف على جميع هذه الاحاديث النبوية فعليه ان يرجع الى كتاب « مفتاح كنوز السنة » الذي اشرنا اليه من قبل •

أمر بمحو الصور [١] • وبعض الصور التي وصلت الينا في المخطوطات قد لحقها التشويه [٢] والكثير منها لاشك قد أحرق ، او مزق ، وذهب ادراج الرياح •

وأحس المصورون المسلمون بهذا الجحود لقيمة فنهم فانطووا على أنفسهم ، ولم يفخروا باعمالهم شأن كل فنان ، وبالتالي لم يوقع الكثيرون منهم على هذه الاعمال الفنية كما وقع الخزاف والنساج والمكفت والنقاش والنجار • وقد كان عدم توقيع المصورين من العوامل التي جعلت دراسة فن التصوير عند المسلمين دراسة عرجاء ، او بعبارة أخرى دراسة غير جامعة مانعة ـ كمايقول رجال المنطق ـ لانها اقتصرت على دراسة الصورة دون المصور ، ولا يخفى ان معرفة حياة المصور ، والوقوف على نشأته ، وعلى العناصر التي تفاعلت في تكوين ملكته ، لها أثر بعيد في فهم عمله وتقييمه •

على ان تلك الظروف السالفة الذكر التي احاطت بالتصوير والمصورين لم نمنع من اقدام هؤلاء على مزاولة عملهم في شتى المجالات ، فغزوا بالتصوير جميع فروع الفن من عمائر ، واخشاب وعاج ، وزجاج ، وخزف ، ومنسوجات ، وطنافس ، ومخطوطات [٣] •

ولقد تجلت عبقرية المصور المسلم اروع ما تجلت في « فن الكتاب » كما بينا ذلك من قبل [٤] ، وبقي علينا ان نشير هنا الى الصور التي وصلت الينا مرسومة على بعض الآثار الاسلامية التي اشرنا اليها في رحلتنا عبر العالم الاسلامي مثل

---

(١) مرّ عمر بن عبدالعزيز يوما بحمام عليه صورة ، فأمر بها فطمست ، ثم قال لو علمت من عمل هذا لاوجعته ضربا (ص ٤٦ و ٤٧) من كتاب مناقب عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي ـ طبعة اوربا •

(٢) انظر اللوحة رقم ٧ من كتاب : Arnold, Painting in Islam.

(٣) يتجلى فن التصوير في هذه المواد جميعا ، ولا يختلف في مادة عن اخرى الا في الطريقة التي تتبع في رسم الصورة فتكون في الغالب على الابنية بالفسيفساء وبالفرسكو ، وتكون في الخشب والعاج والمعادن بالحفر البارز او الغائر ، وتكون في الزجاج بالمينا ، وتكون على الخزف بالدهان ، وتكون في الاقمشة والطنافس بالنسج ، وتكون في المخطوطات بماء الذهب ومختلف الاصباغ •

(٤) راجع ص ١٦٠ و ١٦١ وما بعدها من هذا الكتاب •

المسجد الاموي بدمشق ، وقصير عمرة بالقرب من عمان ، وقصر الحير الغربي ، وصور مدينة نيسابور ، والجوسق الخاقاني في سامراء ، والحمام الفاطمي في القاهرة ، وقاعة العدل في قصر الحمراء بغرناطة • ولا تقل هذه الصور في جمالها الفني عن الصور الصغيرة في الكتب •

ولقد وصف لنا المقدسي الصور التي كانت تزين المسجد الاموي في دمشق وصفا دقيقا فقال عنها انها تجلو للناظر صور اشجار ، ومدن من أروع ما يتصوره العقل ، ومن ادق ما صنعته يد الانسان ، ومن الصعب – كما يقول المقدسي – الا نجد في هذه الفسيفساء شجرة معروفة او مدينة مشهورة •

وظل كلام المقدسي حبرا على ورق حتى جاء علم الآثار فأيد كلامه هذا بالدليل المادي اذ وفق العالم الفرنسى « دي لوريه De Lorey » اثناء قيامه بترميم بعض اجزاء هذا المسجد الى الكشف في سنة **١٩٢٧** عن مناظر نهر بردى – كما تسمى بين الاثريين – وبلغت مساحة ما كشف عنه نحوا من **٥٠٠** متر مربع وهو واقع بالقرب من المدخل الرئيسي للمسجد على يسار الداخل ، واهم ما نشاهده في هذه المناظر صورة نهر يجري تحت جسر جميل (شكل **٢٥** ص **٥٦** من هذا الكتاب) ، وعلى ضفتي النهر تقوم اشجار باسقة تحمل الفواكه المختلفة الاشكال والالوان ، ووراء هذه الاشجار صور ابنية ذات طرز معمارية شتى ، بعضها على الطراز الروماني ، وبعضها على الطراز الصيني ، ومن أهم ما يستلفت النظر في هذه الاخيرة اسقف المعابد الصينية Pagoda ذات الطابع الخاص • وهناك صور قصور قائمة وسط مروج خضراء لعلها كانت تمثل القصور الخلوية التي كان يحرص الخلفاء الامويون على أقامتها لكي يلجأوا اليها عندما يخرجون للصيد ، ومن وراء ذلك كله منظر بعض القرى التي تبدو خلال الاشجار ببيوتها الصغيرة المتقاربة ، التي يركب بعضها بعضا • وقد تجلت براعة المصور في هذه الصورة العظيمة اروع ما تجلت ، في رسم مياه النهر ، فقد استعمل الدرجات المختلفة للون الازرق لابراز جريان النهر ، ولكنه استبدل هذا اللون باللون الفضي عند رسمه للزبد وهو يتراكم على الشاطيء •

وهذه الصور قد صنعها المصور بالفسيفساء الزجاجية المختلفة الالوان [١] ، وهي تكشف لنا عن حقيقتين في التصوير الاسلامي : الاولى ان هذه الصـــور موجودة في داخل مسجد من أكبر المساجد في العالم الاسلامي مما يشعر بـــان الاسلام لايتعارض مع التصوير كفن ، وان صح ما ورد فيه من كراهية او نهي فانما ذلك ينصرف الى ما يخشى منه على العقيدة الدينية ولا ينصرف قط الى التجميل • والحقيقة الثانية ان هذه الصور انما تترجم احسن ترجمة عن روح الفن الأسلامي الذي يهدف الى تجميل هذه الحياة الدنيا ، ويتخذ من مناظر الطبيعة ، ومن صور المجتمع الانساني ميدانا له •

وتصاوير قصيرة عمرة قد عملت بطريقة الفرسكو[٢] ، ويرجع الفضـــل في وصولها الينا الى العالمين الاثريين موزل Musil وكرابتشـــك Karabacek اللذين نقلا هذه الصور بالالوان في كتابهما عن هذا الاثر فور اكتشافهما له سنة ١٨٩٨ [٣] ، وقد امتد التلف الى معظمها • وأهم ما نشاهده فيها صورة الخليفة وهو جالس على عرشه ، وصورا تمثل الصيد والرقص والاستحمام ، وصورة تمثل الملوك والامراء الذين انتصر عليهم الوليد بن عبدالملك ، وقد ظهرت كلمات عربية فوق بعض هؤلاء الملوك والامراء مما ساعد على تفهم الصورة ومعرفة مدلولها [٤] •

---

(١) الفسيفساء mosaic تقوم على تكوين رسوم مختلفة بواسطة قطع صغيرة او فصوص مختلفة الالوان تثبت بجوار بعضها البعض وقد تكون الفصوص من الحجر الطبيعي ذي الالوان المختلفة او من الصدف mother of Pearl او من الخزف او من الزجاج وهذه الاخيرة هي التي شاعت في العصر البيزنطي وتعلمها العرب واستعملوها في تزيين عمائرهم وقد كثر استعمالها في عصر الخلافـــة الاموية في بلاد الشام وفي بلاد الاندلس ثم قلّ استعمالها في العصر العباسى وفي العصور التالية •

(٢) الفرسكو Fresco هي طريقة الرسم بالالوان المائية على الجدران ، والتسمية وضعهـــا مؤرخو الفن من الاوربيـــين اخذا من العبارة الايطاليـــة Pittura al Fresco اي التصوير على ملاط حديث العهد •

(٣) Musil und Karabacek, Kusijer Amra, Wien, 1907.

(٤) Creswell, Early Muslim, Architeceure Vol. 1, p. 268, 269

وتصاوير قصر الحير الغربي قد عملت كذلك بطريقة الفرسكو ولكن الصور هنا على أرضية الغرف وليست على جدرانها كما هو الحال في قصير عمـــرة • وأهم ما نراه : صورة تمثل موسيقيين يعزفان على آلتيهما ، وصورة تمثل صيادا على ظهر جواده في حركة جري وراء غزالتين أحداهما وقعت جريحة على الارض والاخرى تنظر اليه من بعيد وهي تعدو بينما يصوب هو نحوها سهامه [١] •

وتصاوير مدينة نيسابورالتي كشف عنها متحف المتروبوليتان ، ونقل الكثير منها الى متحف طهران ، منفذة بنفس الطريقة السابقة اي طريقة الفرسكو ومن أروعها صورة تمثل صيادا على ظهر جواده يلبس افخر الثياب ، وعلى رأسه خوذة ، ومعه سيفان ودرع ، وفوق رسغه الايمن باز ، وفي سرجه قد ربـــط حيوان اشبه ما يكون بالارنب البري [٢] •

وتصاوير قصر الجوسق الخاقاني في مدينة سامراء التي كشف عنها العلامة الاثرى هرتسفلد Herzfeld وصورها فور الكشف عنها • ثم نشرها في كتابه[٣]، ومما يؤسف له انها فقدت في أثناء نقلها من العراق الى المانيا خلال الحرب العالمية الاولى **١٩١٤–١٩١٨** وضاعت الى الابد • وأهم ما كان فيها صورة الراقصتين التي ننشرها هنا (شكل ٨٠) وفيها تتجلى براعةالمصورين في العراق في القرن التاسع الميلادي وقد كانت في قاعة القبة في قسم الحريم من قصر الجوسق الخاقاني أحد القصور العظيمة في سامراء •

وتصاوير الحمام الفاطمي التي كشف عنها متحف الفن الاسلامي بالقاهرة سنة **١٩٣٢** هي كذلك مرسومة بطريقة الفرسكو ، ومن أهم صورها شخص جالس وحول رأسه هالة ، وفي يده اليمنى كأس ، وعلى رأسه عمامة يبدو من جانبها خصلتان من شعره [٤] •

---

(١) Ettinghausen, Arab Painting.
وفي هذا الكتاب نجد صورا ملونة من قصير عمرة ومن قصر الحير العربي •

(٢) Dimand, A Handbook of Muhammeden art, p. 21-23.

(٣) Herzfeld, Die Malereien von Samarra, Berlin, 1927.

(٤) أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ـ نشر وتعليق المرحوم الاستاذ الدكتور زكي محمد حسن ص ١٥٢ ـ ١٥٤ •



شكل (٨٠)

وتصاوير قصر الحمراء التي نراها في سقف قاعة العدل مرسومة ايضـــا بطريقة الفرسكو ، وتمثل لنا عشرة رجال قد جلسوا في شكل بيضاوي وعليهم ملابس ملونة وفوق رؤوسهم عمائم جميلة ، وقد اختلف علماء الآثار بصدد من رسمها ، ولكنهم اجمعوا على أنها رسمت في القصر قبل خروج المسلمين منه [١] .

وبعد فانه من الحق علينا امام هذه الامثلة المختلفة للتصوير الاسلامي التي ذكرنا جانبا منها هنا، وامام ما اشرنا اليه عند الكلام على فن الكتاب [٢] ـ ان نبرىء الدين الاسلامي من تهمة تحريم التصوير التي يلصقها به بعض المتزمتين من رجال الدين . فالامر الذي لا مجال للشك فيه ان القرآن الكريم ـ كما ذكرنا من قبل ـ لم يتعرض للتصوير بالاباحة او التحريم ، بل ترك لنا امره نسير فيه وفق سنة التطور والرقي .

---

(١) انظر الصورة ص ٨١ من كتاب المؤلف عن قصر الحمراء (المكتبة الثقافية رقم ٩١ ـ القاهرة سنة ١٩٦٣) .

(٢) انظر ص ١٦٠ و ١٦١ من هذا الكتاب .

والواقع ان هذا الدين الذي لم يتعرض لبعض المسائل الهامة التي لها في حياة المسلمين أثر خطير ، أثر اخطر بكثير من التصوير مثل مسألة الخلافة ، بل تركها للمسلمين يسيرون فيها على النهج الذي يتلاءم وظروفهم — هذا الدين اسمى من ان يحرم امرا يتصل بسمو الحياة البشرية وتطورها مثل التصوير .

بقيت نقطة أخيرة نحب أن نختم بها هذه الكلمة الموجزة في هذا الموضوع الكبير ، هي ان بعض مؤرخي الفن من الاوربيين يأخذون على التصوير الاسلامي عدم مراعاته لقواعد المنظور ، وعدم عنايته بتوزيع الظل والضوء ، وافراطه في التلوين افراطا واضحا . ومن الظلم البين ان نسمي هذه الاتجاهات مآخذ فهي في الحقيقة من خصائص التصوير الاسلامي التي اكسبته شخصية واضحة وجعلت له سحرا يخلب الالباب . ولقد تورط هؤلاء الاوربيون في هذا الحكم لانهم انما وزنوا اعمال المصور المسلم بنفس الميزان الذي يزنون به اعمال المصورين السابقين على الاسلام او مصوري عصر النهضة الاوربية وما بعدها ، عندما كان الصدق في النقل عن الطبيعة هو المثل الاعلى في التصوير ، وقد فاتهم ان للفن الاسلامي او بعبارة ادق للتصوير الاسلامي هدف يختلف عن اهداف فنون التصوير التي سبقته او عاصرته ، فهو يتجه الى التجميل فحسب ، وهذا يتحقق بالنقل عن الطبيعة نقلا صادقا ، كما يتحقق كذلك بالتصرف في رسم ما ينقل عن الطبيعة ، وفي تحويره وتهذيبه . والتصرف ، والتحوير ، والتهذيب من مظاهر العبقرية الفنية من غير شك ، لان الفنان يكون حينئذ قد تجاوز مرحلة النقل والتقليد الى مرحلة الابداع والابتكار . واذا نحن قارنا بين اتجاهات مدارس التصوير في عصر النهضة الاوربية ، واتجاهات مدارس التصوير الاوربي في عصرنا الحديث لوجدنا ان المصورين الاوربيين في العصر الحاضر قد اقتربوا من الهدف الذي آمن به المصور المسلم منذ اثني عشر قرنا ، فلم تعد صور المدارس الحديثة في التصوير أو بعبارة أخرى مدارس الفن التجريدي Abstract Painting تمثل الطبيعة او تنقل عنها ، انما هي سبحات في الخيال ، وترجمة لاحاسيس وانفعالات .

أثر الفن الإسلامي في أوربا

وبعد فان هذا الفن الذي رأينا مولده في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وتتبعنا نشأته في ايام الامويين في الشام ، وشاهدنا هلاله وهو يشرق في سامراء ايام العباسيين في العراق ، وتجلت لنا خصائصه عبر العصور المختلفة التي تلت ذلك ، ووقفنا خلال استعراضنا لتطوره هذا ، على العوامل المختلفة التي ساهمت في نضوجه ، وساعدت على تحديد سماته ، قد أخذ الان ــ بعد ان وقف على قدميه ، واستدار هلاله بدرا ــ يؤثر في غيره من الفنون ، ويرد الدين الذي استدانه من الفنين الساساني والبيزنطي اضعافا مضاعفة الى الفنون التي عاصرته او أتت بعده •

وقبل ان نتتبع الاثار التي تركها الفن الاسلامي في فنون اوربا ، نرى من الضروري ان نقف قليلا متسائلين كيف وصل هذا الفن الى اوربا واستطاع ان يؤثر في فنونها ؟ •

والجواب على هذا السؤال يأتينا من مصدرين رئيسين : المصدر الاول هو ما كان يتم من اتصال بين الشرق والغرب ايام السلم • والمصدر الثاني هو ما كان يقع بينهما ايام الحرب •

وللمصدر الاول قنوات اربعة كان يأتي عن طريقها هذا الاتصال : قناة سلكها الحجاج الاوربيون الى بيت المقدس ، وقناة سلكها التجار منهم ، وقناة جاءت عبرها هدايا الشرق الى الغرب ، وقناة كان يسير فيها الرحالة من الغربيين •

ولقد كان عدد الحجاج الاوربيين في العصور الوسطى يفوق عددهم في الوقت الحاضر بكثير لأن قوة الدين كانت أشد في النفوس في تلك العصور منها الان • ولقد كان هؤلاء الحجاج يعودون الى اوطانهم ومعهم الكثير من مصنوعات الشرق

التي كان ينظر اليها الاوربيون بعين التقدير والاعجاب ، حتى ان بعض هذه التحف الشرقية كانت تقدم للكنائس لكي تحفظ فيها اغلى واعز المخلفات الدينية المسيحية ، أو تستخدم في المراسيم الدينية • ولا يتسع المجال لكي نبين جميع هذه التحف الاسلامية التي لا تزال الى اليوم معروضة في الكنائس والمتاحف انما يكفي ان نذكر القاريء بعباءة القديسة آن[١] ومعمدانية القديس لويس[٢] •



شكل (٨١)

والتجارة من أقوى العوامل في نقل السلع من مكان الى مكان ، ولكنها لاتقف عند حد تبادل البضاعة فحسب بل يمتد اثرها الى انتقال عناصر من الحياة المادية والفنية ، وقد لعبت دورا هاما في تحضير اوربا على يد التجار المسلمين في العصور الوسطى ، فقد كان التجار الايطاليون يذهبون الى الشرق للحصول على محصولاته وبضائعه ثم يبيعونها في شتى انحاء أوربا ، وكان الطريق الرئيسي للمنتجات الاسلامية في أوربا هو الذي كان يجري من مدينة البندقية الى مدينة كولونيا عبر ممر برنر ، وفي هذا الطريق قامت المدن التجارية ، وازدهرت فيها الصناعات التي اقتفت أثر الصناعات الاسلامية وتأثرت بها •

على أن التجارة الاسلامية قد امتدت الى ما هو ابعد من ذلك بدليل العثور على كميات من العملات الاسلامية في أماكن مختلفة من شمال اوربا : في روسيا ،

---

(١) انظر ص ١٢٠–١٢١ من هذا الكتاب •

(٢) انظر ص ١٤١ من هذا الكتاب ويلاحظ انه من الخطأ الشائع نسبة هذا الاناء الى القديس لويس نفسه والاصح انه ينسب الى لويس الثالث عشر الذي عمد فيه فعلا •

وفلندة ، والسويد ، والنرويج ، وجزيرة ايسلندة ، والجزائر البريطانيــة ، وسويسرا • وترجع هذه العملة الى الفترة الواقعة بين نهاية القرن السابع وبداية القرن الحادي عشر الميلاد ، وتشير المراجع العربية الى تردد التجار العرب على جنوبي روسيا ووسط اوربا وان كانت لا تذكر شيئا عن وصولهم الى الجهات الاخرى •

ولعل من ابلغ الادلة على أثر التجارة الاسلامية في حضارة اوربا هو ما نراه حتى اليوم في اللغات الاوربية من الفاظ عربية ذات صلة بالتجارة مثل كلمـة « شيك » Cheque فهي مأخوذة من الكلمة العربية « صك » ، وكلمة مخازن Magazine التي لاتزال تستعمل حتى اليوم للدلالة على المحال التجارية مأخوذة من الكلمة العربية « مخازن » • وكلمة Tariff مأخوذة من الكلمة العربية « تعريف » • وكلمة Traffic مأخوذة من الكلمة العربية « تفريق » •

والقناة الثالثة التي جاءت عن طريقها الهدايا الى اوربا من الشرق لا تسمو في أهميتها الى القناتين السابقتين ولكنه لايمكن اغفالها او المرور عليها في صمت ، فالهدايا العظيمة التي كان يبعث بها الحكام من المسلمين الى الحكام الاوربيين في المناسبات المختلفة كان لها من غير شك أثر في أزدياد الاوربيين معرفة بالفـن والصناعات الاسلامية ، ويكفي ان نذكر على سبيل المثال هدية الخليفة هرون الرشيد الى شارلمان ملك الفرنجة التي كانت تتضمن المنسوجات ، والعطور ، وشمعدان ، وساعة مائية اثارت الدهشة والاعجاب بين الاوربيين •

والقليلون من الرحالة الغربيين الذين توغلوا في الشرق في العصور الوسطى من أمثال « ماركو بولو » الذي قام برحلته الى الشرق الاقصى في القرن الثالـث عشر الميلاد، ومر في طريقه الى بلاد الصين ـ حيث اقام نحوا من سبعة عشر عاما ـ على كثير من البلاد الاسلامية ، وشاهد فيها اثار الحضارة والتقدم ، ثم عاد الى وطنه، ووصف رحلته وما شاهده فيها من عجائب وغرائب ، وبيّن ما وصل اليه المسلمون في الشرق من حضارة ورقي ، ولا شك انه اغرى بوصفه هذا الكثير من ابنـاء وطنه على السفر الى تلك البلاد النائية •

من هذه القنوات المختلفة عرف الاوربيون الكثير عن حضارة المسلمـين وفنونهم ، ولكنهم قد أزدادوا علما بتلك الحضارة وهذه الفنون اولا عندما غزا

العرب بعض البلاد الاوربية ، وثانيا عندما غزا الاوربيون بعض اجزاء الشرق الاسلامي واقاموا لانفسهم فيه ممالك مسيحية • ولعل تأثرهم بهذه الحضارة والفنون قد تضاعف عندما استردوا بلادهم التي استولى عليها المسلمون •

فقد فتح المسلمون الاندلس ووصلوا حتى جبال البرانس في الشمال ، وفتحوا جنوب فرنسا ، وجزيرة صقلية ، وجنوب ايطاليا ، واغاروا على اقليم بروفانس وسويسرا ، وغزوا بولندة ، واليونان ، وقبرص ، وكريت ، ووصلوا الى ابواب ڤيينا في قلب اوربا • وعاشوا في تلك البلاد ردحا من الزمن اختلفت مدته باختلاف الظروف التي احاطت بهم ، وشيدوا لانفسهم في بعض تلك البلاد العمائر المختلفة من مساجد ، وقلاع ، وقصور ، كما انشأوا بعض الصناعات • وقد ضاع الكثير من معالم حضارتهم ولم يبق منها الا القليل • وقد تأثرت الفنون المحلية في تلك البلاد بالفن الاسلامي ، ومنذ بدأت العناية بدراسة هذا الفن أتجه فريق من العلماء الى دراسة تلك العناصر التي تسربت منه الى فنون اوربا وجلتوها على الناس في صورة واضحة [١] •

وقد غزت جيوش اوربا بلاد الشرق ايام الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي ، ونجحت في الاستيلاء على بعض اجزاء من بلاد الشام ، واسسوا لانفسهم فيها ممالك عاشت مدة تقل عن قرنين • ونحب ان نتساءل هنا هل

---

(١) من أحسن المراجع في هذا الموضوع واوفاها ما كتبه برتو في سنة ١٨٩٥ عن الفن الاسلامي في ايطاليا :

Bertaux, Les Arts de L'Orient Musulman dans L'Italie Meridionale.

وما كتبه الدكتور احمد فكري في سنة ١٩٣٤ بالفرنسية عن التأثير الاسلامي في الفن الروماني في جنوب فرنسا :

Fikry, L'Art Roman de Puy et des Influences Islamiques.

وما كتبه مانكوفسكي بالانجليزية عن أثر الفن الاسلامى في بولندة •

Mankowsky, Influences of Islamic Art in Poland, ARS Islamica, Vol. II p. 93-117.

وما كتبه كريستي عن أثر الفنون الزخرفية في فنون اوربا •

Christie, Islamic Minor Arts and their influences upon European Work, Legacy of Islam.

كان تأثر الاوربيين بالفن الاسلامي اشد في الغرب منه في الشرق أم العكس ؟

الواقع ان المسلمين عاشوا في اسبانيا نحوا من ثمانية قرون ، وفي صقلية نحوا من قرنين بينما لم يمكث الاوربيون في الشرق أكثر من قرنين كانت كلها تقريبا فترة حروب واضطراب ولم تكن تسمح بان يتعلم الاوربيون من الفنانين المسلمين شيئا كثيرا ، فتأثر الحضارة الاوربية بالمسلمين في الغرب كان اعمق واقوى سواء خلال وجودهم بالبلاد الاوربية او بعد خروجهم منها ، ذلك انه في الحالة الاولى كان يهاجر بعض الاوربيين من البلاد التي أحتلها العرب (١) ، حاملين معهم في هجرتهم بذور الحضارة الاسلامية واسرار الفن الاسلامي ، وقد زرعوا هذه البذور ، ونشروا تلك الاسرار في البلاد الاوربية التي استقروا فيها .

واما في الحالة الثانية اي بعد خروج المسلمين من الاندلس وعودة زمام الامور فيها الى يد الاوربيين من جديد ، فنلاحظ ان بعض المسلمين آثروا البقاء في البلاد بعد خروج العرب منها ، واستمروا يزاولون صناعاتهم وفنونهم ، واستفاد الاوربيون فائدة كبيرة من هؤلاء المدجنين (٢) ـ كما كانوا يسمون عادة في المراجع التاريخية ـ ، وليس من المبالغة في شيء اذا قلنا ان المدجنين هم الذين انشأوا الطراز الوطني الاسباني الذي منه استمدت الفنون الاوربية الشيء الكثير ، فقد كانوا ، على سبيل المثال ، يستدعون الى كل ارجاء اسبانيا للقيام بزخرفة المباني ، ولا تزال بعض اعمالهم قائمة حتى اليوم ممثلة في « القصر » Alcazar باشبيلية ، الذي بناه هؤلاء المدجنون للملك « بدرو القاسي » Pedro The Cruel على الطراز الاسلامي .

وعلى الرغم من ان مدة بقاء المسلمين في صقلية لم تتجاوز ربع المدة التي قضوها في اسبانيا الا ان اثرهم في فن صقلية كان واضحا ، وقد عرفنا من قبل انه رغم خروج العرب من تلك الجزيرة فقد استمرت حضارتهم مزدهرة ، واستمر الفن الاسلامي هو الفن المحبب الى النفوس ، ولعله من المفيد ان نشير هنا الى

---

(١) يطلق المؤرخون على هؤلاء الاوربيين اسم المستعربين Mozarabes

(٢) هذه الكلمة Mudejars اطلقت عليهم لانهم آثروا البقاء تحت حكم الاوربيين ، واصبحوا اشبه ما يكونون بالدواجن .

عباءة التتويج التي نسجت للملك « روجر الثاني » في صقلية والتي لاتزال معروضة الى اليوم في متحف القصر في مدينة ڤينا ، وهي من قماش ارجواني اللون وبها فصوص من اللؤلؤ ، وتزدان برسم نخلة على جانبيها صورة تمثل اسدا يفترس جملا [١] ، ويجري على حافة هذه العباءة نص كوفي يتناسب في اسلوبه الجميل مع روعة التحفة التي يزينها ، وينتهي هذا النص بعبارة « عملت بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة» [٢] (شكل ٨١) • وهكذا نرى نصا عربيا، وتاريخا هجريا على تحفة ملكية عملت لكي يلبسها ملك مسيحي عند تتويجه ، بعد خروج العرب من صقلية بنحو خمسة وسبعين عاما •

ولكن لاجدال في ان الاوربيين قد تعلموا بعض الشيء من المسلمين في الشرق، والحروب مهما كان لها من مساوىء فلا يمكن ان ننكر أثرها في النواحي الاقتصادية ، وبالتالي في الصناعة والفن • ويكفي ان نشير الى ما قاله ابن جبير في رحلته من ان القوافل من مصر الى دمشق الى بلاد الافرنج كانت غير منقطعة (خلال الحروب الصليبية) ، وان تجار النصارى كان لايمنع احد منهم ، ولا يعترض عليه ، وكانوا يدفعون ضريبة نظير اتجارهم ، وكذلك كان يفعل تجار المسلمين ، وان أهل الحرب كانوا مشتغلين بحربهم •

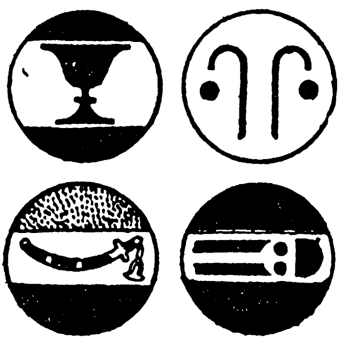
ولعل من ابرز آثار مسلمي المشرق في الفنون الاوربية هي « الرنوك » ، ولا يستغنى دارس الفن الاسلامي عن معرفة شيء عنها ومن هنا وجب ان نقف عندها قليلا •

---

(١) يرمز هذا الرسم في الغالب الى انتصار النورمانديين الذين يمثلهم الاسد ، على العرب الذين يمثلهم الجمل •

(٢) لعله من المفيد لمن يعنون بالادب العربي في صقلية ان نثبت هنا هذا النص كما قرأناه وطابقناه على ما جاء في سجل الكتابات العربية :
Wiet et Autres, Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabes, Tome VIII.
وهو : « مما عمل بالخزانة الملكية المعمورة بالسعد والاجلال والكمال ، والطول والافضال ، والقبول والاقبال ، والسماحة والجلال ، والفخر والجمال ، وبلوغ الاماني والامال ، وطيب الايام والليالي بلا زوال ولا انتقال ، بالعز والدعاية ، والحفظ والحماية ، والسعد والسلامة ، والنصر والكفاية ، بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة » •

والرنوك مفردها « رنك » Coat of Arm وهي كلمة فارسية الأصل معناها اللون ، ولكنها اصبحت تطلق في الفن الاسلامي على تلك المناطق الدائرية الشكل ، او البيضاوية او المفصصة التي نراها على العمائر وعلى التحف المنقولة التي ترجع الى عصر الايوبيين وعصر المماليك في مصر والشام ، وتتضمن هذه المناطق عادة علامة من العلامات ، مثل صورة الكأس ، او عصوا البولو ، او السيف ، او الدواة (شكل **٨٢**) • واستعمال هذه العلامات كان يدل على أن صاحبها كان يشغل في بلاط السلطان وظيفة تنم عنها هذه العلامة : فالسيف مثلا هو علامة الموظف الكبير المكلف بشئون الاسلحة ، والكأس هو علامة الموظف المختص بامور الشراب وهكذا • وهناك رنوك أخرى لاتتصل بالوظائف ولكن الامراء اختاروها لانفسهم مثل زهرة اللوتس، والوردة، والسبع الذي كان شعار السلطان الظاهر بيبرس – أحد سلاطين المماليك – والنسر الذي كان رنك صلاح الدين الايوبي ، واصبح في العصر الحالي رنكا للجمهورية العربية المتحدة • وهناك رنوك كتابية تتضمن عادة عبارة يختارها السلطان لنفسه وتكتب بطريقة خاصة داخل منطقة من المناطق التي اشرنا اليها •



شكل (٨٢)

ولم يبتدع المسلمون الرنوك ولكنهم ورثوها عن القدماء • ولم يعن بها مؤرخونا في العصور الوسطى ، ولعل ذلك يرجع الى انها كانت امرا مألوفا في عصرهم فلم تستلفت نظرهم ، ولم تستحق منهم الاشارة اليه ، او لعلهم درسوها في مراجع ضاعت ، او لا تزال مدفونة بين الاف المخطوطات التي لم تر النور بعد •

اما الاوربيون فاغلب الظن انهم ورثوا الرنوك عن المسلمين عندما اختلطوا بهم ، وعاشوا بينهم في الشرق في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد • ولعل من ابرز الامثلة التي تتجلى فيها الصلة بين رنوك المسلمين ورنوك الاوربيين ، رنك النسر ذو الرأسين ، فقد عرفه الحيثيون واتخذوه شعارا لهم ، ثم ورثه العرب واستعملوه رنكا لهم في العصر السلجوقي ، ثم انتقل في القرن الرابع

عشر الى اوربا حيث اصبح رنكا للامبراطورية الرومانية المقدسة [١] • والواقع ان الاوربيين قد عنوا بالرنوك عناية كبيرة منذ عرفوها ، واتخذوا لها سجلات خاصة اثبتوا فيها شكل الرنك ، واسم الاسرة التي اختارته لنفسها ، وتاريخ هذه الاسرة ، ووضعوا لها القواعد والتقاليد التي من أهمها انه لا يحق لاية اسرة ان تتخذ رنكا سبقتها اليه اسرة اخرى • واصبحت « الرنوك » يتوارثها الخلف عن السلف ، ومن هنا يستطيع الانسان ان يتتبع في هذه السجلات رنك كل اسرة ويعرف تاريخه بالضبط ، الامر الذي عاون على تحديد تاريخ التحف التي تظهر عليها • وليس الحال كذلك في الرنوك التي استعملها المسلمون ، فهي في معظم الاحيان رمز للوظيفة التي يشغلها الامير ، وفي بعض الاحيان يتقلب الامير في عدة وظائف ، فيتخذ لنفسه عدة اشعرة يجمعها في رنك واحد ، او قد يشغل الوظيفة عدة امراء فتكون رنوكهم متشابهة ، وقد يرث الابن اباه في نفس الوظيفة فنرى علامتين متشابهتين في رنك واحد •

والآن بعد ان وضحت لنا معالم الطرق التي عرف بها الاوربيـــون الفن الاسلامي ، نحب ان نتتبع في ايجاز بعض ما تركه الفن الاسلامي في الفنون الاوربية من آثـــار •

والكتاب هو أكثر الاشياء انتشارا في عصرنا الحاضر سواء في أوربا او في غيرها من الامم الراقية ، وقد يظن الاوربيون ان العرب لاشأن لهم بتطور الكتاب الاوربي ، ولكن الواقع ان هذا الكتاب انما يدين بالشيء الكثير الى المسلمين ، فالكتاب - أي كتاب - يقوم على أمرين رئيسين لاثالث لهما هما الورق والطباعة ، واوربا لم تعرف الورق الا على يد العرب الذين ادخلوه اليها [٢] ، واقاموا صناعته

(١) كتب بعض المستشرقين في موضوع الرنوك الاسلامية مثل روجر Roger وكارابتشك Karabacek وفان برشم Van Berchem وارتين باشا Artin ولكن اوفى ما كتب في هذا الموضوع هو بحث الدكتور ماير :
Mayer, Saracenic Heraldery, Oxford, 1933.

(٢) لم يخترع العرب الورق ولكنهم تعلموا صناعته من الصينيين الذين كان لهم فضل هذا الاختراع ، وفي سنة ٧٥١م نقل العرب جماعة من اسرى الحرب الصينيين الى مدينة سمرقند ، وقد تبين لهم ان فريقا من هؤلاء الاسرى هم في حقيقتهم صناع ماهرون في عمل الورق فاستفادوا بهم ، وقامت هذه الصناعة في مدينة سمرقند اولا ثم خرجت منها الى باقى عواصم العالم الاسلامي ثم وصلت الى الاندلس وصقلية ومنها عرفتها اوربا •

في الاندلس وفي صقلية ، وتعلمها الاوربيون ، وبدأت صناعته في ايطاليا في القرن الثالث عشر ، ثم عرفتها فرنسا والمانيا بعد ذلك وتعلمها الانجليز في القرن السادس عشر ، وقد بدأت في تاريخ اوربا صفحات مشرقة بعد ان دخلت صناعته بلادهم • ولقد كان للاوربيين فضل كبير في تطور الطباعة[١] على يد جوتنبرج في القرن الخامس عشر ، وقد سبقوا الشرق في هذا الميدان ، ولكن لا ينبغي ان ننسى انه لولا الورق ماتقدمت الطباعة الى تلك الدرجة التي وصلت اليها •

وفن تجليد الكتب من الفنون التي سار فيها الاوربيون على نهج المسلمين ، وقد وصلت الينا الكثير من جلود الكتب الاوربية التي تنطق بهذا التأثر ، ويكفي ان نشير الى ظاهرة لم تكن مألوفة في جلود الكتب الاوربية قبل القرن الخامس عشر هي « اللسان » التي نقلها المجلدون الاوربيين عن الشرقيين[٢] •

وكما كان للمسلمين فضل عظيم على فن الكتاب الاوربي كذلك كان لهم أثر واضح في فن المنسوجات ، فلقد كانت للمنسوجات الاسلامية مكانة كبيرة لدى الاوربيين في العصور الوسطى ، اذ أثارت في نفوسهم دهشة عظيمة عندما تأملوها ، وقارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه مناسجهم ، وخرجوا من هذه المقارنة يتساءلون عن موضع السحر في هذه الاقمشة أهو جمال الزخرفة ، أم هو التنسيق بين الالوان ، أم هو في دقة النسيج ام هو في هذه جميعا • واقبلوا عليها أقبالا شديدا ، وسموها في لغاتهم باسمائها العربية سواء كانت هذه الاسماء مستمدة من طبيعتها مثل القماش الشفاف الذي اطلقوا عليه اسم «شيفون» Chiffon وكلمة «ركامو» المشتقة من الكلمة العربية رقم ، او مستمدة من البلاد التي اشتهرت بها مثل الموسلين الذي كانت تنتجه الموصل Musil والجراندين الذي كانت

---

(١) الذي نقصده هنا هو الطباعة الحديثة التي تكون بالحروف ، فتنظم الحروف في كلمات ، والكلمات في سطور ، والسطور في صفحات • اما الطباعة القديمة فكانت تقوم على أخذ لوح من الخشب او من الحجر او من المعدن بحجم صفحة الكتاب ، تحفر عليها الكلمات والارقام والصور حفرا بارزا ، ثم تدهن بالحبر ، وتطبع بعد ذلك على الورق • فطبع أي كتاب معناه عمل لوحات بعدد صفحاته ، وفي هذا من المشقة والجهد والنفقة اضعاف اضعاف ما في الطباعة الحديثة •

(٢) راجع ما ذكرناه عن التجليد من قبل في ص١٦١و١٦٢ وانظر الشكل رقم ٦٨ في ص١٦٢ من هذا الكتاب حيث تشاهد جلدة كتاب اسلامي واضح بها اللسان •

تنتجه غرناطة Granada ، و «الدامسك» الذي كانت تنتجه دمشق Damascus والبلداكو الذي كانت تنتجه بغـــداد Baldacco (كما كان ينطقها الايطاليون) والتابس Tabis وهو نوع من الحرير عرف بهذا الاسم اخذا من «العتابية» احد محلات بغداد القديمة التي اندثرت (١) •

وكان تفضيل الناس لهذه المنسوجات الاسلامية عظيما ، الامر الذي حمل صناع النسيج من الاوربيين على تقليدها في مصانعهم وتسميتها باسمائها الاصلية • ولقد كان للايطاليين فضل السبق في هذا التقليد لاسيما في صقلية ، ولوكا ، وفلورنسة ، والبندقية • وفي متحف فيكتوريا والبرت بلندن امثلة من هذه الاقمشة الايطالية المقلدة •

وادرك الاوربيون ما في الطنافس الاسلامية من جمال وفن ، وقدروا هذا الجمال الفني حق قدره ، فأقبل الاغنياء منهم على أقتنائها ليزينوا بها قصورهـــم وكنائسهم ، وقد انعكس هذا التقدير باجلى صورة في لوحات فنانيهم فاذا هؤلاء الفنانون يرسمونها في صورهم ، فبدت الطنافس الاسلامية مصورة فوق العروش ، او مفروشة على الارض ، او منشورة من النوافذ والشرفات او مبسوطة فـــوق الموائد كما ذكرنا من قبل (٢) •

وتعلم الايطاليون من المسلمين صناعة الزجاج المزخرف بالمينا بعد أن رأوا تلك التحف الزجاجية الرائعة التي وصلت اليهم من الشرق • واشتهرت البندقية بانتاج هذا الزجاج الشرقي ، ونافست الشرق فيه حتى ان مصر عندما اضمحلت فيها هذه الصناعة ، في أواخر العصر المملوكي ، استوردت من البندقية ـ في الغالب ـ مشكاة من هذا النوع من الزجاج نراها معروضة في متحف الفن الاسلامـي بالقاهرة •

والخزف الذي كان فضل المسلمين في صناعته عظيما فابتكروا نوعا جديدا لم يكن معروفا من قبل هو الخزف ذو البريق المعدني الذي تعلمه الايطاليون من

(١) يلاحظ ان ايطاليا كانت اسبق الدول الاوربية في استيراد ، وتقليد المنسوجات الاسلامية ، ومن هنا عرف القماش الموصلي باسم : mussolina والبغدادي باسم Baldacchino ، وقد حرفت هذه الاسماء وغيرها مما له صلة بالمنسوجات الاسلامية ، في اللغات الاوربية بحسب طبيعة نطق كل لغة •

(٢) انظر ص ١٥١ـ١٥٦ من هذا الكتاب •

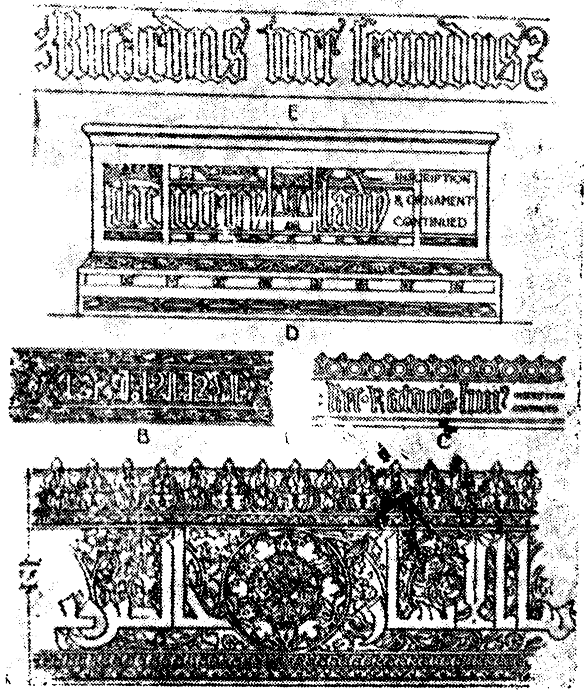
الاندلسيين الذين تعلمـــوه بدورهم من المغـــرب ومن بغـــداد • ومـن ايطاليـا ذاعت صناعة هـــذا النوع من الخـــزف في كل انحاء اوربا • ومن الكلمات التي انتشرت في أوربا ولها صلة بهذا الخزف الاسلامي الاصل كلمة Albarello المأخوذة من الكلمة العربية « البرنية » التي كانت تطلق عـلى القدور الصغيرة المصنوعة من الخزف ذي البريق المعدني التي كانت تصدر الى اوربا حاملة في جوفها النباتات الطبية •

والتحف المعدنية الاسلامية المكفتة بالذهب او بالفضة او بهما معا التي وجدت طريقها الى أوربا مع التجار او مع حجاج بيت المقدس ، أقبل الصناع والفنانون في أوربا على تقليدها لما رأوه من اقبال الاغنياء على شرائها ، وقد نجحت ايطاليا في استقدام عددمن صناع هذه التحف الى البندقية حيث اقاموا لانفسهم المصانع التي علموا فيها الايطاليين اسرار هذه الصناعة • وقد وصلت الينا بالفعل تحف معدنية مكفتة من صناعة ايطاليا ، نذكر منها على سبيل المثال غطاء وعاء من النحاس من صناعة القرن السادس عشر الميلادي معروض في المتحف البريطاني ، ويزدان بزخارف اسلامية رائعة ، وفي متحف فيكتوريا والبرت صينية من النحاس من صناعة القرن الثامن عشر مكفت بالارابسك الجميلة ، ويتوسطها رنك احد امراء البندقية •

و «المشربيات » الخشبية التي حذق صنعها النجارون المسلمون في شـــرق العالم الاسلامي وغربه ، واستعملوها في قصر الحمراء في غرناطة ، كانت في اغلب الظن ، مبعث الوحي لصناع المعادن من الاوربيين عندما كانوا يصنعون شبابيكهم الحديدية ذات المصبعات او بعبارة اخرى ذات « الحديد المشـــغول » Grills

ولقد حاول بعض الفنانين الاوربيين ان يكتب الحروف اللاتينية بصورة تقرب في شكلها العام من صورة الخط الكوفي ، ونجحت هذه المحاولة ، وتجلت اروع ما تجلت في الكتابة القوطية ، ونظرة الى الصورة المنشورة (شكل ٨٣) التي تجمع بين نصوص بالخط الكوفي ونصوص بالخط القوطي تكفي لاثبات ذلك •

على ان نظرة الفنانين الاوربيين الى الخط الكوفي كانت نظـرة الى عنصر زخرفي ، فلم يحاولوا ان يدركوا ما تحمله الكلمات العربية وراءها من المعاني ، ولقد اشار كريستي في مقاله عن الفنون الاسلامية وتأثيرها في الفنون الغربية المنشور



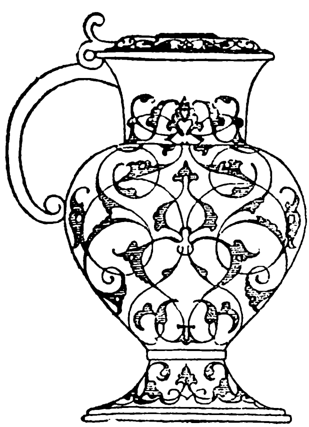
شكل (٨٣)

في كتاب تراث الاسلام [١] الى مثال طريف في هذا الصدد هو دينار ذهبي موجود في المتحف البريطاني بلندن يحمل على أحد وجهيه كتابة كوفية نصها « لا الـه الا الله وحده لاشريك له » ويحمـل على الوجه الآخر كتـابة لاتينية نصـها Offa Rex [٢] • وتجري على حافة هذا الوجه من الدينار كتابة كوفية نقرأ فيها « محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلـه ولو كره المشركون » • واغلب الظن ان الصانع الاوربي الذي ضرب هذا الدينار والملك الذي أمر بضربه ، يجهلان مدلول هذه الكتابة الكوفية ، ولو عرفا ذلك ، ما نقش على الدينار هذا النص الذي يتنافر مع عقيدتهما الدينية •

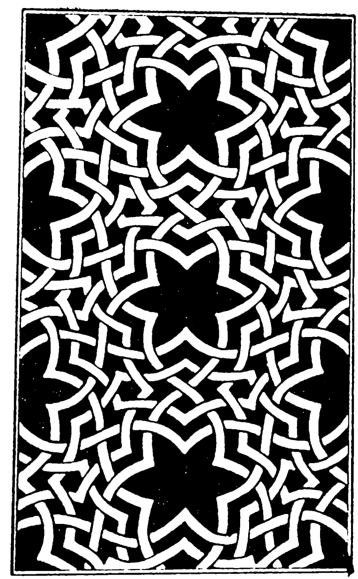
(١) انظر تراث الاسلام ، الترجمة العربية للمرحوم الدكتور زكي محمدحسن جـ٢ ص ٣ـ٩٩ • القاهرة سنة ١٩٣٦ •

(٢) كان الملك « اوفا » يحكم مملكة مرسية Mercie احد الممالك الصغيرة التي كانت تنقسم اليها الجزائر البريطانية في العصر الانجلو سكسوني وذلـك بين سنتي ٧٥٧و٧٩٦ م •

وكما قلد فنانو اوربا الخط الكوفي كذلك قلدوا « الارابسك » ، وقد سبق هذا التقليد دراسة لها ، اذ وصلت الينا كراسات لفنانين اوربيين بها نماذج من الزخرفة الاسلامية كانوا يستعينون بها في رسم « الارابسك » على التحف والمصنوعات المختلفة التي كانت تخرجها ايديهم ، ومن هذه الكراسات واحدة للمصور الايطالي المشهور ليونارد دافنشي Leonardo De Vinci بها تخطيط لزخرفة اسلامية من رسمه (شكل ٨٤) • ووصلت الينا آنية من الخزف مزخرفة برسم «ارابسك» من عمل المصور الالماني هولبين الصغير Holbein The Younger نرى صورتها مع هذا الكلام (شكل ٨٥) •



شكل (٨٥)



شكل (٨٤)

ولم يقتصر تأثير الفن الاسلامي على تلك الفنون الزخرفية الاوربية ولكنه أثر كذلك في العمارة الاوربية او بعبارة ادق في العمارة القوطية والرومانسكية : فالعقود المدببة ، والعقود المفصصة ، والعقودالتي يحف بها من اعلى ومن الجانبين خطوط مستقيمة ، والشرفات ، والاعمدة المندمجة ، ومآذن المساجد ، والواجهات ذات الاشرطة المتوازية ـ تلك العناصر المعمارية والزخرفية التي رآها الفنانون

الاوربيون في العمائر الاسلامية المختلفة في أوربا وفي الشرق قد تركت طابعها في مبانيهم ، ولعل خير مثال يجتمع فيه الكثير من هذه العناصر هو ما نراه في كنيسة القديس ميخائيل في مدينة «لابوي» في جنوب فرنسا وما نشاهده في بعض عمائر مدينة بيزا في جنوب ايطاليا (١) .

وبعد فاننا لانستطيع ان ننكر فضل المستشرقين من الجيل السابق الذين ساهموا باوفر نصيب في الكشف عن عظمة الفن الاسلامي اذ كانوا اول من نقب عن مراكز الحضارة الاسلامية القديمة ، نذكر منهم على سبيل المثال : بلانشيه Blanchet الذي قام في سنة ١٨٩٨ وتبعه الجنرال De Beylie في سنة ١٩٠٨ بالكشف عن عاصمة بني حماد في الجزائر ، وفي سنة ١٩١٠ بدأ فيلاسكويز بوسكو Velasquez Bosco بالتنقيب عن مدينة الزهراء في الاندلس . وفيما بين سنة ١٩١١ و ١٩١٣ اشرف زاره وهرتسفلد Sarre and Herzfeld على أعمال الحفر في سامراء في العراق . وفي سنة ١٩١٢ قام علي بهجت بالكشف عن مدينة الفسطاط .

وليس هناك من شك في انهم قد أدركوا ان المسلمين في العصور الوسطى كانوا من العوامل الهامة في تثقيف اوربا ، وفي تصفية اذواق الاوربيين ، وترقية فنونهم . ومن الخطأ ان ينسى الجيل الحاضر من أهل اوربا وامريكا هذه الحقيقة او يتناساها ، فان بقاءها ماثلة في الذهن من شأنه ان يجعل العلاقة بين الشرق والغرب علاقة مودة وصفاء ، فكلانا قد ساهم في سبيل رقي الانسانية : نحن في الماضي ، وهم في الحاضر ، وسوف نلحق بهم لنقف واياهم على قدم المساواة ان لم نكن قد وقفنا بالفعل في بعض النواحي .

الخاتمة

وبعد فأحب ان اعترف الان بين يدي القراء بانني ادين بالشيء الكثير مما كتبته لكل من علموني هذا الفن ، وكتبوا قبلي فيه من غربيين وشرقيين ، كما ادين كذلك لجهدي الشخصي المتواضع في دراسة الآثار الاسلامية في مواطنها (ما عدا ايران والهند والصين) ، وفي تدريس هذه الآثار والفنون الزخرفية الاسلامية في جامعات الاسكندرية والقاهرة وفيينا وبغداد لمدة تزيد على ربع قرن •

ولست اريد ان اثقل على القاريء بثبت طويل من المراجع اعيد فيه ذكر الاسماء التي ذكرتها في سياق البحث ، واضيف الى هذه الاسماء اسماء اخرى مما لم تدع الحاجة ، او ترد المناسبة لذكرها في صفحات الكتاب •

ولكنني أخشى ان يكون من بين القراء من استهوته هذه الدراسة ، فأحب ان يستزيد منها ، ويتعمق في الاطلاع على تفاصيلها ، وقد يرى فيما ذكرته في هذه الصفحات ما لا يطفيء ظمأه الى المعرفة ، وقد يضيق وقته عن البحث عن كل ما كتب في هذا الموضوع ، او يملكه الحياء عن سؤال المختصين فيه ــ فمن حق مثل هذا القاريء عليَّ ، وقد ايقظت فيه هذه الرغبة ، ان ارشده الى مرجع واحد فقط يحقق له كل ما يصبو اليه ، هو كتاب ظهر منذ ثلاث سنوات للاستاذ كرزول طبعته الجامعة الاميركية بالقاهرة في سنة ١٩٦١ وهو :

Creswell, A Bibliography of the Architecture, Arts and Crafts of Islam to the Ist Jan. 1960.

فهذا الكتاب يذكر ما كتب ونشر في كل فرع من فروع الفن الاسلامي ، سواء كان في كتاب مستقل ، او مقال ، في مجلة او جريدة او نشرة ، منذ اتجهت العناية الى هذا الفن حتى أول يناير سنة ١٩٦٠ • وهو يعطي القاريء فكرة عما

تضمنه البحث او الكتاب بغاية الايجاز ، وعن عدد الصفحات ، وعدد الصور ان كان به صور •

وقبل ان اضع القلم ارى لزاما عليّ ان اسجل هنا شكري لكل من كان لهم فضل في خروج هذا الكتاب الى حيز الوجود ، واخص بالذكر منهم الزميل الكريم الاستاذ الدكتور صالح أحمد العلي عميد معهد الدراسات العليا الاسلامية بجامعة بغداد ، والاستاذ خالد العسلي المدرس بكلية الاداب بالجامعة المذكورة ، والآنسة ابتسام مرهون امينة مكتبة معهد الدراسات سالف الذكر •

محمد عبدالعزيز مرزوق

كشــاف

ابحاث المؤلف في الآثـار الاسلامية

١٩٣٧

١ ـ المنسوجات الاثرية في مصر الاسلامية ـ ترجمة بحث بالفرنسية للاستاذ جاستون ڤييت المدير السابق لمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة ـ مجلة المقتطف ـ عدد يونيو

١٩٣٨

٢ ـ القيمة الفنية للكتابة العربية ـ ترجمة بحث بالفرنسية للاستاذ ڤييت ـ مجلة المقتطف عدد فبراير ٠

٣ ـ ايوان كسرى ـ مجلة الموظف ـ عدد نوڤمبر ٠

٤ ـ الكتابة على المنسوجات الاثرية الاسلامية ـ مجلة الموظف ـ عدد ديسمبر ٠

١٩٣٩

٥ ـ دراسة بعض المنسوجات الاسلامية في متحف بوسطن بامريكا ـ مجلة المقتطف عدد مارس ٠

١٩٤١

٦ ـ حذاونا في العصر الاسلامي ـ عدد المصور الخاص بمشروع الحفاء ـ شهر ابريل ٠

٧ ـ اثر الاسلام في تقدم الفنون الجميلة ـ مجلة الهلال التي تصدر بالقاهرة ـ عدد ابريل ٠

٨ ـ قصر الاخيضر (من منشآت عصر هرون الرشيد) مجلة الهلال ـ عدد يونيو ٠

٩ ـ الانجليز والامريكيون الذين خدموا الاثار العربية مجلة الهلال ـ عدد ديسمبر ٠

١٩٤٢

١٠ـ طنافس القوقاز ـ مجلة الهلال ـ عدد فبراير ٠

١١ـ مشهد الجيوشي ـ مجلة الازهر التي تصدر عن الجامعة الازهرية ـ صفر سنة ١٣٦١ (فبراير) ٠

١٢ـ الزخرفة المنسوجة في الاقمشة الفاطمية ـ من مطبوعات المتحف الاسلامي بالقاهرة ٠

١٩٤٣

١٣ـ الاثار الاسلامية في مدى خمسين عاما ـ الكتاب الذهبي لمجلة الهلال ـ يناير ٠

١٤ـ طنافس القاهرة في العصور الوسطى ـ مجلة الهلال ـ عدد فراير ٠

١٥ـ دليل مجموعة شريف صبري من الصور الصغيرة ٠ ـ مترجم عن الفرنسية (Wiet) من مطبوعات جمعية محبي الفنون الجميلة بالقاهرة ـ مارس ٠

١٦ـ دليل معرض الابسطة والاقمشة الايرانية ـ مترجم عن الانجليزية (Wace) من مطبوعات جمعية محبي الفنون الجميلة بالقاهرة ـ مارس ٠

١٧ـ مجموعة شريف صبري من الصور الاسلامية ـ مجلة الهلال ـ ابريل ٠

١٨ـ الفن الاسلامي في تونس ـ مجلة الهلال ـ عدد اكتوبر ٠

١٩ـ طنافس تركيا ـ مجلة الهلال ـ عدد ديسمبر ٠

٢٠ـ Evolution of Inscription on Fatimid Textiles, ARS Islamica. Vol. X.

١٩٤٤

٢١ـ مدرسة السلطان حسن ـ مجلة الهلال ـ عدد ابريل ٠
٢٢ـ قبة السلطان قلاوون ـ مجلة الهلال ـ عدد اغسطس ٠
٢٣ـ طنافس الهند ـ مجلة الهلال ـ عدد اكتوبر ٠
٢٤ـ متاحفنا الاثرية ورسالتها ـ مجلة وزارة الشئون الاجتماعية بالقاهرة ـ عدد نوفمبر ٠
٢٥ـ الاسلام والفنون الجميلة ـ بحث بالعربية وبالانجليزية ، من مطبوعات مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٠

١٩٤٥

٢٦ـ دليل معرض الاثار القبطية ـ مترجم عن الفرنسية (Drioton) والانجليزية (Wace) من مطبوعات جمعية الاثار القبطية بالقاهرة ٠
٢٧ـ المنسوجات الاثرية المصرية ـ مجلة الهلال ـ عدد فبراير ٠
٢٨ـ خانقاه بيبرس الثاني ـ مجلة الهلال ـ عدد يوليو ٠
٢٩ـ خسرو وشيرين ـ مجلة الهلال ـ عدد نوفمبر ٠

١٩٤٦

٣٠ـ مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ـ الطبعة الثانية ـ من مطبوعات دار الانجلو بالقاهرة (الطبعة الاولى صدرت سنة ١٩٤٢) ٠

١٩٤٧

٣١ـ طراز الاسكندرية ـ بحث القي في مؤتمر الاثار للدول العربية الذي عقد في مدينة دمشق ونشر في كتاب المؤتمر ٠

١٩٥٠

٣٢ـ جامع الظاهر بيبرس البندقداري ـ مجلة الجمعية التاريخية بالقاهرة ـ جزء ٣ ٠

٣٣ـ Alexandria as a Textile Centre. Bul. de La Soc. d'Archeology Copte, Tome XIII.

١٩٥٢

٣٤ـ Alexandria as a Textile Centre, Being a Summary of the above mentioned resarch (Item 33), Egyption Cotton Gazette.

٣٥ـ بين الاثار الاسلامية ـ مطبوعات دار المعارف بالاسكندرية ٠

١٩٥٣

٣٦ـ تاريخ صناعة المنسوجات في الاسكندرية (عصر البطالسة) ـ مجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ، الجزء السابع ٠

٣٧ـ Kuhnel, Catalogue of Dated Tiraz Fabries (Umayyad, Abbasid, Fatimid).

عرض وتعليق على هذا الكتاب الذي صدر في واشنجتن سنة ١٩٥٢ ٠ نشر في مجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية في الجزء السابع ٠

١٩٥٤

٣٨ـ The Turban of Samuel ibn Musa, The Earliest Dated Islamic Textile.

بحث القي في مؤتمر المستشرقين بمدينة ميونخ ونشر ملخصا في كتاب المؤتمر ٠

١٩٥٥

٣٩- Four Dated Tiraz Fabrics of the Fatimid Khalif Az-Zahir., Kunst des Orients, Vol. II.

٤٠- History of Textile Industry in Alexandria, a publication of the University of Alexandria. من مطبوعات جامعة الاسكندرية ·

٤١- The Earliest Dated Textile, Bul., Faculty of Arts, Cairo Uni., Vol. XVI. Part II. مجلة كلية الاداب ــ جامعة القاهرة ·

١٩٥٧

٤٢- التحف المصنوعة من العاج (صفحات من الفن الاسلامي في الاندلس) · مجلة كلية الاداب ــ جامعة القاهرة ــ المجلد ١٧ ــ الجزء الثاني ·

٤٣- Three Signed Sepecimens of Mamluk Pottery from Alexandria, ARS Orientalis Vol. II.

١٩٥٨

٤٤- The Earliest Fatimid Textile, Tiraz al-Mansuria (Tunis)
بحث القي في مؤتمر المستشرقين بمدينة ميونخ ونشر ملخصا في كتاب المؤتمر ·

٤٥- Fatimid Painting and Decorative Arts.
بحث ترجم الى اللغة الايطالية ونشر في دائرة معارف الفن في روما ·

٤٦- Tiraz Al-Mansuria (Tunis), Bul. Faculty of Arts, Alex. Uni. Vol. XI. مجلة كلية الاداب ــ جامعة الاسكندرية جزء ١١ ·

١٩٥٩

٤٧- Egyptian Sgraffito Ware Evcavated at Kom ed-Dikka in Alexandria, Bul. Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. XIII. مجلة كلية الاداب ــ جامعة الاسكندرية ·

٤٨- Five Tiraz Fabrics in the Volkerkunde Museum of Basel, Aus der Welt des Islamischen Kunst.
كتاب صدر بمناسبة بلوغ الاستاذ كونل الثمانين من عمره ·

٤٩- الفن الاسلامي ــ دائرة معارف الشعب التي صدرت بالقاهرة ·

١٩٦٠

٥٠- الاسلام والفن ــ مجلة « المجلة » التي تصدر بالقاهرة عدد اكتوبر ·

٥١- مكانة الفن الاسلامي بين الفنون ــ مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة ، المجلد XIX الجزء الاول ·

١٩٦١

٥٢- The Spirit of Arab Art.
محاضرة القيت في جامعة لندن في مارس سنة ٩٦١ · ثم نشرت في مجلة منبر الاسلام الطبعة الانجليزية في المجلد الثاني العدد الاول ·

١٩٦٢

٥٣- Fatimid Painting and Decorative Arts, Minbar Al-Islam Magazin Vol. II, n. II.

٥٤- Some Influences of Arab Art on European Medieval Art.
محاضرة القيت في مدينة ڤيينا بدعوة من اليونسكو ــ ثم نشرت في مجلة منبر الاسلام الطبعة الانجليزية في المجلد الثاني ــ العدد الثالث ·

٥٥- فن الكتاب ــ دائرة معارف الشعب التي صدرت بالقاهرة ·

١٩٦٣

٥٦ـ A fatimid Mosque in a Byzantine Monastry, Minbar - Al-Islam Magazine, Vol. III, n. I.

٥٧ـ الحياة الفنية في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى الفتح التركي ـ الفصل الاخير من المجلد الثاني من سلسلة تاريخ الحضارة المصرية الذي نشرته وزارة الثقافة والارشاد بالقاهرة ٠

٥٨ـ الفن الاسلامي في العصر الايوبي ـ المكتبة الثقافية التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي في القاهرة ـ الكتاب رقم ٨٠ ٠

٥٩ـ قصر الحمراء ـ المكتبة الثقافية التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي في القاهرة الكتاب ٩١ ٠

١٩٦٤

٦٠ـ الناصر محمد بن قلاوون ـ من سلسلة اعلام العربّ التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ الكتاب رقم ٢٨ ٠

٦١ـ تحف من العاج من الف عام ـ مجلة الكتاب التي تصدرها جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين في بغداد ٠

١٩٦٥

٦٢ـ الاسلام والفن الجميل ـ مجلة الاقلام ـ الجزء السادس ٠

٦٣ـ فخار العراق وخزفه ـ مجلة سومر التي تصدرها دائرة الاثار ببغداد ٠

٦٤ـ الفن الاسلامي : تاريخه وخصائصه ـ بغداد في مايو سنة ١٩٦٥ ٠

مطبعة اسعد ـ بغداد
١٩٦٥/٥/١٠